الأدب الإسلامى

بين الأصالة والمعاصرة

د/ عبد الجواد محمد المحص

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بجامعة الأزهر

وعضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية

موقع المؤلف على الإنترنت " جواد "
www.geocities.com/gwadmhs
E-mail: gwadmhs@yahoo.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهــــداء

إلى أعضاء رابطة الأدب الإسلامى العالمية

ذكرى وتحية

د. عبد الجواد محمد المحص

تقديـــم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعـد :

فقد شهدت الساحة الأدبية فى الربع الأخير من القرن المنصـرم حماسـة فى الدعوة إلى إبداع الأدب الملتزم بمبادئ الإسلام الرفيعة ليحقق الأدب وظيفته السامية المنشودة؛ بـل شـهدت السـاحة حماسـة فـى الدعـوة إلى أسـلمة العلـوم كلها، ومثلت الدعوة لذلك جزءًا مـن تيـار الصحـوة الإسـلامية الـذى أطلـت تباشيره فى كل مكان، وفى كل منحى من مناحى الحياة. وكان من ثمار ذلـك أن ذاعـت مصطلحـات إسـلامية لهـا مؤيدوهـا ودعاتهـا المتحمسـون لهـا مثـل مصطلح "الاقتصاد الإسـلامى"، و"التـاريخ الإسـلامى" و"الجغرافيـا الإسـلامية" و"التشريع الإسلامى" و"الأدب الإسلامى".

ومما ساعد على شيوع هذه المصطلحات، وتحمس الداعـين إلى أسـلمة كل شىء أن كثيرًا من العلماء والمفكرين والأدباء والنقاد قد لاحظوا ما تفشـى فى المجتمع من تغريب وتبعية للغرب وثقافته ومذاهبه وأعرافه، فصـار البحـث عن نظرية أو خصوصية لعلومهم وأدبهم همًا يشـغلهم، وأمـلاً يطمحـون إليـه، وغاية يبذلون الجهد فى سبيلها من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية وحمايتهـا من الهزة التى أصابتها من جراء احتكاكها بالغرب وآدابـه واتجاهاتـه، ومـا نجـم عـن هـذا الاحتكـاك مـن خلـط المفـاهيم والمصطلحـات، والإيمـان بنظريـات وتصورات ليست من الإسلام فى شىء، كنظرية الحداثة الرافضة للماضى بكـل ما فيه من تراث وأصالة وسمو ونبل.

ومن هنا كـانت الدعـوة، وكـان الحمـاس فـى تثبيـت أركـان "الأدب الإسلامى" إبداعًـا وتـأصيلاً وتدريسًـا فـى الجامعـات، فكـثر مبدعـوه، وتتـابع أنصاره ومؤازروه، وامتلأت رفوف المكتبات بالمصنفات الدائرة فى فلكه، وبعد

أن كان الطالب والطالبة فى الجامعات يدرسان جزءًا من هذا الأدب يتمثل فى أدب عصر صدر الإسلام، صارا اليوم يدرسان هذا فى فصل دراسى ضمن الدراسة المتتابعة لعصور الأدب العربى، ثم يدرسان مرة أخرى الأدب الإسلامى دراسة مستقلة فى عنوانها ومنهجها. وقد أحسن القائمون على شئون الجامعات الإسلامية صنعًا حين فعلوا هذا، لأن دراسة الأدب الإسلامى فى عصر صدر الإسلام وحده لا تروى غلة الصادى لدراسة الأدب الإسلامى فى كل العصور، ودراسة هذه الأدب بالمفهوم الذى اصطلح عليه القوم فى الوقت الحاضر.

ويعد كتابنا هذا لبنة فى بناء الصرح الشامخ الذى ننشده لهذا الأدب، وقد تناولت فيه : مفهوم الأدب الإسلامى فى مرآة النقاد المعاصرين، والعلاقة بين الأدب الإسلامى والأدب العربى وعلاقة الأدب الإسلامى بالمذاهب النقدية قديمًا وحديثًا، وأهمية الأدب الإسلامى وموضوعاته، وملامح العناية به فى العصر الحديث، كما تناولت جذوره التراثية، وفنونه المتعددة فى العصر الحديث، ومزاياه وخصائصه، وتحليل بعض روائعه.

والله أسأل أن ينفع به، ويبارك فيه إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

حوش عيسى بحيرة فى : ١٠ / ٣ / ٢٠٠٠م

المؤلف

د/ عبد الجواد محمد المحص

أستاذ م بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات بالإسكندرية

وعضو رابطة الأدب الإسلامى العالمية

مفهوم الأدب الإسلامى فى مرآة النقاد

بادئ ذى بدء ينبغى أن نعرف أن "الأدب الإسلامى" الذى نتحدث عنه فى هذا الكتاب، ويتحدث عنه غيرنا فى الكتب والمقالات والندوات التى طفقت تتوالى منذ ربع قرن خلا حاملة هذا العنوان لا يقف عند حد العطاء الأدبى الذى جاءت به قرائح الأدباء فى عصر النبوة والخلفاء الراشدين من أمثال حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، والعباس ابن مرداس وأمثالهم ممن أبدعوا أدبًا متأثرًا بروح الإسلام وقيمه النبيلة ومضامينه السامية، وإنما الأدب الإسلامى الذى نعنيه مصطلح أو فكرة أو مذهب أو تيار أو نظرية أو منهج يتخطى حدود الزمان والمكان واللغة ليشمل كل نتاج أدبى ملتزم بمنهج الإسلام فى ميدان الفنون والآداب والحياة، فالأدب الذى أبدع فى العصور : الأموية والعباسية، والأندلسية، والمملوكية، والعثمانية، والحديث أدب إسلامى متى كان هذا الأدب ملتزمًا بروح الإسلام ومنهجه ومبادئه. فأدب الأمة الإسلامية عربيها وعجميها على امتداد العصور أدب إسلامى إذا حذفت منه النصوص التى لا تتفق مع ما يسمح به الإسلام كالخمريات، والغزل المكشوف، والهجاء المقذع، والمدح المتملق الكاذب، والأدب الماجن الصادر عن الملاحدة والزنادقة والمنافقين والحداثيين المنتمين فى الظاهر إلى الأمة الإسلامية والأدب الذى يخدش الحس الدينى عمومًا.

وينبغى أن نعرف -أيضًا- أن مصطلح الأدب الإسلامى الذى نعنيه لا يقف -فى مرآة المنظرين له اليوم- عند حد النصائح والمواعظ الدينية والابتهالات والتسابيح والمدائح النبوية، والتفاعل مع التاريخ الإسلامى أحداثًا وأبطالاً وعبرًا، وإنما يشمل هذا، ثم يمتد فى مدلوله ليشمل سائر الموضوعات والمحاور التى تشملها الرؤية الإسلامية الصحيحة للكون والحياة والإنسان، وتعبر عنها عواطف الأدباء، حتى فى نطاقها الذاتى الوجدانى، فالإسلام دين وحياة، والأدب الإسلامى ينقسم بصلته إلى الحياة إلى أدب يقوم بنشر الوعى الإسلامى وتبليغ الدعوة والفكر الإسلامى، وأدب يتصل بالحياة الإسلامية العامة، ويخدم جانبًا من جوانبها، ومبدعو هذا القسم وذاك ملتزمون بمنهج الإسلام، ويصدرون فيما يبدعون عن عاطفة إسلامية، ويريدون بما يقولون وجه الله وخدمة دينه الحنيف. وهذا الأدب قد يكون مدحًا أو هجاء أو رثاءً أو فخرًا أو حماسة أو وصفًا أو حكمة وموعظة، أو دعاء وابتهالاً أو تصويرًا للتاريخ والحاضر والمستقبل، لكنه مهما اختلفت موضوعاته لا يصدر إلا عن مشاعر إسلامية، والتزام بمنهج الإسلام.

فالأدب الإسلامى له صفة تفرده وتميزه عن الأدب عمومًا هى صفة "الإسلامية"، ومن هنا فإنه يشترك مع الأدب عمومًا فى جانب، ويتميز عنه فى جانب آخر .. يشترك مع الأدب عمومًا باعتباره أدبًا أولاً وقبل كل شىء والأدب فى عمومه : «تعبير عن تجربة شعورية فى صورة موحية»، أو «تعبير موح عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان .. هذه القيم تنبثق عن تصور معين للحياة والارتباطات فيها بين الإنسان والكون، وبين بعض الإنسان وبعض»[1].

---

[1] فى التاريخ : فكرة ومنهاج لسيد قطب، ص ١١، ط : الدار السعودية بجدة.

وهاتان الجزئيتان (التجربة الشعورية، والتعبير الجميل الموحى عنها) كائنتان في الأدب الإسلامي باعتباره أدبًا، ثم يزيد الأدب الإسلامي على الأدب عمومًا بأنه تعبير موح جميل عن تجربة شعورية إسلامية، أو بعبارة أخرى : تعبير عن قيم ذات لون خاص محكوم بالتصور الإسلامي، مختلف اختلافًا بينًا عن ذلك التعبير الذى يصدر عن تصوير غير إسلامي.

ومن هنا رأينا المرحوم سيد قطب الذى عرف الأدب عمومًا بأنه «التعبير عن تجربة شعورية فى صورة موحية»[1] يعرف الأدب الإسلامى بأنه «التعبير الناشئ عن امتلاء النفس بالمشاعر الإسلامية»[2]، ورأينا شقيقه الشيخ محمد قطب يعرف الفن الإسلامي -والأدب باب من أبوابه- بأنه «التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام لهذا الوجود»[3].

وحرى بالذكر : أنه قد دارت مناقشات واسعة حول تعريف الأدب الإسلامى فى "الندوة العالمية للأدب الإسلامى" التى انعقدت فى دار العلوم لندوة العلماء بلكنؤ من الهند عام ١٤٠١ هـ، وفى ندوة "الحوار حول الأدب الإسلامى ومناهج دراسته" التى انعقدت فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٠٢هـ، وفى ندوة "الأدب الإسلامى" التى انعقدت فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٥ هـ وكانت اتجاهات فريق من المشاركين فى هذه الندوات تميل إلى حصر الأدب الإسلامى بما فيه دعوة إلى فكرة أو سلوك أو خلق أو تصور مما يدعو إليه الإسلام أو يحث عليه أو يرغب فيه.

---

[1] النقد الأدبى : أصوله ومناهجه، ص ٨، ط: دار الشروق.

[2] فى التاريخ (مرجع سابق)، ص ١٥.

[3] منهج الفن الإسلامى، ص ، ط : دار الشروق.

ثم انعقد المؤتمر العالمى لرابطة الأدب الإسلامى بلكنؤ بالهند، وناقش تعريف الأدب الإسلامى مرة رابعة، وانتهى إلى أن الأدب الإسلامى : هو التعبير الفنى الهادف المعبر عن الحياة والكون والإنسان، وفق عقيدة أهل السنة والجماعة.

وواضح أن هذا التعريف يقيد التعبير الفنى بأن يكون وفق عقيدة أهل السنة والجماعة، ومعلوم أن العقيدة فى الاصطلاح تتناول المفاهيم الإيمانية، لكن الإسلام بوجه عام يتناول العقيدة والأحكام والحلال والحرام والأخلاق وأنواع السلوك الظاهر والباطن، كما يتناول التكاليف الشرعية والحدود.

لذلك استمر الباحثون والمهتمون بدراسة الأدب الإسلامى فى محاولاتهم الهادفة إلى بلورة مفهوم محدد للأدب الإسلامى، وتعددت تصوراتهم لهذا المفهوم.

فعرفه أحدهم[1] بأنه «التعبير بأى فن من فنون الكلام الجميل المؤثر بشرط أن يكون ذا مضمون لا يتنافى مع ما أمر به الإسلام، أو نهى عنه، أو أذن به».

وهذا التعريف يُخرج من نطاق الأدب الإسلامى كل أدب يتضمن عقائد ومفاهيم لا يوافق عليها الإسلام، أو أنواعًا من السلوك الظاهر أو الباطن لا يوافق عليها الإسلام، أو يحرم ما أباحه الإسلام وأذن به.

وعرفه آخر بأنه «الأدب الذى يتناول مفهومًا من مفاهيم الإسلام أو الذى تتمثل فيه المعانى القرآنية وأقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وصلحاء الأمة الإسلامية».

---

[1] الشيخ عبد الرحمن الميدانى فى محاضرة له بجامعة أم القرى ألقاها يوم ٢٦ / ٦ / ١٤٠٧ هـ بعنوان (قضايا حول الشعر العربى والأدب الإسلامى).

وعرفه ثالث[1] بأنه «الأدب الذى يعبر عن النظرية الإسلامية الشاملة للكون والوجود، فلا يتصادم معها أو يخالفها فى أية جزئية من جزئياتها ودقائقها».

وواضح من هذا التعريف أن صاحبه لم يخرج فيه عن تعريف الشيخ محمد قطب إلا فى بعض ألفاظ وعبارات منها حذفه لعبارة "التصور الإسلامى للوجود" ووضع عبارة (النظرية الإسلامية الشاملة للكون والوجود)، ومن هنا لم يكن تحديده لمفهوم الأدب الإسلامى تحديدًا دقيقًا، وكان شبيهًا بآخرين جعلوا من الأدب الإسلامى نظرية، مع أن هذا المصطلح يومى بأن مدلوله متغير غير ثابت لأن النظرية ما هى إلا : جملة تصورات مؤلفة تأليفًا عقليًا، تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات، وفرض علمى يمثل الحالة الراهنة للعلم، ويشير إلى النتيجة التى تنتهى عندها جهود العلماء أجمعين فى حقبة معينة من الزمن[2] . ومن ثم فإن ربط مصطلح النظرية بالأدب الإسلامى لا يحقق الهدف المقصود، ولا يتلاءم مع هذا الأدب بحال، لأن هذا الأدب ثابت، أما النظرية فمدلولها متجدد أو ممكن التجدد والتبدل والتغير.

ويرى الشيخ محمد المجذوب : أن كل نص ينطبق مضمونه على حقيقة إسلامية فهو إسلامى أيًا كان منشئه، لأنه نوع من الحكمة التى تؤخذ من أى طريق أتت[3].

ولما كان التعريف السابق مطلقًا غير مقيد فإن باحثًا آخر قيد الأدب

---

(1) د/ محمد مصطفى هدارة فى بحث له بعنوان (الالتزام فى الأدب الإسلامى) قدمه إلى ندوة الأدب الإسلامى بجامعة الإمام عام ١٤٠٥هـ.

(2) معجم المصطلحات الأدبية لمجدى وهبة، ص ٥٦٠، ط : بيروت ١٩٧٤م.

(3) رحلة الشعر العربى من الجاهلية إلى الإسلام - بحث مقدم لندوة الأدب الإسلامى بجامعة الإمام سنة ١٤٠٥هـ، ص ٢٣.

الإسلامي «بأنه الأدب الذى يدخل ضمن الإسلام تاريخًا ومكانًا وقائلاً، ويستوحي الإسلام استيحاء كاملاً فى أفكاره ومعانيه، بل وفى صوره أحيانًا، وإن لم يكن كذلك فإنه لا يمكن أن يدخل ضمن الأدب الإسلامي بحال من الأحوال. وانطلاقًا من هذا فإن الأدب الجاهلي العربي الذى وافق فى بعض نصوصه ما دعا إليه الإسلام من قيم ومبادئ وفضائل لا يدخل على الرغم من هذا ضمن الأدب الإسلامي؛ لأنه لا يدخل ضمن الإسلام تاريخًا. وكذلك الأدب الذى لا يدخل ضمن الإسلام مكانًا كبعض آداب الشعوب التى لم تعتنق الإسلام بعد ظهوره، فوافق أدبها فى بعض أحواله ما يدعو إليه الإسلام من قيم ومبادئ وفضائل، وكذلك أدب النصارى واليهود والملحدين العرب الذى كان على هذه الشاكلة، لأنه أدب أناس لم يدخلوا فى الإسلام قائلاً»[1].

لكن صديقنا الدكتور محمد بن سعد بن حسين -فى حديث لى معه- أدخل الصالح المستقيم من أدب أهل الكتاب فى الأدب الإسلامي حين عرفه بأنه «كل أدب صنع بعد بعثة محمد ﷺ وصنعه مسلمون وذميون عاشوا بين المسلمين والتزموا بآداب الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وما خرج من ذلك عن حدود مفاهيم الإسلام فهو مرفوض ككل سلوك أعوج فى الأدب والأدباء أو عند سواهم من خاصة الناس وعامتهم»

ويرى الدكتور أحمد بسام ساعي أن «الفن من وجهة نظر الإسلام هو الإبداع البشري الهادف الجميل الذى يرتفع بروح الإنسان باتجاه المثال النقي مبتعدًا عن أوحال الأرض وشرورها، وذلك من خلال أبعاده الزمانية والمكانية والفكرية»، وانطلاقًا من هذا التعريف وضع دراسة لشريحة من الشعر الجاهلي تتمثل فى أبيات تأبط شرًا التى مطلعها :

---

[1] د/ ناصر الرشيد فى حديث له بالجزيرة، العدد ٤٥٧١ الصادر يوم الخميس ١٤ رجب ١٤٠٥ هـ.

يا عيد مالك من شوق وإيراق ومر طيف على الأهوال طراق

وقسم هذه الشريحة فى خطها الإبداعى إلى منبع وهو التجربة، ومجرى وهو القصيدة بعناصرها المكانية والزمانية والفكرية، ومصب وهو الأثر الجمالى أو الأخلاقى الذى تتركه بعد ذلك فى نفس القارئ، ودعا فى دراسته إلى أمرين : أولهما: تقسيم الأدب من حيث الأثر : إلى إسلامى وجاهلى، وحائر!! وثانيهما : الاهتمام بالمجرى والمصب دون المنبع حين نسعى إلى إصدار أحكامنا النقدية الملتزمة بالإسلام ... وأفضت به دراسته إلى أن «تأبط شرًا اللص الصعلوك يبدو لنا فى هذه الأبيات، إذا فصلناها عن القصة التى تروى عن مناسبة نظمها، وعن الواقع التاريخى للشاعر : رجلاً عفا، أبيًا، كريم النفس، شديد العزم، قوى الشكيمة، متقشفًا، زاهدًا بمتاع الحياة وزخرفها، مؤثرًا الخشونة على اللين، والتعب على الدعة، والقوة على الضعف، وهو بهذا يقترب كثيرًا من شخصية المسلم النموذجى، حتى لتكاد الشخصيتان تتطابقان»[1].

وليس من غايتى هنا مناقشة الدكتور بسام ساعى فيما ذهب إليه من مغالطة فى حكمه ترفع قدر تأبط شرا الجاهلى وتخفض قدر المسلم باعتبارأن الإسلام لا يمثل فى تلك الصفات فحسب حتى يحكم بتطابق الشخصيتين وإنما هدفى المضى فى سرد بعض التعريفات التى حاول بها الباحثون وضع مفهوم دقيق للأدب الإسلامى حتى يعرف ما يدخل فيه وما يخرج عنه. وعرف صديقنا الدكتور على صبح الأدب الإسلامى بأنه «التصوير الفنى الجميل للكائنات حية كانت أو جامدة التى سخرها الله تعالى للإنسان فى الحياة والكون، يستمد الأديب قيمه الخلقية والفنية من حضارة الإسلام المتجددة قديمًا

---

[1] الواقعية الإسلامية فى الأدب والنقد، ص ٤٥ - ٤٨.

وحديثًا وفى المستقبل، تصويرًا حيًا قويًا نابضًا بـالصدق الفنـى، يثير العواطـف والانفعالات، ويحرك المشاعر والأحاسيس، ويثرى الوجدان والخواطـر سـواء أبدع باللغة العربية أو بلغات الشعوب غير العربية»[1].

وواضح من هذا التعريـف أنـه أضـاف إضافـات مهمـة مـن خصـائص التصوير الأدبى وهى :

١-حيوية التصوير الفنى وقوته وتجدده.

٢-إيثار "التصويـر" لا "التعبير"، لأن الأول أشمـل لروافـد الأدب ولغيرهـا مـن عنـاصر التصويـر كـاللون والحركـة والصـوت والحجـم والشـكل والطعـم والرائحة وغيرها.

٣-إبراز أثر التصويـر فـى عواطـف الآخريـن ومشـاعرهم وخواطرهـم ولقيمـه الخلقية والفنية.

٤-التصريح بمصطلح "الصدق الفنى"، لأنه هو المخرج الدقيـق والمقيـاس المميز الذى يخرج أدب غير المسلم حين يحمل سمات الأدب الإسلامى خلقيًا وفنيًا، فهو ليس أدبًا إسلاميًا، وإن كان مقبولاً منه غير مرفوض، لأنه لم يصدر عن فطـرة مستقيمة، ووجـدان عـامر بالإيمـان الخـالص والعاطفـة الصادقـة فـى التصوير الذى لا يتناقض مع سلوكه وعمله؛ فالإنسان مهما تظاهر بالإسلام إلا أن الفطرة الصادقة تتعارض مع الزيف، وهو ما يتنافى مـع قيـم الحضـارة الإسلامية، وعلى ذلك لا يدخل مثل شعر خليـل مطـران [ذى الموضوعـات والملامح الإسلامية] فى الأدب الإسلامى.

٥-يصرح تعريف الدكتور على صبح بتوسيع إطـار وحقـل الأدب الإسـلامى، فيضم إلى أدب اللغة العربية آداب لغات الشعوب الإسلامية غير العربية مثـل

---

(1) الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق، ٣/٣١٠ - ٣١١ ط : الجريسى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨م.

الأدب الإسلامي في الهند وتركيا والباكستان وأندونيسيا وأفغانستان والبوسنة والهرسك وغيرها، أو المترجم عن هذه الشعوب بلغة عربية أو غيرها.

لذلك فإني أعد هذا التعريف هو أدق ما قيل من تعريفات للأدب الإسلامي، بل أدق من التعريف الذى وضعته رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

وأنا في الحقيقة لا أحامل الدكتور على صبح بتأييدى لتعريفه، وإنما أذكر الحقيقة بموضوعية، لأن تعريفه هذا قد حل الإشكاليات العديدة التى أثيرت حول مصطلح "الأدب الإسلامي" حينما بزغ فجره وتردد على الألسنة لدرجة أن الدكتور جابر قميحه -أمد الله في عمره- كتب بحثًا في هذا الشأن تحت عنوان (الأدب الإسلامي بين إشكاليات المصطلح والواقع الأدبى)، وربما نستعرض هذه الإشكاليات في موطن آخر إن شاء الله.

وأذكر -هنا- أن بعض الباحثين لما ضاقوا بهذه الإشكاليات وحاروا في مسألة التيار الإسلامي في أدب غير المسلمين، هل يدخل في الأدب الإسلامي أو لا يدخل ؟ راحوا يقترحون تعديل التسمية إلى "أدب الفكرة الإسلامية" أو "أدب العقيدة الإسلامية" أو "أدب الدعوة الإسلامية"[1] أو "المنهج الإسلامي في الأدب" أو "الالتزام الإسلامي في الأدب"[2] أو نحو ذلك مما يحقق للتسمية مفهومًا أدق ومدلولاً أصح، بل إن أحدهم قد سمى أدب الذميين المستقيم أدبًا إسلاميًا بالتبعية الزمنية والاجتماعية !![3].

وننتهى مما سبق عرضه عن مفهوم الأدب الإسلامي في مرآة النقاد المعاصرين إلى عدة نتائج مهمة هى :

---

[1] انظر : دراسات في أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود حسن زينى، ص ٤٦، ط : مكتبة الخانجى بالقاهرة.

[2]، [3] انظر : الأدب الإسلامي بين الواقع والتنظير، ص ٢٥.

١-أن الأدب الإسلامى مصطلح ينضوى تحته -طبقًا للمفهوم الدقيق الذى انتهينا إليه- كل أدب أبدعه أديب مسلم بتصوير فنى أخاذ، وعاطفة إسلامية صادقة، متناولاً فيه مفهومًا من مفاهيم الإسلام أو قضية إسلامية صافية، أو موضوعًا يتفق مع روح الإسلام ومنهجه ومبادئه حتى لو كان هذا الموضوع مدحًا كقصائد الشعراء -مثلاً- فى مدح الحافظ ابن حجر العسقلانى حين أنجز كتابه الشهير (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) أو هجاء كقصائد الشعراء فى هجاء إبليس والفسقة والملاحدة وهجاء البوصيرى للنصارى فى عقيدتهم الزائفة، أو رثاء للآباء والأمهات والأبناء والزوجات والأحباب وزعماء الأمة الإسلامية، أو فخرًا وحماسة كالشعر المنشود فى جهاد المسلمين ضد أعدائهم، أو وصفًا لمخلوقات الله البديعة فى كونه، أو غزلاً عفيفًا نقيًا كقصائد العذريين، أو حكمة وموعظة ... ونحو ذلك من الأغراض.

٢-أن المفهوم الذى أوضحه الشيخ محمد قطب للفن الإسلامى هو القاعدة التى استأنس بها أكثر المهتمين بدراسة الأدب الإسلامى بعده، وإن لم يشر أكثرهم إلى ذلك.

٣-أن الأدب الإسلامى : "أدب" بكل ما لهذه الكلمة من حمولة فنية، و"إسلامى" بكل ما لهذه الكلمة من حمولة فكرية وحضارية، غاية الأمر أن هذا المصطلح كان يفتقر إلى إيضاح بعض الضوابط التى تخرج من نطاقه ما ينبغى ألا يدرج فيه كالأدب الصالح المستقيم، والأدب المتأثر بروح الإسلام عند غير المسلمين، لأن صناع هذا الأدب لا يدينون بالإسلام، ولا ينطلقون من منطلقاته، ولا يقفون عند حدوده، وهكذا الأدب الجاهلى الموافق فى بعض أحواله وقيمه ومبادئه لما دعا إليه الإسلام من بعد.

٤-أن الذين يرون إطلاق الحد الزمنى بحيث يندرج فى مصطلح "الأدب الإسلامى" كل أدب يحمل قيمًا إسلامية حتى لو كان من العصر الجاهلى

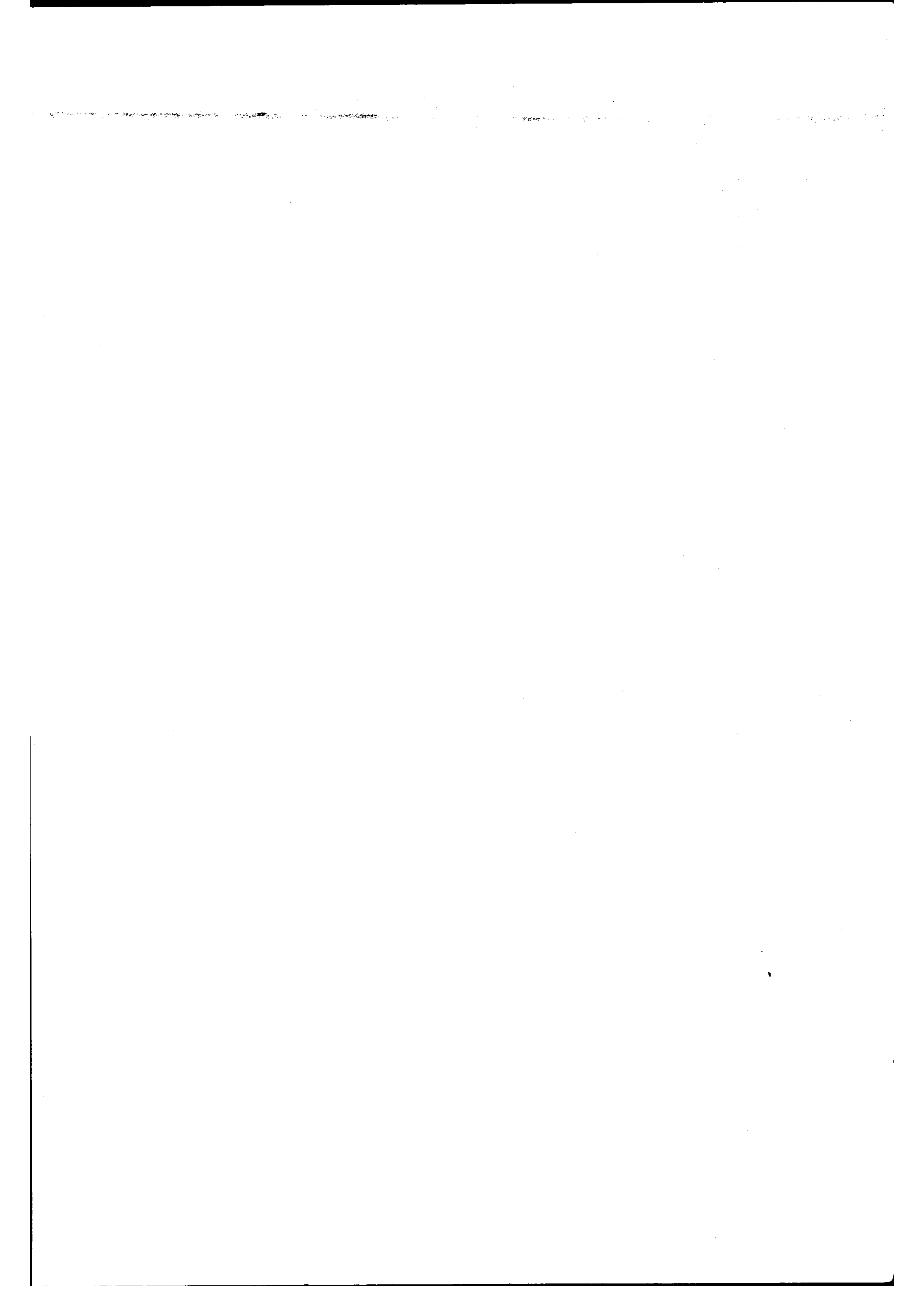
يحملون هذا المصطلح ما لا يحتمل، فالمصطلح نشأ فى ظروف معينة ليؤدى غرضًا محددًا، وليس من العدل أن نلقى على كاهله عبء القرون السابقة للإسلام، وأن نتعامل معه بأثر رجعى.

٥ -أن الأدب الإسلامى بالمفهوم الدقيق الجامع المانع الذى انتهينا إليه مصطلح يطلق على سائر الأعمال الأدبية التى جاءت أو تجىء مطابقة لهذا المفهوم، سواء كانت باللغة العربية التى هى لغة القرآن والسنة، أو بغيرها من لغات الشعوب الإسلامية غير الناطقة بالضاد، كالشعر الإسلامى لمحمد إقبال مثلاً.

إن مصطلح "الأدب الإسلامى" بذلك التحديد الذى سلف لا يشمل أدب الغواية والفساد والإثارة الجنسية وتزيين الرذيلة، ولا يشمل -أيضًا- الأدب الذى يخدش الحس الدينى، ويبلبل التصور الدينى للأمور، والأدب الوثنى التصور، والأدب الذى يتبع الهوى والمذاهب الهدامة المنحلة كالبنيوية والحداثة والوجودية والماركسية والعلمانية والزندقة والإلحاد، ولا يشمل -كذلك- الأدب الذى يضفى القداسة على غير ما هو مقدس، والأدب الذى يتخذ من الخالق سبحانه رمزًا فى العمل الأدبى، أو يستخدم الأنبياء والرموز المقدسة كالكعبة استخدامًا لا يحفظ لهم عصمتهم وطهارتهم .. ولا يشمل بصفة عامة كل أدب تكون الرؤية والصورة فيه فاسدة. فالغزل الفاحش، والفخر العنجوانى المتعالى على الآخرين، والمدح المتملق الكاذب، وشعر الفتوة الخاص بالسلب والنهب، والغزل بالمذكر، ووصف الخمر ومجالسها وسقاتها .. ونحو ذلك من الأغراض التى لا تنسجم مع التوجه الإسلامى فى الحياة .. كل هذا ليس من الأدب الإسلامى، ولا الأدب الإسلامى منه حتى لو كان صاحبه من المسلمين[1].

---

[1] ناقشنا هذا الأدب المنحرف وضربنا أمثلة له فى كتابنا "الأدب الإسلامى : قضايا وروائع".



العلاقة بين الأدب الإسلامى وغيره من الأدب

أشرت فيما سبق إلى أن "الأدب الإسلامى" له صفة تفرده وتميزه عن الأدب عمومًا هى صفة "الإسلامية"، وأنه يشترك مع الأدب عمومًا فى جانب، ويتميز عنه فى جانب آخر... ومضيت أفصل القول عن ذلك حتى انتهيت إلى تجلية الفارق بين الأدب الإسلامى والأدب بمفهومه العام.

وأود -هنا- أن أتحدث عن أمرين مهمين هما : العلاقة بين الأدب العربى والأدب الإسلامى، والعلاقة بين الأدب الإسلامى والمذاهب النقدية الحديثة.

أولاً : العلاقة بين الأدب الإسلامى والأدب العربى :

مما لاشك فيه : أن هذه العلاقة علاقة رحم وقرابة، فالأدب العربى مصطلح يطلق على الأدب المكتوب باللغة العربية أيًا كان مضمونه واتجاهاته وعصوره. والأدب الإسلامى مصطلح يطلق على الأدب المصطبغ بالروح الإسلامية سواء أجاء هذا الأدب مكتوبًا باللغة العربية أم بغيرها من اللغات. ويفهم من هذا أن الأدب الإسلامى -من حيث اللغة المكتوب بها- أعم من

الأدب العربى، وأن الأدب الإسلامى -من حيث الصبغة والروح- أخص من الأدب العربى.

لقد ولد الأدب الإسلامى -أوّل ما ولد- فى أحضان الأدب العربى الذى بدأت مسيرته قبل ظهور الدعوة المحمدية بقرنين أو قرن ونصف من الزمان الذى اصطلح على تسميته بالعصر الجاهلى.. ولد الأدب الإسلامى -كما قلت- فى أحضان هذا الأدب، فكان بين الأدبين أمومة وقرابة، وطفق الوليد ينشر أعلامه منذ غمس الأدباء الذين شرح الله صدورهم للإسلام تجاربهم الأدبية فى الدفاع عن الدعوة المحمدية وقضايا الإسلام، وتوظيف شعرهم ونثرهم فى خدمة المجتمع الإسلامى، ونما هذا الوليد فى الشعر العربى ونثره، وعالج قضايا عدة برؤية إسلامية، وشكل تيارًا أدبيًا إسلاميًا رافق رحلة الأدب العربى منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا، على النحو الذى سنفصل القول عنه بالتتبع والشواهد فى فصل قادم.

فالأدب العربى إذن هو حصن الأدب الإسلامى الأول وميدانه الأهم، ولكنه فى الحقيقة والواقع : ليس ميدانه الأوحد، فعندما انتشر الإسلام خارج الأقطار العربية، ودخلت فيه شعوب أخرى، وتأثرت به آدابها، نبتت لهذا الأدب أجنحة جديدة أعطته بعدًا إنسانيًا عالميًا، فقد ظهر فى الأدب الفارسى منذ القرن الثالث الهجرى تيار إسلامى استفاد من الأدب العربى شعره ونثره، واستفاد من القرآن والسنة، وحمل قضايا إسلامية كثيرة، وأصبح تيارًا موازيًا للتيار الإسلامى فى الأدب العربى، وربما يتفوق عليه فى بعض القضايا والفنون. وما لبث الأدب التركى أن استفاد من الأدب الفارسى والأدب العربى، ونهل مما نهل منه الأدبان المذكوران من المعانى القرآنية فامتد الأدب الإسلامى فى لغة أخرى وشعوب إسلامية أخرى. وعندما تشكلت اللغة

الأردية وظهرت فيها الأعمال الأدبية كانت الآثار الإسلامية جزءًا من نسيج هذه الأعمال، ومازالت الآداب الفارسية والتركية والأردية تحمل تيارًا إسلاميًا واضحًا حتى يومنا هذا[1]. ولكن الأدب العربى هو ميدان الأدب الإسلامى الأكبر، لأن اللغة العربية هى لغة الإسلام، بها تنزل الوحى، وبها نطق صاحب الدعوة، وعليها يتكئ المسلم -عربيًا وغير عربى- فى صلاته وحجه وابتهاله وتفقهه بالدين، وكم نحلم باليوم الذى تصير فيه هذه اللغة لغة العالم الإسلامى كله.

وينبغى أن نعلم أن الذين يدعون اليوم إلى أسلمة الأدب لا يقصدون من وراء هذه الدعوة إلغاء شىء من الأدب العربى، ولا إنكار الأدب الجاهلى والأموى والعباسى والمملوكى والعثمانى والأندلسى والحديث. فأدب هذه العصور تراث عريق لا يرفض ولا يلغى، لكنه يحتاج إلى فحص أو "غربلة" إن جاز هذا التعبير، لأن الأدب العربى -عبر مسيرته الطويلة- قد ضم تيارات شتى، منها ما هو جزء من جسد الأدب الإسلامى ذاته، ومنها ما هو تيار موازٍ ليس فيه رؤية إسلامية ولا رؤية معادية، ومنها ما هو تيار معاند يصطدم بالرؤية الإسلامية أو يعتدى على بعض القيم الإسلامية أو الشخصيات الإسلامية، ويمثل اضطراب التجربة الإنسانية وتناقضاتها فى ظل اضطراب العقيدة أو فسادها، وهذا النوع وحده هو الذى ينبغى تنقية الأدب العربى منه، كما ينبغى السعى إلى عدم تكراره فى أدبنا المعاصر أو المستقبلى.

إن الأدب العربى -بجملته- هو ركيزة الأدب الإسلامى الأولى، وهو الأم التى حملت هذا الأدب وأرضعته، وتعهدته بالعناية والرعاية، ولا يستطيع

---

[1] للاستزادة : انظر الفصل الخاص بآداب الشعوب الإسلامية فى كتابنا "الأدب الإسلامى": قضايا وروائع

أحد أن ينكر أن الأدب الإسلامى يتألق بما فى الأدب العربى من نصوص قيمة تصقل الذوق، وتنمى حاسة الجمال وتعلى القيم الفاضلة وتثبت التصور الدينى وترسخه، وتقدم النماذج الطيبة والقدوات الحسنة، وتدعو إلى العمل الصالح، وتؤكد آدمية الإنسان وتكرمه، وتقاوم وتناضل ضد المعتدى الأجنبى على بلاد المسلمين.

وأما ما يؤذى المتلقى فى عقيدته وخلقه وذوقه وحسه الدينى فلا يتوانى الناقد المسلم عن تسفيهه ورفضه وإخراجه من دائرة الأدب الإسلامى، سواء أكتب بالعربية أم بغيرها.

ثانيًا : العلاقة بين الأدب الإسلامى والمذاهب النقدية القديمة :

معروف أن النقد العربى القديم فى تعامله مع الأدب، ولاسيما الشعر قد مر بمراحل عدة بدءًا من الملاحظات التأثرية الخاطفة المعتمدة على الذوق الفردى لشاعر كالنابغة الذبيانى، أو لمتذوق كأم جندب، وانتهاء بالمناهج النقدية المتمثلة فى المنهج اللغوى، والمنهج التاريخى، والمنهج النفسى، والمنهج الفنى، والمنهج المتكئ على المقياس الدينى والأخلاقى، ومرورًا بما بين البدء والانتهاء من مراحل حولت النقد العربى من بذرة إلى شجرة يانعة الثمار.

ومعروف -كذلك- أن أصحاب كل منهج من المناهج السالفة كانت لهم مقاييسهم وأحكامهم الخاصة فى تقويم العمل الأدبى.

والذى يعنينا هنا -بالطبع- هو تحديد العلاقة بين الأدب والدين، وتجلية مواقف أصحاب المناهج النقدية القديمة من هذه القضية.

والقارئ المتتبع لتراثنا النقدى يكتشف أن النقاد القدامى قد اختصموا فى علاقة الشعر بالدين والأخلاق، فذهب فريق إلى أن الدين والأخلاق لا صلة لهما بالشعر، وأن الشاعر حر فى أن يعبر عن أحاسيسه، وما يعتلج فى صدره،

سواء أقره الدين أم لم يقره، وسواء أوافق الأخلاق أم خالفها. وذهب فريق إلى العكس من ذلك، ورأوا ضرورة أن يتقيد الشعر بتعاليم الدين وقواعد الأخلاق، وألا يتناول من المعانى والصور ما فيه استهانة بتعاليم الدين وقواعد الأخلاق.

ويفهم من هذا أن فريقًا من نقادنا القدامى قد أشاروا إلى "إسلامية" الأدب، وإلى حتمية مراعاة التعاليم الإسلامية فى إبداعه، بل وفى حفظه وروايته. ويرجع الفضل فى مراعاة هذا المقياس إلى فريق من الحكام وأولى الأمر ورجال الأخلاق الذين كان يعنيهم حفظ كيان الأمة وحياطتها بسياج من الدين والأخلاق. وأول من رأينا من هؤلاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى أنذر كل شاعر يتغزل فى المرأة بالجلد، قاصدًا بذلك أن يسن للشعراء طريقًا يسيرون عليها فى نظمهم لشعرهم، ونسجهم لقريضه، فمن سلك هذه الطريق نجا، ومن اختار عكسها نزل به العقاب. على أن الفاروق أيضًا قد وضع حدًا للهجاء المقذع، وموقفه من الحطيئة والحكم عليه بالسجن أشهر من أن يذكر فى هذا الصدد. وهكذا كان عبد الملك بن مروان الذى استنكر شعرًا على عمر بن أبى ربيعة فيه خروج على تعاليم الدين، وحينما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وقف من عمر بن أبى ربيعة والأحوص المعروفين بالخبث والشر موقفًا رادعًا وأمر بنفيهما. ولم يختلف موقف رجال الدين عن هذه المواقف. ثم اتسع نطاق الحديث عن الشعر وعلاقته بالدين والأخلاق منذ نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجرى. وصارت هذه العلاقة قضية كبيرة تنوعت فيها المواقف النقدية بين رافض لتجاوزات الشعراء ومبالغاتهم وتفحشهم فى الغزل وإسقاط للشاعر وشعره إذا وجد فى شعره شىء من ذلك، وبين مترخص فى مبالغات الشعراء وتجاوزاتهم وغزلهم

الفاحش، اتكاء على مذهب الفصل -فى تقويم الشعر- بين المعتقد والفن، وبين مصنف للشعر فى باب الشر اتكاء على مقولة الأصمعى القديمة : «أعذب الشعر أكذبه» بمعنى أنه لا يصلح للخير ولا يجود فيه، وأنه يضعف ويلين إذا دخل فى باب الخير.

فلما كان القرن الخامس الهجرى، وجدنا "الباقلانى" ينكر التفحش فى الشعر، ويسقط الشعر المتفحش، ووجدنا "الثعالبى" يقف عند تجاوزات "المتنبى"، ويشير إلى أنها تدل على ضعف العقيدة، ويورد مناقشة القاضى الجرجانى التى فصل فيها شاعرية المتنبى عن معتقده، ويستدرك عليها وكأنه يرفض أن يبعد المقياس العقدى عن تقويم ذلك الشعر فيقول : «... ولكن للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ونظمًا ونثرًا، ومن استهان بأمره، ولم يضع ذكره وذكر ما يتعلق به فى موضع استحقاقه؛ فقد باء من الله تعالى، وتعرض لمقته فى وقته»[1].

هذا ولابن رشيق القيروانى موقف صنف فيه الشعر بمقاييس للعقيدة توزعه وفق مضمونه وأهدافه إلى : خير وظرف وشر وتكسب. يقول: «فشعر هو خير كله، وذلك ما كان فى باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به بالخير، وما أشبه ذلك. وشعر هو ظرف كله، وذلك القول فى الأوصاف والنعوت والتشبيه، وما يفتن به من المعانى والآداب. وشعر هو شر كله، وذلك هو الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس. وشعر يتكسب به، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو، ويأتى إليه من كل جهة فهمه»[2].

---

(1) يتيمة الدهر ١ / ١٨٤، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٦م.

(2) العمدة ١ / ٧٦ تحقيق د. حسن ذكرى، مكتب الأزهر، القاهرة، ١٩٨٣م.

وانطلق ابن شرف القيرواني في نقده من موقف أخلاقي، وعنى بنقد المضمون ومدى ارتباطه بالقيم الفاضلة أو مخالفته لها، ورفض تفحش امرئ القيس وأسقط أبياته المشهورة في عنزة[1] ، واستقبح الخروج على العقائد والتقاليد المرعية، وأخذ على ابن هانئ الأندلسي تجاوزاته العقدية، وعابه بأنه استعان على صلاح دنياه بفساد أخراه لرداءة عقله ورقة دينه وضعف يقينه، ولو عقل لم تقف عليه معاني الشعر حتى يستعين عليها بالكفر[2] .

أما الناقد المشهور عبد القاهر الجرجاني فقد رفض عبث الشعراء بالمفهومات الدينية في سبيل الإغراب أو المبالغة، وعلق على بيت المتنبي الذي يقول فيه :

ترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

فقال : «وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهزل والعبث من الجد (الدين) ويتغزل بهذا الجنس»[3] .

ونفر ابن بسام من التفلسف في الشعر ومن إيراد المعاني الإلحادية فيه. وهاجم مبالغات المتنبي، ومغالطات أبي بكر الداني، والآراء السخيفة للسميسر.

ومما لاشك فيه : أن ما تقدم من مواقف النقاد القدامى ذو دلالة واضحة على أن العقيدة لم تكن غائبة عن النقد والنقاد في تقويم العمل الفني، وأن هؤلاء النقاد لم يفصلوا بين الدين والأدب في نظراتهم النقدية الثاقبة.

ثالثًا : الأدب الإسلامي والمذاهب النقدية الحديثة :

معروف أن المذاهب النقدية التي ولدت ونمت في الغرب

---

[1] انظر : مسائل الانتقاد، ص١١٣.

[2] انظر : السابق، ص١٠٥.

[3] أسرار البلاغة، ص٢٠٣، بتحقيق محمد رشيد رضا، ط دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م.

كالكلاسيكية، والرومانتيكية، والواقعية، والرمزية، والطبيعية، والبرناسية، والسريالية، والوجودية، والتعبيرية كان -ومايزال- لها دور في توجيه الآداب والفنون في العالم الغربي وتفسيرها ووصفها وتحليلها. ثم كان لهذه المذاهب النقدية أصداء واسعة في أدبنا العربي الحديث وسائر فنوننا، بحكم مواضعات النقل والترجمة والتقليد في ظل المد الثقافي الغربي. وقد تأثر عدد من الأدباء والنقاد العرب بها إلى حد الإعجاب والانبهار مع أن هذه المذاهب مذاهب الغربيين لا مذاهبنا، ومع أنها أنشئت لهم لا لنا.. لكن هذا هو الذي حدث.

وإذا رحنا نبحث عن علاقة الأدب الإسلامي، بتلك المذاهب فإننا نجد الأدب الإسلامي قد استقبلها دون افتتان بها وانبهار، إذ حافظ على منهجه وجوهره وحقيقته، واتخذ منها موقفًا إيجابيًا ينفي خبثها ويفيد من طيبها؛ بل إنه تميز عليها بقيمه الدينية والخلقية. والدليل على هذا أن الكلاسيكية الغربية كانت تمثل أدب الخاصة (الطبقة الأرستقراطية)، وكانت تمجد العقل، وتقدس القواعد والعادات والتقاليد والموروثات القديمة، وكانت تقليدًا وحصارًا للعقل بالتقاليد القديمة وتقديسها وتمجيدها. أما الأدب الإسلامي، فهو أدب الإنسانية جمعاء لا يتحيز لطبقة دون أخرى، وهو أدب مجرد من التقليد الأعمى الذي يذمه الإسلام ويرفضه. والعقل في الإسلام وأدبه ليس مقدسًا كما في الكلاسيكية الغربية، لأنه مخلوق له قدراته المحدودة، فهو يميز بين الخير والشر، والحق والباطل في ظلال شريعة خالق العقل ومبدعه.

وهكذا ترى الأمر حين توازن بين الأدب الإسلامي والرومانتيكية الغربية، فالرومانتيكية الثائرة على الكلاسيكية، القائمة بمبادئها على أنقاضها تهدم ما استقر في المجتمع من تقاليد وعادات وطبقية، وتنتصر للفردية والذاتية المظلومة ولمصالحها، وتبالغ في العناية بالقلب والعاطفة والخيال، وتثور جاحدة

للعقل والحقيقة، وتجعل الغاية من الأدب الجمال حتى فى تصوير الشر والقبيح، وقد نجمت عن هذه المبادئ سمات أدبية كالتحرر والثورة المطلقة وتمجيد الذات، والتغنى بالحزن والألم والتشاؤم والسلبية والعزلة والانطوائية ثم الاعتداد بالعاطفة وحدها وبالخيال وحده. أما الأدب الإسلامى فيقف موقفًا معارضًا لكثير من هذه المبادئ، إذ يعارض التحرر المطلق من كل قيد، ويسير فى سياج العقل المستنير بنور الإسلام، ويرفض المبالغة فى التغنى بالألم والحزن والتشاؤم واليأس والاكتئاب، كما يرفض العزلة والسلبية والانطوائية وينفر منها، ويحث على التآخى والتعاون والمشاركة الإيجابية بالنفس والمال والعاطفة والوجدان. على أنه يرفض أيضًا المبالغة فى الاعتداد بالعاطفة وحدها، لأن لكل من العاطفة والعقل والخيال دوره فى الأدب بحيث لا يستغنى أحدها عن الآخر.

أما الواقعية التى قامت على أنقاض الرومانسية الحالمة وركزت على الواقع وتصوير ما فيه كما هو لا كما ينبغى أن يكون، فإن الأدب الإسلامى يتفق معها فى مبادئ ويختلف عنها فى أخرى.. فهو يتفق معها فى العناية بالموضوعية والخروج من الذاتية والانطوائية والأنانية، ويختلف عنها فى تصوير الواقع كما ينبغى أن يكون، فهو لا يكتفى بنقل القبيح والشر فحسب، كما يفعل الأدب الواقعى الغربى، وإنما يضع إلى جانب ذلك العلاج والطريق الأمثل. وهو لا يعتمد على النظرة التشاؤمية القاتمة التى لا تبعث على الأمل ولا تبشر بالخير والتفاؤل، وإنما يصور الخير والشر معًا، ويشرق بالبسمة والتفاؤل.

وإذا كانت "الواقعية العلمية" تمثل عند أصحابها جنديًا مسخرًا لخدمة طبقة حزبية فى المجتمع، وهى "البروليتاريا"، فإن واقعية الأدب الإسلامى تمثل جنديًا موظفًا لخدمة الأمة بل الإنسانية كلها. وإذا كانت "الواقعية الاشتراكية"

تنكر وجود الله والدين والرسل فإن الأدب الإسلامى يعارض ذلك كله، وينكر الإلحاد والعلمانية، كما ينكر الإلزام الشيوعى فى تحقيق المبادئ الاشتراكية لمصلحة الطبقة الحاكمة، وهو مختلف عن الالتزام الإسلامى الذى يمنح الأديب الحرية فى إطار قيمه الخلقية والفنية.

وعلى هذا النحو كان موقف الأدب الإسلامى من المذهب الرمزى الغربى، ذلك المذهب القائم على مجموعة من الطلاسم والألغاز المرموز بها للعواطف المكبوتة دون تصريح وكشف.. الأمر الذى جعل الرمز عند الغربيين تصويرًا لعالم اللاوعى وللغيبيات الباطنية للنفس. أما الأدب الإسلامى فينطلق من موقف الإسلام من الرمز. ذلك الموقف القائم على أسس محددة لا تجعل منه ألغازًا وطلاسم معقدة.

وعلى هذا النحو -أيضًا- كان موقف الأدب الإسلامى من المذهب الوجودى، ذلك المذهب الفلسفى القائم على وجود الإنسان فى الواقع الاجتماعى المحسوس نتيجة لطغيان المادية والقلق النفسى والصراعات، لغياب العقيدة، وانهيار القيم، وطغيان الوجودية الإلحادية التى نادى بها "جان بول سارتر" والتى ترتب عليها الاعتقاد بأن الفكر سابق فى الوجود عن الذات، وإنكار ماهية الإنسان، لأنه لا وجود له خارج التفكير، وترتب على ذلك إنكار أبى البشر آدم عليه السلام، وإنكار أسبقية النطفة على الفكر مع أنها -لو عقلوا- أصل الإنسان والفكر معًا. وقد أدى هذا إلى إنكار أصحاب هذا المذهب لوجود الله، تعالى عما يصفون إن يقولون إلا كذبًا، وتبعًا لذلك فإنهم أنكروا الدين والرسل والقيم الخلقية، وجعلوا حرية الإنسان مطلقة فى تفكيره وعمله لا تحدها ضوابط، ولا تخضع لقانون، ولا يلتزم الأديب تبعًا لذلك إلا بواقعه الاجتماعى، فهو مسئول عن كل شىء يقع فى مجتمعه انتصارًا

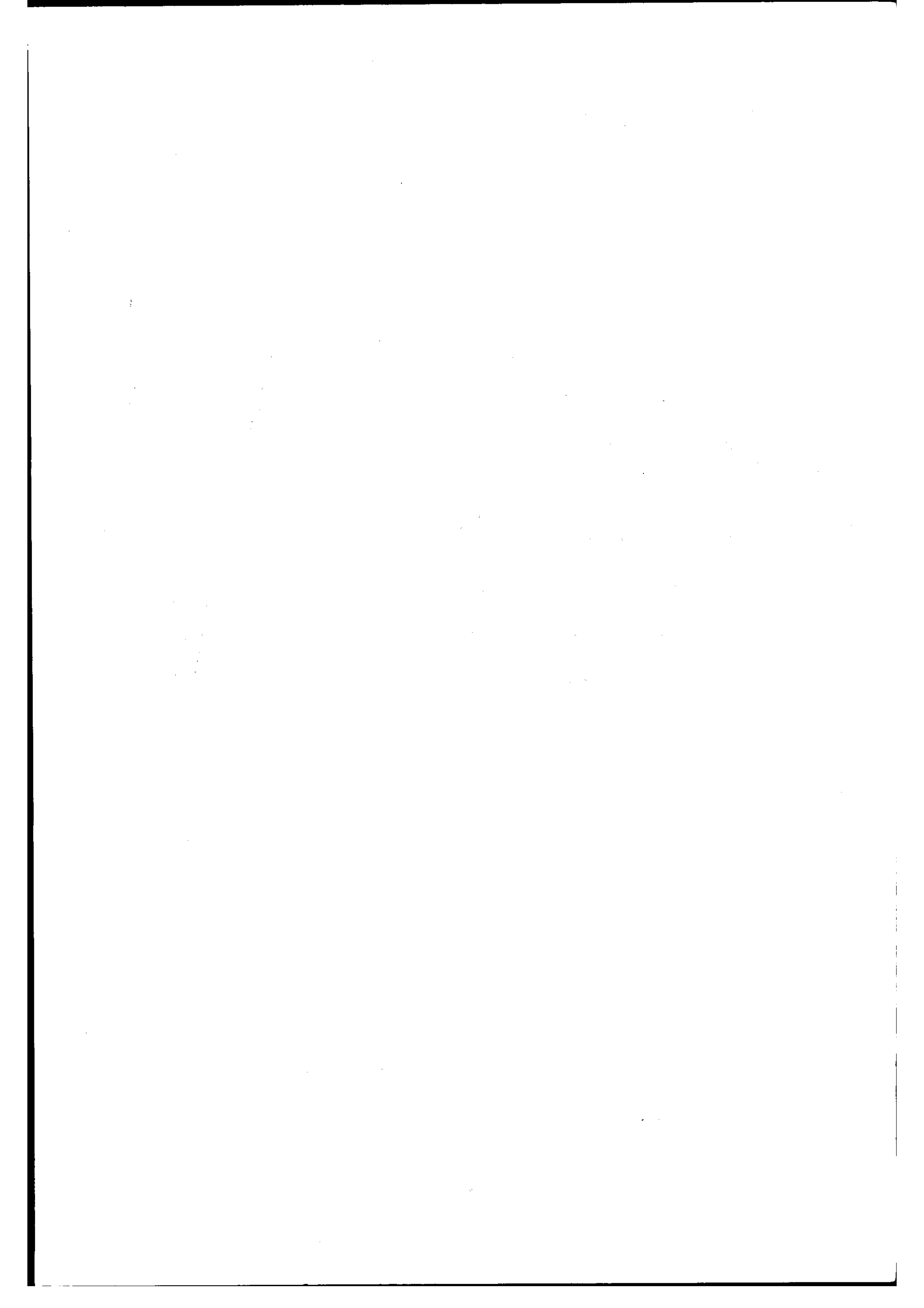
أو هزيمة.. ربحًا أو خسارة.. وهذه المسئولية خاضعة لحريته الشخصية المطلقة غير المقيدة بمبدأ أو قانون أو قيم أو لغة أو أسلوب، وهو متحرر من قيود الفن والنقد والقيم !!

وهذا يتعارض -بالطبع- مع الأدب الإسلامى المؤمن بوجود الله والرسل والكتب المنزلة، والقيم السديدة... ويتعارض مع الأدب الإسلامى غير الخاضع لهوى الفرد وميوله... ولا تتناقض الحرية مع المسئولية والالتزام فى الأدب الإسلامى، لأن حرية الإنسان فى الأدب الإسلامى مقيدة بشىء عظيم هو قيم الدين المسددة للخطى، والمنظمة للجماعة، والضابط للسلوك والقول والعمل[1].

والخلاصة : أن الأدب الإسلامى أدب أصيل يقبل الطيب من المذاهب الوافدة، ويرفض الخبيث منها.. وهو فى كل الأحوال أدب محافظ على منهجه وجوهره وشخصيته وحقيقته، لأنه من قبل ومن بعد عطاء أديب أشرق نور الإيمان فى قلبه، فكان له انعكاسه الطيب على لسانه الناطق بأعذب الأدب.

---

[1] انظر : الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق للدكتور على صبح ٣ / ٣٢٢ وما بعدها.



أهمية الأدب الإسلامى وموضوعاته

يعد الأدب الإسلامى "إبداعًا ودراسة" من الأهمية بمكان، ولا تقل أهميته عما يحتويه تراثنا العظيم من فقه وتفسير وحديث وتوحيد وبلاغة ونحو وصرف وغيرها، فهو تصوير فنى جميل للمشاعر الإسلامية، وضرب من الفنون الرفيعة تستدعيه الأسباب التالية :

١-حماية الإنسان المسلم من المؤثرات التى يتعرض لها (فكريًا وعقليًا ونفسيًا واجتماعيًا) والتى جاءته كلها من بقايا ما يسمى بعصر التنوير الأوربى بكل ما يحفل به من كفريات ومفاسد.

٢-إعادة الذاكرة الإسلامية إلى سالف عهدها الزاهر الناهض حتى يغدو العقل المسلم صافيًا متوقدًا يملك القدرة على التمييز والعطاء والإبداع والتأصيل، بدلاً من أن يعيش عالة على غيره يجتر ما يلفظه.

٣-أن الأدب أخرج عن أصله الإسلامى عنوة بفعل أولئك الأدباء الذين تناولوا موضوعات تتنافى مع الإسلام كالمجون والخمريات والغزل المكشوف والأدب الملحد المتزندق ونحو ذلك مما سبق التلميح إليه.

٤-أن الأدب شأنه شأن العلوم الإنسانية التى هى من فكر الإنسان ونتاج عقله الذى هيأه الله لمثل هذا، وبالتالى فالأدب يتأثر بمن يصدر عنه، وبمن يكون

ألحن بالحجة وأقدر على تطويع الكلمة ليجذب بها غيره لتأييده فيما ذهب إليه من أفكار وآراء وتحليلات ونظريات وتفسيرات، فإن كان صاحبها ملتزمًا بقيم الإسلام جاءت كذلك، وإن كان على العكس أتت على مثل ما هو عليه، حتى إن تخلى هو عنها فتسظل هى كما أخرجها ووضعها فيما سطر أو قال.

لذلك يتحتم أسلمة الأدب لأن أصله هو الإنسان الذى يتلون حسب محيطه وثقافته، على أن الأدب غير منضبط باعتباره نتاج الفكر البشرى الذى يتأثر كثيرًا بالثقافة والعقائد والأيدلوجيات.

٥- أن الحياة الأدبية الراهنة يسودها خلل عظيم وفساد كبير، ولهذا الخلل والفساد مظاهر عدة من أبرزها :

- شيوع التيارات العلمانية والشيوعية والغربية، وهيمنتها على الصحف والمجلات الثقافية والأدبية، والتمكين لها فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية .. وهى تيارات ترفض مواريث الأمة وثوابتها، وتقنن لهوية أخرى غير هوية الأمة.. مرتبطة بالغير .. مرتمية فى أحضانه .. مقلدة له على طول الخط فى نواقصه وسلبياته، دون مميزاته وإيجابياته، ولعل أبرز السلبيات التى صنعتها هذه التيارات :

- استبدادها بالرأى الواحد والنمط الواحد والخط الواحد، ومن يشذ عن ذلك فإن عقوبته النفى من الحياة الأدبية، والحصار الذى يؤدى إلى القتل معنويًا أو ماديًا .. وكم مات كثيرون بهذا الحصار الأدبى كمدًا وقهرًا، وضن عليهم أصحاب تلك التيارات المستبدة بتشييع الجنازة ! وكذلك ترويج أصحاب هذه التيارات لآراء وتنظيرات تجاوزت الأدب إلى مسائل تتصل بالنبوة والإمامة والثقافة الإسلامية والتراث العربى واللغة السديدة ونحو ذلك

وحسبك أن تقرأ فى هذا المجال كتاب "الثابت والمتحول" لأدونيس، ففيه أمثلة عديدة لتلك الآراء والتنظيرات.

٦- مقاومة الأدب المنتمى إلى هوية أخرى غير الهوية الإسلامية .. الأدب الذى يبارك التحلل والانحراف والشر والإقليمية والشعوبية والعامية وصراع الطبقات الدامى والشقاق مع المجتمع بسبب أو بغير سبب، وإعلاء شأن الخونة والفاسقين والضالين، وتمجيد المحتلين والغاصبين.

٧- تقويم مسار الأدب الإسلامى الذى بدأ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان وفقًا لتصور إسلامى يختلف بالضرورة عن التصور غير الإسلامى الذى يطرح الأمور من خلال رؤية إنسانية عامة، تهمل أو تتعمد إهمال الخصوصية التى تميز أمة عن أمة، وشريعة عن شريعة.

٨- وصياغة الأدب وفق تصور إسلامى يمثل تطبيقًا عمليًا لمسألة "الحماس للدعوة الدينية" ذلك الحماس الذى لا يتناقض إطلاقًا مع الحماس للدعوة الأدبية، فكل شيء لدى المسلم محكوم بالتصور الإسلامى، وهذا أمر يتميز به الإسلام عقيدة وشريعة، فالإسلام يختلف عن العقائد والشرائع الأخرى التى تجعل للدين رجالاً، وللدنيا رجالاً.

٩- أن الأدب الإسلامى : يمنح الأديب المسلم مساحة أرحب وأوسع من أى أدب آخر، إذ أن الأدب الإسلامى يشمل مساحة الكون كله بقضاياه وأموره وأحواله المتجددة والمتعددة، أما الأدب غير الإسلامى فيحصر صاحبه فى دائرة ضيقة لا يستطيع معها عبور الحدود إلى آفاق أبعد مما ترسمه نظرية الأدب التى يعتنقها.

١٠- أن يشارك الأدب الإسلامى إبداعًا ونقدًا بنصيب وافر فى الصحوة الإسلامية المعاصرة. ولاسيما أن الأدب فى مفهومه السليم : دعوة إلى

الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة التي عليها تبنى العلاقات المتينة بين أفراد المجتمعات، ثم بين المجتمعات أو بعبارة أخرى : هو السبيل الأمثل لرسم سبل النجاح فى مستقبل كل أمة تنشد المستوى الأمثل لمجتمعها، ثم هو وسيلة لتصحيح واستقامة ما اعوج من السلوك البشرى.

١١- ومن الأسباب أيضًا : أن رياح التغريب لم تنقطع مما أدى إلى البعد عن الفهم الصحيح للأدب ورسالته فى الحياة، وأن نفرًا من الجيل الجديد العاشق للثقافات الأجنبية قد زاد إمعانًا فى عشقه واستغرابه جريًا وراء وهم باطل يسمونه "المعاصرة" و"التجديد" والحداثة" و"التحديث"، وقد قاد الخروج عن المفهوم الصحيح لرسالة الأدب ولتلك المصطلحات -إن كان لها مفهوم صحيح- إلى تقليد بعض الشعراء والكتاب لأحط الاتجاهات الغربية المرفوضة حتى فى مجتمعها.

١٢- أنه لا ينبغى أن تترك الساحة لدعاة الشر بآدابهم الفاسدة التى تبارك الرذيلة، وتحمى الفحشاء، وتبلبل التصور الدينى، وتعيث فى الأرض فسادًا.

١٣- أن هناك شعراء وأدباء جندوا من الأعداء أو من تلقاء أنفسهم المريضة للتمكين من الغزو الفكرى الأوربى، وجند آخرون للأفكار الإلحادية ونشر أدب المجون.

١٤- أن الأدب الإسلامى هو البديل الحتمى الذى يدافع عن "الهوية الثقافية الإسلامية" للأمة، وينقذ وجدانها الجمعى من الانعكاسات السلبية الهدامة للتيارات الأدبية والفنية والفكرية التغريبية المنحرفة التى تفشت كالوباء لدى عدد غير قليل من الأدباء والمفكرين والكتاب فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وكان لها تأثيرها الخطير على هوية الأمة الثقافية

بما تنطوى عليه من إفساد خلقى وانحراف فكرى، وبما تبثه من قيم وعادات تغريبية يقف منها الدين الإسلامى موقف الضد والمواجهة والرفض.

١٥- أن الأدب الإسلامى أدب أخلاقى ملتزم بالفضيلة فكرًا وأسلوبًا، وكما أن وجود الإسلام بحد ذاته فى كل موقع تقع فيه قدم إنسان أو حيوان أمر ضرورى لسعادة المجموعة البشرية كلها، فإن حضور الأدب الإسلامى على مستوى الإنسانية جمعاء وسيلة مساعدة جدًا لتوجيه الفكر العالمى نحو الإسلام. فإذا اتجه الناس عن طريق الأدب الإسلامى لمعرفة الإسلام، والاقتناع بعقائده، وشرائعه، وأخلاقه، وسائر ما يدعو إليه من سلوك فردى وجماعى كان سببًا فى سعادة من يستجيب منهم للإسلام استجابة كلية أو جزئية، ومن الاستجابة الجزئية الانتفاع من شرائعه الخلقية وأنظمته فى المال والحقوق والإدارة والحكم والعلاقات الدولية. وبهذه الاستجابة ينتفعون نفعًا عظيمًا، ويستفيدون فوائد جمة لسعادة أفرادهم ومجتمعاتهم وإقامة الحق والعدل والخير ومكارم الأخلاق فيما بينهم[1].

١٦- وأخيرًا، فإن هناك حاجة تربوية إلى هذا الأدب باعتباره ضربًا من الفنون الداعية إلى التربية الحسنة، والفضائل الكريمة، والخصال الحميدة التى دعا إليها الإسلام، وأجملها الشاعر العربى القديم بقوله :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى   بناة العلا من أين تؤتى المكارم

هذا فضلاً عما يحققه هذا الأدب للمتلقى والمبدع من تنفيس وإمتاع

---

[1] نحو أدب إسلامى : محاضرات ألقيت فى جامعة أم القرى، ص ٧٥.

وجدانى، فالأدب -كما قال أفلاطون- «يطهر النفوس من التوتر، ويخلصها من بخار الاحتراق».

تلك هى أهمية الأدب الإسلامى، ودوافع الحاجة إليه. أما موضوعاته فهى أشرف الموضوعات وأزكاها، وأروعها وأنقاها .. ويكفى أن نذكر هنا هذه القائمة من موضوعاته النبيلة.

١-الإشادة بالفتوحات الإسلامية والنصر المؤزر.

٢-الحض على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله.

٣-رثاء من يموتون فى ساحة الجهاد (الشهداء الأبرار).

٤-الإشادة بالخلفاء وما يقومون به من أجل دينهم.

٥-الوقوف فى وجه تيارات المجون والإلحاد والزندقة.

٦-التحريض على تأديب أعداء المسلمين الناكثين عهدهم معهم.

٧-التهنئة بالانتصار على أعداء الإسلام والمسلمين.

٨-التهنئة بفتح المدن غير الإسلامية وضمها للمسلمين.

٩-مواجهة الأعاصير والفتن التى يثيرها دعاة النحل والملل والمذاهب المختلفة.

١٠-التذكير با لله واليوم الآخر، وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم. (شعر الزهد).

١١-تبصير الناس بسوء التهالك على الدنيا، والعمل لها وحدها دون حساب الآخرة.

١٢-تصوير البطولات الإسلامية.

١٣-تصوير المعارك التى حاز المسلمون فيها نصرًا مؤزرًا كوقعة عمورية أيام المعتصم ونحوها.

١٤-مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- والثناء على أصحابه.

١٥- الرد على النصارى واليهود وما يثيرونه من شبه.

عنايـة المعاصرين بالأدب الإسلامى

تعد العناية فى عصرنـا هـذا بـالأدب الإسـلامى عامـة، وأدب الدعـوة خاصة أمرًا ملموسًا فى الساحة الأدبية، وأحسب أن أول داعية للعنايـة بـه هـو الأديب الناقد المرحوم سيد قطب، إذ بـادر إلى هـذه الدعـوة، وشـفعها بـالعمل المنفذ الجاد فى جريدة "الإخوان المسلمين" التى كان يـرأس تحريرهـا، ويشـرف على "باب الأدب" فيها، حتى تجد فكرة الأدب الإسـلامى -حسـب تصـوره- سبيلها إلى التنفيذ والبروز إلى حيز الوجود، فطفق يدبج عدة مقالات حول هذا المفهوم تحت عنوان "منهج للأدب"، ثم طرح الفكرة فاتحًا الباب لمناقشـتها مـن الأدباء والنقاد، طالبًا تقديم النتاج الأدبـى الـذى يمثـل هـذا التصـور الإسـلامى للأدب، وقد ضمت هذه المقالات إلى مقالات أخرى دعا فيها إلى تصحيـح مـا وقع فى "التاريخ الإسلامى" من أخطاء، وصياغته من جديد، ثم صـدرت هـذه المقـالات بعـد وفاتـه فـى كتيـب عنوانـه (فـى التـاريخ : فكـرة ومنهـاج) عـام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

وفى عام ١٩٦١م أخرج شقيقه الشيخ محمد قطب كتابه "منهج الفـن الإسـلامى" استجابة لدعـوة الشـيخ سيد، بسـطًا وتركـيزًا لفكرتـه، إذ تنـاول

-تقريبًا- جميع قضايا الفن ومنه الأدب، فبسطها وناقشها مناقشة مستفيضة من وجهة نظر الإسلام فيها، فكان هذا الكتاب أول كتاب كبير ومهم فى هذا الميدان، وكان هذا الكتاب أكثر عمقًا فى تحديد مفهوم الفن، إذ عرفه بأنه «التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان» وهو مفهوم فيه مسحة توجيهية حاولت أن توجه الفن بصفة عامة والأدب بصفة خاصة وجهة إسلامية.

وإضافة إلى دراسات هذين القطبين فى هذا المجال حاولت دراسات كثيرة أن ترصد تيار الأدب المتأثر بروح الإسلام فى موضوعاته وفى أساليبه بدءًا بشعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه حتى العصر الحديث. وقدم الأديب الروائى الطبيب المرحوم نجيب الكيلانى فى عام ١٩٦٣م كتابه "الإسلامية والمذاهب الأدبية" محاولاً فيه الجمع بين التنظير والتطبيق. وفى عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م خطا الدكتور العراقى عماد الدين خليل خطوة رائدة متقدمة حين أصدر كتابه "فى النقد الإسلامى المعاصر" وإن كان هذا الكتاب فى أصله مجموعة بحوث ومقالات فى النقد الأدبى بوجهة نظر إسلامية، نشر بعضها فى أزمنة متفاوتة فى عدة صحف ومجلات كحضارة الإسلام الدمشقية، والأقلام العراقية والمثقف البغدادية على أن الدكتور عماد الدين خليل قد أصدر فيما بعد (١٤٠١هـ / ١٠٨١م) دراسات مماثلة وموسعة بعنوان (محاولات جديدة فى النقد الإسلامى).

وبذلك انفتح المجال واسعًا للكتاب والدراسين فى هذا المضمار، فاتخذت الدعوة للأدب الإسلامى طريقها صعدًا، إلى أن كان العمل الكبير والجليل الذى قام به سماحة العلامة الشيخ أبى الحسن الندوى، حين دعا إلى "الندوة العالمية للأدب الإسلامى"، وكان ذلك يوم اختياره عضوًا فى "المجتمع العلمى العربى" بدمشق منذ أكثر من ربع القرن.

عقدت هذه الندوة فى رحاب (دار العلوم - ندوة العلماء) بلكهنؤ فى الهند خلال المدة من ١١ إلى ١٣ جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ (١٧ - ١٩/٤/ ١٩٨١م) وحضرها عدد وجيه مشرف من عمداء الأدب العربى فى كثير من الجامعات العربية والهندية، والمشتغلين بالبحث والدرس والتأليف فى الأدب العربى، فحققت هذه الندوة نجاحًا كبيرًا، وحازت ثقة بالغة، وكسبت شهرة واسعة، وأوصت بأمور هامة كدعوة الباحثين إلى إبراز مفهوم الأدب الإسلامى، والكتابة فى تاريخ الأدب العربى وفقًا للنظرة الإسلامية الصحيحة، وإعادة النظر فى مناهج الدراسة، ومراعاة أن تنمى وعى الناشئ المسلم، وتنسيق جهود الأدباء الإسلاميين، والعناية بالتربية الإسلامية وأدب الأطفال والشباب. وكانت هذه التوصيات ثمار ما يقرب من أربعين بحثًا[1] نوقشت فى الندوة متناولة فى أكثرها أهمية الأدب الإسلامى وضرورة العناية بأدب الطفل المسلم. وقد أنشئت أمانة عامة للندوة بالهند لمتابعة تنفيذ تلك التوصيات، والتنسيق بين المؤسسات العلمية الإسلامية فى دول العالم الإسلامى، وفى غيرها من دول العالم، لتشجيع الدارسين والباحثين على إبراز تصوراتهم نحو تأسيس وتأصيل مذهب إسلامى فى الأدب والنقد.

تلا ذلك : الندوة التى عقدتها الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة (٥- ٩ رجب ١٤٠٢ هـ)، وشارك فيها عدد كبير من المهتمين والمختصين بالأدب

---

[1] منها على سبيل المثال : الأدب الإسلامى وعناصره المميزة لعبد الله الأنصارى، والشخصية الأخلاقية للأدب العربى لأحمد عقيلان، والخصائص الإيمانية للأدب الإسلامى لعدنان النحوى، واختيار النصوص الأدبية من وجهة النظر الإسلامية لعبد الحميد غراب، وأدب المواعظ والخطب فى العهد الأموى لعبد الحليم الندوى، وشعر الجهاد فى مقاومة الغزو المغولى لمأمون جرار، والحركات الهدامة فى النقد العربى الحديث لاحتشام الندوى، وتحديات التغريب التى تواجه الأدب العربى المعاصر لأنور الجندى، وأدب الصحوة الإسلامية لواضح الندوى، والأدب كما يريده الإسلام لمحمد المحلوب.

الإسلامى من داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، واتخذت من القرارات والتوصيات ما هو شبيه بندوة الهند. وتعد مجموعة البحوث التى قدمت للندوتين من الموجهات الأساسية للباحثين والكتاب فى هذا المضمار.

ثم كانت الندوة الثالثة فى سلسلة الندوات المعنية بهذا الأدب، حين دعت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى ندوة الأدب الإسلامى التى عقدت فى الرياض من (١٦ - ١٩ رجب عام ١٤٠٥هـ) وشارك فيها أيضًا عدد كبير من الباحثين والنقاد فى المملكة العربية السعودية وخارجها، ونوقش أثناء انعقادها من البحوث[1] ما هو جدير بالتقدير والأهمية، وأصدرت نحو أربعين توصية تتعلق بمفهوم الأدب الإسلامى، والفنون التمثيلية، وأدب الأطفال، والتراث الإسلامى وغير ذلك.

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، وإنما كانت هناك مظاهر أخرى للعناية بالأدب الإسلامى فى عصرنا هذا مثل : عناية الجامعات بهذا الأدب وتضمينه خططها الدراسية، وجعله مادة أساسية تدرس للطلاب والطالبات، فأدخلته الجامعة الإسلامية فى خطة دراستها منذ العام الجامعى ١٤٠١ / ١٤٠٢هـ فى كل من السنة الثالثة والرابعة، وجعلته كلية اللغة العربية بالرياض عنصرًا ثالثًا من عناصر قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامى، يدرس فى الدراسات العليا بهذا القسم، وتقدم فيه رسائل الماجستير والدكتوراه، فضلاً عن تدريسه للطلاب فى مرحلة الليسانس، وتكليف النابهين منهم بإعداد موسوعة عن "أدب الدعوة الإسلامية"، وقد صدر من هذه الموسوعة "الأدب

---

[1] من هذه البحوث مثلاً : الأدب الإسلامى بين أنصاره ومعارضيه لعبد الباسط بدر، والالتزام فى الأدب الإسلامى لمحمد هدارة، ونظرية الأدب الإسلامى لعلى صبح، وعبد الله بن رواحة رائد شعر الجهاد الإسلامى لمحمد الشويعر، ومحاور المضمون الإسلامى فى شعر هلال الفاسى لحسن الوركلى.

فى خدمة الحياة والعقيدة"، و"شعر الدعوة الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين"، و"شعر الدعوة الإسلامية فى العهد الأموى"، و"شعر الدعوة الإسلامية فى العصر العباسى الثانى" و"القصص الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين"، وقامت كلية الشريعة والدراسات الإسلامية فى مكة المكرمة بتدريس أدب الفكرة الإسلامية فى قسم اللغة العربية بها، وعنيت مجلتها بالأدب الإسلامى والدراسات الإسلامية المتخصصة، وشاركت فى الرعاية بالأدب الإسلامى جامعتنا العريقة .. جامعة الأزهر بإدخاله فى خطة الدراسة المقررة على طلاب وطالبات السنة الرابعة فى كليات اللغة العربية والشعب المناظرة لها فى كليات البنات التابعة لها. وعلى هذا النحو من العناية الجامعية بالأدب الإسلامى كان الحال فى جامعات الدول الأخرى .. الكويت، والعراق، والمغرب .. وغيرها.

وتوالت العناية بالأدب الإسلامى والكتابة فيه: إبداعًا ونقدًا وتجميعًا وتأريخًا وتصنيفًا وتنظيرًا وتأصيلاً وتطبيقًا وتحليلاً ومتابعة، وظهرت -لأول مرة- مجلات متخصصة للأدب الإسلامى، فظهرت "المشكاة" بالمغرب، ثم تبعها (ملحق الأدب الإسلامى) بالهند، ثم مجلة (الأدب الإسلامى) فى تركيا، ثم مجلة (الأدب الإسلامى) التى تصدر عن مكتب البلاد العربية لرابطة الأدب الإسلامى العالمية فى الرياض الذى يترأسه صديقنا الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح نائب رئيس الرابطة.

وتعد هذه الرابطة أكبر حدث أدبى ظهر فى هذا العصر؛ ولها من الأهمية والدور البالغ ما يحتم العمل على تشجيعها وإثرائها والزود عنها، وحسبها أنها تنسق جهود الأدباء فى خدمة الأدب الإسلامى وتراث الإسلام المجيد، وتعقد المؤتمرات والندوات والأمسيات التى تثرى هذا الأدب وتؤصله

وتدعمه وتشد من أزره، على أنها تنشر العديد من الكتب الدائرة فى فلك هذا الأدب الجليل.

وهذه هى الأهداف السامية التى أسست من أجلها هذه الرابطة :

أولاً : تعريف الأدباء الإسلاميين على اختلاف لغاتهم وأجناسهم بعضهم ببعض وجمع كلمتهم وإقامة التعاون بينهم ليكونوا قوة إسلامية سلاحها الكلمة الأصيلة الملتزمة بالإسلام.

ثانيًا : العمل على تأصيل نظرية الأدب الإسلامى وإظهار الملامح السائدة فى الأدب الإسلامى قديمه وحديثه.

ثالثًا : تحقيق مبدأ عالمية الأدب الإسلامى.

رابعًا : العمل على تأصيل نظرية النقد الإسلامى على أن تتصف بالموضوعية والنصف والبعد عن القوالب المستوردة والأساليب المبهمة.

خامسًا : رسم منهج إسلامى مفصل للفنون الأدبية الحديثة :

أ- القصة.

ب- المسرحية.

جـ- السيرة الأدبية.

سادسًا : الاهتمام بالتفسير الإسلامى للأدب والعمل على إنجازه.

سابعًا : إعادة كتابة تاريخ الأدب العربى من وجهة نظر إسلامية.

ثامنًا : إظهار صلة الأدب الإسلامى الحديث بالأدب القديم والرد على المحاولات الداعية إلى الانفصام بين أدب أمتنا فى الماضى والحاضر.

تاسعًا : دراسة الأدب الإسلامى المعاصر فى البلاد الإسلامية وإظهار الخصائص المشتركة للأدب الإسلامى فى العالم.

عاشرًا : القيام بدراسات موسعة لعدد من الأدباء الإسلاميين وبخاصة الذين صاغوا أدبهم بإحدى لغات الشعوب الإسلامية.

حادى عشر : تعريف الشعوب الإسلامية بآداب بعضها بعضًا بترجمة آثارها الأدبية إلى عدد من لغات الشعوب الإسلامية الأخرى.

ثانى عشر : تشجيع الأدب الذى يهتم بقضايا المرأة وتشجيع نتاج الأديبات المسلمات.

ثالث عشر : رسم منهج إسلامى لأدب الأطفال واليافعين والشبان.

رابع عشر : التصدى للدعوة الأدبية المشبوهة والمنحرفة.

خامس عشر : مناصرة حركات التحرير الإسلامى والإسهام فيها بالكلمة الجريئة الأصيلة.

سادس عشر : الدفاع عن حرية الفكر والتعبير بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية.

سابع عشر : الدفاع عن حقوق الأدباء الإسلاميين المعنوية والمادية.

ثامن عشر : تهيئة وسائل النشر والتوزيع لأدباء الرابطة بجميع الوسائل الممكنة.

مبادئ عامة :

إن رابطة الأدب الإسلامى تنطلق فى أهدافها وأعمالها واختيار أعضائها من الالتزام بالمبادئ التالية :

أولاً : الأدب الإسلامى هو التعبير الفنى الهادف عن الإنسان والحياة والكون فى حدود التصور الإسلامى لها.

ثانيًا : الأدب الإسلامى أدب ملتزم والتزام الأديب فيه التزام عقدى نابع من التزامه بالعقيدة الإسلامية ورسالته جزء من رسالة الإسلام العظيم.

ثالثًا : الأدب طريق مهم من طرق بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح وأداة من أدوات الدعوة إلى الله والدفاع عن الشخصية الإسلامية.

رابعًا : الأدب الإسلامى مسئول عن الإسهام فى إنقاذ الأمة الإسلامية فى محنتها المعاصرة والأدباء الإسلاميون أصحاب ريادة فى ذلك.

خامسًا : الأدب الإسلامى حقيقة قائمة قديمًا وحديثًا يبدأ من القرآن الكريم والحديث النبوى ومعركة شعراء الرسول ﷺ مع كفار قريش ويمتد إلى عصرنا الحاضر ليسهم فى الدعوة إلى الله ومحاربة أعداء الإسلام والمنحرفين عنه.

سادسًا : الأدب الإسلامى هو أدب الشعوب الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها وخصائصه هى الخصائص الفنية المشتركة بين آداب الشعوب الإسلامية كلها.

سابعًا : يقدم التصور الإسلامى للإنسان والحياة والكون -كما تجده فى الأدب الإسلامى- أصولاً لنظرية متكاملة فى الأدب والنقد وملامح هذه النظرية موجودة فى النتاج الأدبى الإسلامى الممتد عبر القرون المتوالية.

ثامنًا : يرفض الأدب الإسلامى أية محاولة لقطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوة التطور أو الحداثة أو المعاصرة ويرى أن الحديث مرتبط بجذوره القديمة.

تاسعًا : يرفض الأدب الإسلامى المذاهب الأدبية التى تخالف التصور الإسلامى والأدب العربى المزور والنقد الأدبى المبنى على المجاملة المشوهة أو الحقد الشخصى كما يرفض لغة النقد التى يشوبها الغموض وتفشو فيها المصطلحات الدخيلة والرموز المشبوهة، ويدعو إلى نقد واضح بناء.

عاشرًا : يستفيد الأدب الإسلامى من الأجناس الأدبية جميعها شعرًا ونثرًا ولا يرفض أى شكل من أشكال التعبير ويعنى بالمضمون الذى يحدد طبيعة الشكل الملائم للأدباء.

حادى عشر : إن رابطة العقيدة هى الرابطة الأصلية بين أعضاء الرابطة جميعًا ويضاف إليها آصرة الزمالة الأدبية التى تعد رابطة خاصة تشد الأدباء الإسلاميين بعضهم إلى بعض ووحدة المبادئ والأهداف التى يلتزمون بها[1].

وهكذا يتضح من العرض الذى تقدم : أن نظرية الأدب الإسلامى قد تحولت خلال سنوات قليلة من إرهاصات فى فصول صغيرة إلى أن أصبحت كيانًا له شأنه، وأدبًا له أنصاره وعاشقوه وأقطابه .. تعقد حوله الندوات والمؤتمرات وتجسده مناهج جامعية رائدة، وتؤسس له رابطة عالمية، وتصدر فيه مجلات متخصصة، وتضمه كتب خاصة به منها كتابنا هذا وأخوان له عن "أدب القصة فى القرآن الكريم" و"أباطيل الخصوم حول القصص القرآنى : عرض ومناقشة" ومنها كتب رائدة سبقتنا فى النشر والعناية بالأدب الإسلامى مثل "آفاق الأدب الإسلامى" للدكتور نجيب الكيلانى، و"مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى" للدكتور عبد الباسط بدر، و"مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامى" للدكتور عماد الدين خليل، و"الأدب الإسلامى ضرورة" لصديقنا الدكتور أحمد محمد على (عبده زايد) نائب رئيس مكتب البلاد العربية للرابطة فى الرياض، و"الأدب الإسلامى" بين الواقع والتنظير لصديقنا الدكتور محمد ابن سعد بن حسين، و"الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق" لصديقنا الدكتور على صبح، و"مقدمة فى دراسة الأدب الإسلامى"، و"نحو منهج إسلامى فى الشعر ونقده" للدكتور مصطفى عليان، و"الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق" لصديقنا الدكتور صابر عبد الدايم، و"من آداب الشعوب الإسلامية"

---

[1] استعنت فى رصد هذه الأهداف بجريدة مرآة الجامعة، السعودية، ملحق العدد ٥٤، السبت ١٦ رجب سنة ١٤٠٥ هـ، ص ٧.

لصديقنا الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع، و"النص الأدبى للأطفال رؤية إسلامية" لصديقنا الدكتور سعد أبو الرضا، و"دراسات فى أدب الدعوة الإسلامية" للدكتور محمود حسن زينى، و"التأثير النفسى للإسلام فى الشعر ودوره فى عهد النبوة" للدكتور عبد الرحيم زلط، و"القرآن ونظرية الفن" لصديقنا الدكتور حسين على محمد .. وغير ذلك كثير .. كثير جدًا.

وصفوة القول : أن عناية المعاصرين بالأدب الإسلامى والتأصيل لمنهجه عناية جد فائقة .. وما تزال هذه العناية ممتدة، ويقينى أنها لن تتوقف ولاسيما بعد أن كثرت نماذج هذا الأدب، واتسع نطاقه، وكثر مبدعوه وقارئوه ودارسوه، وأصبح الأدب الإسلامى المعاصر حقيقة واقعة، واستطاع بتلك الجهود التى تقدمت وبنحوها مما لم نذكره أن يتبوأ مكانة تبشر بخير كثير؛ بل إن جملة من روائعه قد ترجمت إلى غير العربية. (فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) صدق الله العظيم، وبلغه عن ربنا رسولنا الكريم.

الأدب الإسلامى وجذوره التراثية

ينبغى أن نعلم أن الدعوة المعاصرة إلى "الأدب الإسلامى" ليست دعوة إلى تأسيس أدب جديد لم يكن معروفًا من قبل. فالأدب الإسلامى قديم قدم الإسلام نفسه، وليس أدبًا توضع بذرته الآن، دون أن يكون لها جذور عميقة وأصيلة فى تراثنا الأدبى.

وينبغى أن نفرق بين وجود الأدب الإسلامى فى تراثنا "مصطلحًا" وبين وجوده فى هذا التراث "مضمونًا" و"مادة أدبية" . فأما وجوده فى التراث مصطلحًا فقد كان غائبًا لأسباب عدة من أهمها : أن القدماء لم يعنوا بالتسميات والتقسيمات، و لم تكن كتابات الأدباء والنقاد تعنى بتصنيف الأدب إلى "إسلامى" و"غير إسلامى" وإنما كان الأدب عندهم كله أدبًا عربيًا منسوبًا إلى اللغة التى كتب بها، بل إن القدماء لم يعنوا حتى بتدوين تاريخ هذا الأدب وتقسيمه إلى عصور على النحو الذى نتبعه اليوم.

وأما وجود الأدب الإسلامى مضمونًا ومادة أدبية فى تراثنا الأدبى فحقيقة ثابتة راسخة تؤكدها مئات النصوص الشعرية والنثرية الكائنة فى هذا التراث.

ففى عهد النبوة المحمدية : كان هناك فريقان من الشعراء : فريق المسلمين، وفريق من المشركين. فأما شعراء المشركين ومن نحا نحوهم من الشعراء اليهود والنصارى، فقد كانوا يقولون أشعارًا يهاجمون فيها الإسلام والمسلمين، على النحو الذى كان من أبى سفيان بن الحارث، وعبد الله ابن الزبعرى، وأمية بن أبى الصلت، وكعب بن الأشرف. وأما الشعراء المسلمون فقد تصدوا بأشعارهم لهؤلاء المهاجمين يناقضونها ويردون عليها بما هو أعنف منها من غير أن يقذفوا محصنة أو يهتكوا عرضًا مصونًا أو يأتوا فى قولهم تبذلاً وتهتكًا، وإنما كانوا يأخذون الأعداء بنقائصهم، ويعيرونهم بأفعالهم، ويفخرون عليهم بإسلامهم وطهارة أفعالهم وسمو أهدافهم فى نصرة الإسلام ورسوله.

ولقد كان حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة أصحاب القدح المعلى فى هذا الميدان. فعبد الله بن رواحة كان يجاهد فى جبهتين : جبهة السنان، وجبهة البيان، وكان فى هذه وتلك من الفرسان المبرزين. وكان يرى أن الكفر أقبح ما يعير به أعداء الدعوة الجديدة، ومن هنا فإنه كان يعير قريشًا بكفرهم، فما كانوا يألمون من شعره، بقدر ما كانوا يألمون من شعر حسان وكعب اللذين كانا يعيرانهم بمثالبهم ومعائبهم، ويطعنان فى أحسابهم وأنسابهم، ويهونان من مفاخرهم. فلما أسلمت قريش كان شعر ابن رواحة أشد إيلامًا لهم.

ولا نستطيع أن نطوف هنا بجميع ما أبدعه هؤلاء الشعراء فى الإسلام ورسوله، ويكفى أن نقتبس شواهد سريعة من روائعهم الإسلامية.

يقول حسان مفتخرًا بالإسلام ونصرة المصطفى ﷺ [1] :

---

[1] ديوان حسان بن ثابت، ص ١٤٢.

ا لله أكرمنا بنصر نبيه | وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه | وأعزنا بالضرب والإقدام
فى كل معترك تطير سيوفنا | فيه الجماجم عن فراخ الهام[1]
ينتابنا جبريل فى أبياتنا | بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا النُّور فيها محكمًا | قسمًا لعمرك ليس كالأقسام
فنكون أول مستحل حلاله | ومحرمِ لله كل حرام
نحن الخيار من البرية كلِّها | ونظامها وزمام كل زمام
الخائضوا غمرات كل منيَّة | والضامنون حوادث الأيام
والمبرمون قوى الأمور بعزّهم | والناقضون مرائر الأقوام[2]

وحين لحق المصطفى ﷺ بالرفيق الأعلى رثاه حسان بقصائد عديدة منها الدالية التى يقول فى صدرها[3] :

ما بال عينى لا تنامُ كأنما | كحلت مآقيها بكحل الأرمد[4]
جزعًا على المهدى أصبح ثاويًا | يا خير من وطئ الحصا لا تبعد
جنبى يقيك التُّرب لهفى ليتنى | غيبت قبلك فى بقيع الغرقد[5]
أأقيم بعدك فى المدينة بينهم | يا لهف نفسى ليتنى لَمْ أولد!

ويعير عبد الله بن رواحة فى ثنايا رثائه لحمزة عم النبى قريشًا بما لحقها من هزائم، فيقول[6] :

---

(١) فراخ الهام : فرخ الرأس على التشبيه بالفرخ ولد الطائر.

(٢) مرائر الأقوام : ما أبرموه أو عزائمهم.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٤) المآقى : الأجفان. والأرمد : من أصابه الرمد يعنى أن عينه كأنما أصيبت بالرمد.

(٥) الغرقد : اسم موضع.

(٦) ديوان عبد الله بن رواحة شاعر رسول الله (ص) تحقيق د/ حسن محمد باجودة، ص ٩٨، ٩٩.

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

على أسد الإله غداة قالوا ... أحمزة ذاكم الرجل القتيل ؟

أصيب المسلمون به جميعًا ... هناك وقد أصيب به الرسول

أبا يعلى لك الأركان هُدت ... وأنت الماجد البر الوصول

عليك سلام ربك في جنان ... مخالطها نعيم لا يزول

ألا يا هاشم الأخيار صبرًا ... فكل فعالكم حسن جميل

رسول الله مصطبر كريم ... بأمر الله ينطق إذ يقول

ألا من مبلغ عني لؤيا ... فبعد اليوم دائلة تدول

وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا ... وقائعنا بها يشفى الغليل[1]

نسيتم ضربنا بقليب بدر ... غداة أتاكم الموت العجيل

غداة ثوى أبو جهل صريعًا ... عليه الطير حائمة تجول

وعتبة وابنه خرًا جميعًا ... وشيبة عضه السيف الصقيل

ومتركنا أمية مُجلَعبًّا ... وفي حيزومه لدن نبيل[2]

وهام بني ربيعة سائلوها ... ففي أسيافنا منها فلول[3]

ألا يا هند لا تبدى شماتا ... بحمزة إن عزكم ذليل

وحينما قال ضرار بن الخطاب بن مرداس من بني محارب في يوم بدر:

عجبت لفخر الأوس، والحين دائر ... عليهم غدا، والدهر فيه بصائر

وفخر بني النجار أن كان معشر ... أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر

---

[1] الغليل : شدة العطش وحرارته، والغيظ.

[2] الحيزوم : الصدر أو وسطه. واللدن النبيل : الرمح.

[3] الفلول : جمع فلة وهى الثلمة فى حد السيف.

أجابه كعب مناقضًا له بقوله[1] :

عجبت لأمر ا لله، وا لله قادر ... على ما أراد ليس ا لله قاهر
قضى ا لله، بدرًا أن تلاقى معشرا ... بغوا، وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا، واستنفروا من يليهم ... من الناس، حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا .. لا تحاول غيرنا ... بأجمعها كعب، جميعا، وعامر
وفينا رسول ا لله، والأوس حوله ... له معقل منهم، عزيز وناصر
وجمع بنى النجار تحت لوائه ... يُمسُونَ فى الماذى، والنقع ثائر[2]
فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن ا لله لا رب غيره ... وأن رسول ا لله بالحق ظاهر
وقد عُرِيّت بيض خفاف كأنها ... مقابس يزهيها لعينيك شاهر[3]
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا ... وكان يُلاقى الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعًا لوجهه ... وعتبة، قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمى، غادرن فى الوغى ... وما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها ... وكل كفور فى جهنم صائر
تلظى عليهم، وهى قد شب حميها ... بزُبر الحديد والحجارة ساجر[4]
وكان رسول ا لله قد قال : أقبلوا ... فولوا .. وقالوا : إنما أنت ساحر
لأم أراد ا لله أن يهلكوا به ... وليس لأمر حَمَّه ا لله زاجر[5]

---

[1] سيرة النبى : ص ص ٤٥٤، ٤٥٥.

[2] الماذى : خالص الحديد وجيده والمقصود : الدروع وسائر عدة الحرب.

[3] عربت السيوف : لمعت مسلولة.

[4] المعنى : سُجّرت عليهم بالحديد والحجارة.

[5] حمى ا لله الأمر : قضاه وقدره.

وإذا كانت الحرب الشعرية قد انتهت بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين بانتصار رسول الله فى غزواته، وفتحه لمكة المكرمة فى العام الثامن من الهجرة فإن الشعر الإسلامى لم يتوقف، وإنما ظل يسمع صوته هنا وهناك، ففى عام الوفود مثلاً جاء كعب بن زهير والتمس العفو من رسول الله ﷺ وأنشده قصيدته الشهيرة (بانت سعاد)، وجاء ضرار بن مالك الأزور الأسدى أحد فرسان العرب وشجعانها وذوى الشأن والمروءة فأسلم وأعلن توبته وانخلاعه مما كان فيه بين يدى الرسول ﷺ بقوله[1] :

خلعت القداح وعزف القيان	ولا الخمر أشربها والثمالا[2]
وكرّى "المحبر" فى غمرة	وجهدى على المسلمين القتالا[3]
وقالت جميلة : شتتنا	وطرحت أهلك شتى شمالا
فيا رب : لا أغبنن صفقة	فقد بعت أهلى ومالى بدالا

فقال له : "ما غبنت صفقتك يا ضرار" وفى لفظ : "ربح البيع" مرتين.

فالنماذج التى تقدمت -وغيرها كثير- ذات دلالة على اصطباغ الشعر فى عهد النبوة المحمدية بالصبغ الإسلامى، وانقياده لروح الإسلام وتفاعله معه تفاعلاً جعل منه صورة واضحة المعالم لإحساس الرجل المسلم وشعوره، فضلاً عما فيه من دلالة قاطعة على قوة الشعر فى ذلك العهد.

وإذا انتقلنا إلى عهد الخلفاء الراشدين وجدنا الشعر -أيضًا- يواكب حركة الفتوح الإسلامية، ويشارك فى معارك المسلمين مع المرتدين والفرس والروم، فيصور هذه المعارك، ويشعل حماسة المجاهدين، ويرثى الشهداء،

---

[1] ضرار بن الأزور : عبد العزيز الرفاعى، ص ٨٨، ط : المكتبة الصغيرة، ١٣٩٨هـ.

[2] الثمال : جمع ثمالة وهى بقية ما فى القدح.

[3] الكر : الإقبال فى الحرب. والمحبر : الفرس. والغمرة : الضلال.

ويصف الأمصار المفتوحة، ونحو ذلك مما فصلت القول عنه الدراسات المعنية بشعر الفتوح الإسلامية.

وما يقال عن الشعر الإسلامى فى عهدي النبوة والخلافة الراشدة يقال عن الخطابة والوصايا والمواعظ والرسائل، حيث ازدهرت هذه الفنون النثرية ازدهارًا عظيمًا، يتجلى فى خطب النبى ﷺ وأحاديثه ورسائله، وفى خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم. و قد جاءت جميعها متسمة بالروح الإسلامية، متكئة على القيم الدينية فى موضوعاتها وشواهدها وغاياتها.

فعلى سبيل المثال وليس الحصر يقول الإمام على بن أبى طالب موصيًا ابنه الحسن -رضى الله عنهما- :

«احفظ عنى أربعًا وأربعًا لا يضرك ما عملت معهن : أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العُجْب، وأكرم الحسب حسن الخلق. يا بنى ! إياك ومصادقة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه!، وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب»[1].

وحين ننتقل إلى العصر الأموى (٤١ - ١٣٢ هـ) نجد أن الشعر يعود إلى سيرته الأولى قبل ظهور الإسلام، ويرجع إلى إطاره القديم وموضوعاته القديمة، ويرتكس الشعر والشعراء إلى الحد الذى نسمع فيه الغزل المبتذل السافر، والمدح الكاذب المتملق، والنقائض الشائنة بين جرير والفرزدق والأخطل، والشعر السياسى الموظف فى المقاصد السياسية مقابل هبات وأعطيات سخية، والفخر المتعالى القائم على العصبية والملاحاة والعنجهية ..

---

[1] تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات، ص ١٩٠.

وغير ذلك من الشعر المتشح بأخلاقيات لم تكن في عهد النبوة والخلافة الراشدة.

ومع هذا، فإن "الأدب المصطبغ بالصبغة الإسلامية" لم يهجر الميدان، ولا خلت منه الساحة الأدبية، والدليل على هذا أن التيار الديني الذي كان متدفقًا في عصر صدر الإسلام ظل متصل التدفق في النثر والشعر على حد سواء ولم يكن ذلك نتيجة نشاط الأدباء بقدر ما هو امتداد لتأثير الإسلام في نفوس القوم الذين هم من التابعين وبقايا الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين.

ومن روائع الشعر الإسلامي المسموع في هذا العصر : قصيدة الفرزدق في هجاء إبليس التي تعد بحق فريدة من نوعها، وقصيدته التي اشتملت على شيء من مدح النبي ﷺ إلى ما حوته من ثناء طيب على زين العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهي قوله :

هذا الذي تَعرف البطحاء وطأته ... والبَيْتُ يَعْرفه والحلُّ والحرمُ

هذا ابن خير عباد الله كلّهم ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلَمُ

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلَهُ ... بجدّه أنبياءُ الله قد ختموا

وليس قولك: مَنْ هذا بضائره ... العُرْبُ تعرف مَنْ أنكرتَ والعجمُ

إذا رأته قريش قال قائلها : ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ

يُغْضِي حياء ويُغْضَى من مهابته ... فما يكلَّمُ إلا حين يبتسمُ

بكفه خيزران ريُحها عَبِقٌ ... من كف أروع في عرنينه شممُ[1]

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلمُ

الله شرّفه قِدْمًا وعَظّمَهُ ... جَرَى بذاك له في لوحه القلمُ

---

[1] العرنين : ما صلب من عظم الأنف، وهو موضع الشمم أي الارتفاع.

أى الخلائق ليست فى رقابهم ... لأوّليّة هذا أولَهُ نِعَمُ ؟

من يشكر الله يشكر أوّليه ذا ... فالدّين من بيت هذا ناله الأممُ

ينمى إلى ذروة الدين التى قصُرت ... عنها الأكف وعن إدراكها القدمُ

من جَدُّه دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمَّته دانت له الأممُ

مشتقَّةٌ من رسول الله نبعته ... طابت مغارسه والخِيمُ والشّيَمُ[1]

ينشق ثوب الدجى عن نور غُرته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلمُ[2]

من معشرٍ حُبُّهم دين وبغضهم ... كفرٌ وقربهم مَنْجًى ومعتصمُ

مقدَّمٌ بعد ذكر الله ذكرهم ... فى كل بدء ومختومٌ به الكلم[3]

إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل: مَنْ خيرُ أهل الأرض قيل: هم

لا يستطيع جواد كُنْه جودهم ... ولا يدانيهم قومٌ وإن كرموا

يستدفع الشرُّ والبلوى بحبهم ... ويسترب به الإحسان والنعم[4]

ونسب الأصفهانى البيتين :

فى كفّه خيزران ريحُها عَبِقٌ ... من كف أروع فى عرنينه شَمَمُ

يُغضى حياءً ويغضى من مهابته ... فما يكلَّم إلا حين يبتسم

إلى حزين الكنانى، وذلك حين أورد خبر دخوله على عبد الله بن عبد الملك، وأكد الأصفهانى صحة نسبتهما إلى الحزين الكنانى فى مدح عبد الله ابن عبد الملك، ونفى نسبتهما إلى الفرزدق قائلاً : إن مثل على بن الحسين لا يُمدح بمثل هذا والله أعلم.

---

[1] النبع : شجر تضع منه السهام، ويقال فلان من نبعة كريمة أى كريم الأصل والخيم : الأصل.

[2] غرته : وجهه.

[3] فى هذا البيت شىء من الغلو فى المدح.

[4] يسترب : يستكمل.

على أن هناك تيارًا شعريًا غنيًا بالتصورات الإسلامية قد ظهر لأول مرة خلال عصر بنى أمية، هو شعر الطوائف والأحزاب السياسية التى كانت تمثل جبهة المعارضة لحكام بنى أمية بدءًا من الهاشميين أنصار آل البيت الهاشمى، وانتهاءً بحزب عبد الله بن الزبير وشقيقه مصعب، ومرورًا بحزب الخوارج. فهذه الفرق جميعًا كانت تتحدث فى مسألة الخلافة باسم الدين، على الرغم من مخالفة بعضها وهم الخوارج لأصول الشريعة الإسلامية، فكان فى كلامهم ما هو مصطبغ بالصبغة الإسلامية ظاهرًا. وكان شعر كل هذه الفرق -على الرغم من تفسيراته القبلية والسياسية- له ارتباطات قوية بالعقيدة الإسلامية، لأن هذه الفروق على اختلاف وجهات نظرها كانت تصدر عن تفسير خاص لنظرية الخلافة، وتحتج بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وتلوذ بأرض إسلامية، وتعتقد أنها فى الموقع الصحيح، سواء من كان منها مصيبًا فى تفسيره أو مخطئًا. فالأمويون كانوا يرون أنهم القادة الأكفاء وأحق الناس بالخلافة، وينطلقون فى هذا من مبدأ "المحاسبة على دم عثمان" والثأر من قاتليه فى أحداث الفتنة الكبرى، وقد تحولوا -بعد أن استتب لهم الأمر وأصبحت قضية اغتيال عثمان تاريخية- إلى مبدأ طاعة ولى الأمر، وهو مبدأ إسلامى محض. وكان الشيعة يلوذون بآل بيت النبى ﷺ تقربًا إلى الله، ويرون أن الخلافة مقصورة على بنى هاشم، ويحتجون فى ذلك بأحاديث نبوية يرجحونها وبتفسيرات خاصة لبعض الآيات. وكان أنصار ابن الزبير يرون أن الخلافة حق لكل قرشى وليست مقصورة على الهاشميين ولا الأمويين، ويحتجون لتلك العقيدة بحجج وأدلة. وكان الخوارج يرون أن خلق الله جميعًا متساوون فى هذا الحق، ولهم ما لهم من الأدلة والتفسيرات.

وهكذا انطلقت كل فرقة من تفسيرها الخاص للنصوص الإسلامية

المتكئة عليها فى مسألة الخلافة، وخرج شعراء وخطباء وكتاب كل فرقة بهذا التفسير يصوغه الخطباء والكتاب فى نثرهم، ويترنم به الشعراء فى قصائد المدح والهجاء والفخر، على النحو الذى نراه مثلاً فى خطب أبى حمزة الشارى من الخوارج، وخطب مصعب وقصائد عبد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين، وشعر الكميت وكثير عزة من الهاشميين، وشعر قطرى بن الفجاءة من الخوارج، وشعر جرير والأخطل من أنصار الأمويين.. وغيرهم كثير. فالجميع يرتبطون بشكل أو بآخر بتفسير عقدى، ويجعلون محور دعوتهم عقديًا.

وحسبك أن تقرأ من أدب المناصرين لبنى هاشم "هاشميات الكميت ابن زيد الأسدى، لترى فيها مثالاً حيًا يؤكد هذا؛ فقد مدح فيها بنى هاشم، وأحسن الدعاية لهم، وصور حكم الأمويين أشنع تصوير، ووازن بين عدل أئمة الهاشميين، وجور الخلفاء الأمويين، فألهب النفوس إلهابًا، وألهج بها العامة والخاصة حتى صاروا يعدون حفظها وإنشادها قربة من قرب الإسلام، وتناقلوا فى ذلك أحاديث ورؤى عن النبى ﷺ، وهزت تلك الهاشميات فى عصرها العالم الإسلامى هزًا قويًا لروعتها وما اشتملت عليه من تصوير ووصف لما أصاب الهاشميين. وهى تتألف من مجموعة من القصائد والمقطوعات. ويبلغ عدد القصائد ستًا أطولها فى مائة وثمانية وثلاثين بيتًا -وهى بائيته المشهورة، وأقصرها فى عشرين بيتًا. ويبلغ عدد المقطوعات خمسًا اثنتان منها فى سبعة أبيات وثلاث فى بيتين.

وكلها تشتمل على حجاج وجدال يخرج منه الشاعر إلى إثبات حق الهاشميين فى الخلافة، وتشيع فيها عاطفة الحزن على مصير بنى هاشم والسخط على بنى أمية الذين استأثروا بالخلافة واغتصبوها من أصحاب الحق فيها، والسخط على الناس الذين استكانوا لبنى أمية ونكصوا عن الانتصار لآل البيت.

وإليك هذه الأبيات المقتبسة من بائيته الشهيرة :

يقول :

١- طرِبت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

٢- ولم يُلهِني دار ولا رسم منزل

ولم يتطرَّبْني بَنانٌ مخضَّبُ

٣- ولا أنا ممن يزجر الطير همه

أصاح غراب أم تعرض ثعلب

٤- ولا السانحات البارحات عشية

أمر سليم القرن أم أمر أغضب

٥- ولكن إلى أهل الفضائل والنهى

وخير بني حواء والخير يطلب

٦- إلى النفر البيض الذين بحبهم

إلى الله فيما نالني أتقرب

٧- بني هاشم رهط النبي فإنني

بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

٨- خفضت لهم مني جناحي مودة

إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

٩- وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا

ء مجنا على أني أذم وأقصب

١٠- وأرمى وأرمى بالعــداوة أهلها

وإنى لأوذى فيــهمــو وأؤنب

١١- فما ساءنى قول امرئ ذى عداوة

بعوراء فيهم يجتذبنى فأجذب

١٢- ومالى إلا آل أحمــد شــيعــة

ومـا لى إلا مذهب الحق مذهب

وإذا كانت الأمور التى حدثت فى عالم السياسة وأنبتت خلافًا فى الرأى خلال العهد الأموى كان لها ذلك الأثر في ظهور ذلك التيار الشعرى الغنىّ بالتصورات الإسلامية -فإن ذلك ملحوظ أيضًا فى نثر ذلك العهد ولاسيما النصائح والمواعظ والخطب والرسائل.

فإضافة إلى الخطب والمواعظ الدينية الصرفة التى تلقى فى الجمع والأعياد ظهرت الخطب ذات الصبغة السياسية المبنية على أمور الدين، تنطلق منها وتحتج بها، وظهرت المواعظ الموجهة إلى من ضلوا عن الصواب فى الرأى حول الخلافة.

ومن الشواهد الدالة على ذلك : الخطبة البتراء لزياد بن أبيه، وخطب الحجاج بن يوسف الثقفى، ومواعظ الحسن البصرى، وعمر بن عبد العزيز .. وغيرهم كثير.

وتعد خطب الإمام العادل عمر بن عبد العزيز من روائع الأدب الإسلامى الموروثة عن هذا العصر، إذ تخلو من التوعد والتهديد، والغمز واللمز، وتقوم على النصائح الإرشادية التى تبصر الناس بما يجب عليهم فى تعاملهم مع البارى جل شأنه، ومع أنفسهم، ومع الحياة والناس.

استمع إليه إذ يقول –من آخر خطبة له– :

«أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا و لم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا يحكم الله بينكم فيه. فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء وحرم جنة عرضها السماوات والأرض، واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف اليوم وباع قليلاً بكثير وفانيًا بباق. ألا ترون أنكم فى أعقاب الهالكين، وسيخلفكم من بعدكم الباقون حتى تردوا إلى خير الوارثين. ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله، قد قضى نحبه وبلغ أجله، ثم تغيبونه فى صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأثواب وفارق الأحباب وواجه الحساب، غنيًا عما ترك فقيرًا إلى ما قدم، وأيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندى فأستغفر الله لى ولكم. وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدى ولحمتى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم، وأيم الله إنى لو أردت غير هذا من عيش أو عضارة لكان اللسان به ناطقًا ذلولاً عالمًا بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دل فيها على طاعته، ونهى عن معصيته. ثم بكى وتلقى دموع عينيه بردائه ونزل فلم يخطب بعدها»[1].

ومن الرسائل التى دبجت خلال العصر الأموى، و تجلت فيها النزعة الإسلامية النقية، واتضحت فيها الدعوة إلى الصلاح والإصلاح والتزام ما يقضى به الإسلام : رسالة الحسن البصرى المتوفى سنى ١١٠ هـ إلى عمر ابن عبد العزيز الذى كتب إليه طالبًا النصيحة ورسالة عبد الحميد الكاتب المتوفى ١٣٢ هـ إلى كتاب الديوان.

---

[1] تاريخ الأدب العربى : السباعى بيومى، ج ٢، ص ١٨٩، ١٩٠، ط ٢.

يقول الحسن البصرى : «إنما الحياة حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن فى أضغاث أحلام، مَنْ حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر فى العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه»[1].

ومما قاله عبد الحميد الكاتب فى رسالته : «فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفهموا فى الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم. ثم أجيدوا الخط، فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك مُعِينٌ لكم على ما تسموا إليه هممكم. ولا تضيعوا النظر فى الحساب، فإنه قوام كُتّاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنّيها ودنّيها، وسفاسف الأمور ومحاقرها، فإنها مَذَلّة للرقاب، مفسدةٌ للكتاب. ونزهوا صناعتكم عن الدنايا، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات»[2].

إن هذه النماذج -وغيرها كثير- تؤكد بما لا يدع مجالاً لشك أن الروح الإسلامية لم تغب عن أدب العصر الأموى، وأن الأدب الإسلامى كان له سهمه الضارب فى الحياة العامة والخاصة على الرغم مما شاع فى هذا العصر من مهاجاة ومفاخرات ومدائح متملقة وغزل متبذل.

وإن من الرائع حقًا : أن الشعر الذى جنح به أصحابه إلى غايات مادية

---

[1] السابق، ص ٢٠٦.

[2] الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى، ص ٢٣٧.

أو شخصية لم يخل هو الآخر من العناصر الإسلامية، فعلى سبيل المثال نرى الفرزدق وجريرًا والأخطل يمدحون ويهجون بعناصر إسلامية، وترى شعراء الغزل العذرى العفيف الطاهر وقد تسربت إلى نفوسهم ملامح كثيرة من المشاعر الدينية لا من حيث تصفية النفوس من أدرانها فحسب؛ بل أيضًا من حيث الألفاظ والأساليب. وإليك بعض الأمثلة :

- يقول الأخطل - وهو نصرانى - مادحًا يزيد بن معاوية :

أما يزيد فإنى لست ناسيه ... حتى يغيبنى فى الرمس ملحود

جزاك ربك عن مستفرد وحد ... نفاه عن أهله جرم وتشريد

جزاء يوسف إحسانا ومغفرة ... أو مثل ما جزْى هارون وداود

أو مثل ما نال نوح فى سفينته ... إذ استجاب لنوح وهو منجود

أعطاه من لذة الدنيا وأسكنه ... فى جنة نعمة فيها وتخليد[1]

- ويقول الفرزدق مادحًا الحجاج إثر قضائه على ثورة اندلعت فى العراق :

ولم أر كالحجاج عونًا على التقى ... ولا طالبا يوما طريدة تابل

بسيف به لله تضرب من عصى ... على قصر الأعناق فوق الكواهل

شفيت من الداء العراق فلم تدع ... به ريبة بعد اصطفاق الزلازل

وكنا بأرض يا ابن يوسف لم يكن ... يبالى بها ما يرتشى كل عامل

وما تبتغى الحاجات عندك بالرشا ... ولا تقتضى إلا بما فى الرسائل

وما الناس إلا فى سبيلين، منهما ... سبيل لحق، أو سبيل لباطل[2]

فتراه هنا يمدح بالتقى، ويصف ممدوحه بأنه سيف الله، ويذكر الرشوة والحق والباطل.

---

[1] ديوان الأخطل : ١٤١، والرمس : القبر، ومنجود : مغموم.

[2] ديوان الفرزدق : ٦٩٥، ط. الصاوى.

ويقول جرير هاجيًا الأخطل[1] :

إن النبــوة والخلافــة والهدى رغم لتغلب فى الحياة طويل

خالفتموا سبل النبوة فاخضعوا بجزا الخليفـة والذليل ذليل

فتراه هنا يهجوه بنصرانيته، وما يؤديه قومــه مــن جزيـة .. ولـو قـرأت بقية نقائضه مع الأخطل لرأيته يندد كثيرًا بملة النصارى، ويتهكم على صلبـانهم وقد يسهم مار سرجيس، كما يتهكم على طعـامهم ومـا يـأكلون مـن خنـازير وما يشربون من خمر.

ويقول مجنون ليلى :

عفا ا لله عن ليلى الغداة فإنها إذا وليت حكمًا على تجور[2]

ويقول جميل بن معمر مخاطبًا محبوبته بثينة :

ألا تتقيــن ا لله فيمن قتلتـــه فأمسى إليكم خاشعا يتضرع[3]

كفانـا هـذا القـدر مـن الشـواهد الدالـة علـى أن الـروح الإسـلامية لم تنفصل عن الحياة الأدبية فى العصــر الأمـوى .. الأمـر الـذى يؤكـد أن الجسـر الواصل بين دعوتنا المعاصرة للأدب الإسلامى وتراثنـا القديـم لم ينقطـع خـلال هذا العصر الذى رجع فيه كثير من الشعر العربى إلى سمته الجاهلى القديم.

وإذا انتقلنـا إلى العصـر العباسـى بـاحثين عـن الجـذور التراثيـة لـلأدب الإسلامى نقف أول ما نقف على ذلك التيار الشعرى الـذى قـاده أبـو العتاهيـة داعيًا فيه إلى الزهد، محذرًا من الدنيا ومتاعها الزائل، مذكرًا بصور الموت الـذى لا مهرب منه، والحساب الذى يواجهه كل إنسان. وقد تجلى هـذا اللـون مـن

---

[1] نقائض جرير والأخطل، ص ١٢٥، ط : الآباء اليسوعيين.

[2] الأغانى للأصفهانى : ٢ / ٧٥، ط : دار الكتب المصرية.

[3] ديوان جميل : ١١٧، نشر مكتبة مصر.

الشعر فى مطلع هذا العصر نتيجة لتفشى الفسق والمجون والزندقة، وقد حمل لواءه مع أبى العتاهية شعراء زاهدون آخرون من أمثال الإمام الشافعى، وعبد الله بن المبارك، ومالك بن دينار، ومحمد بن كناسة.

ونقف أيضًا على كثير من القصائد المادحة للخلفاء العباسيين، ومع أنها فى المدح فإنها تحمل معها عاطفة إسلامية قوية، وتنتشر الصبغة الإسلامية فى العديد من أبياتها، على النحو الذى يمكن التماسه فى قصائد للبحترى وأبى تمام والمتنبى وعلى بن الجهم وأسامة بن منقذ والبهاء زهير، وغيرهم كثير.

واقرأ -على سبيل المثال- بائية أبى تمام الشهيرة التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

تجد أن أبا تمام يمدح "المعتصم بالله" بمناسبة فتحه لمدينة "عمورية"، ويعتمد إلى حد كبير على القيم الإسلامية، ويحيطنا بمناخ قرآنى يجسد قضية الجهاد فى سبيل الله حية شاخصة، فالمعركة :

تدبير معتصم بالله منتقم   بالله مرتقب فى الله مرتغب

وجيش الروم جيش كفر يتهاوى تحت سيوف المسلمين. و"عمورية" تسقط لطغيانها وكفرانها. وأبطال الروم يقتلون لأنهم اعتدوا على حرمة الإسلام والمسلمين. والقضية كلها دفاع عن بيضة الدين.

واقرأ -على سبيل المثال أيضًا- سيفيات المتنبى التى أنشأها فى مدح سيف الدولة الحمدانى، فهى من بدائع الأدب الإسلامى الدالة على أصالة هذا الأدب وعراقته، وقد بلغت فى ديوانه نحو الثلث، وجسمت روعة الإعجاب بالبطولة العربية الفذة التى تجسدت فى هذا الزعيم العربى المسلم، فجعلت منه حصنًا منيعًا للإسلام وأهله وداره. وها هو ذا نص مختار من إحدى هذه السيفيات أنشده المتنبى إعجابًا بموقف سيف الدولة فى موقعة الحدث إحدى معاركه ضد الروم. يقول :

على قــدرِ أهل العَزْم تأتى العزائمُ

وتأتى على قَـدْرِ الكرامِ المكارمُ

وتعظُم فى عيــنِ الصغير صغـارُها

وتصغر فى عين العظيمِ العظائِمُ

أتوك يَجُــرُّون الحديـــدَ، كـأنهم

سَــرَوْا بجيـادٍ مـا لهُنَّ قوائِمُ

إذا بَرقُــوا لم تُعْــرَفِ البيضُ منهُمُ

ثيابهُمُ مــن مِثْلِها والعمائِــمُ

خميسٌ بشرقِ الأرض والغربِ زحفُه

وفى أذُنِ الجوزاءِ منْهُ زمـازِمُ

تَجَمَّعَ فيــهِ كُــلُّ لَسْــنٍ وأُمَّـــةٍ

فما تُفْهِمُ الحدَّاثَ إلى التراجِـمُ

وقفْتَ وما فى المـوتِ شَـكٌّ لواقفٍ

كأنك فى جَفْنِ الرَّدى وهْـوَ نائِمُ

تمرُّ بــكَ الأبطـالُ كَـلْمَى هـزيمةً

ووجهُك وضَّـاحٌ، وثـغرُك باسِمُ

تجاوزْتَ مقدارَ الشــجاعـةِ والنُّهَى

إلى قــولِ قومٍ أنت بالغيبِ عالمُ

ضَممت جناحيهــم على القـلبِ ضَمَّةً

تموتُ الخَوافى تحتَها والقوادِمُ

بضَرْبٍ أتَى الهاماتِ والنصرُ غائب

وصــار إلى اللَّبَّاتِ والنصرُ قــادِمُ

حقَرْتَ الرُّدَيْنِيَاتِ حتى طــرحتَها

وحتى كــأنَّ السيفَ للرُّمْحِ شاتِمُ

ومَنْ طــلبَ الفَتْحَ الجــليلَ فــإنما

مفاتيحُه البِيضُ الخِفَافُ الصَّوارِمُ

نَثَرْتَهُمُ فــوقَ الأُحَيْــدِبِ نثْــرَةً

كما نُثِرَتْ فــوقَ العروسِ الدَّراهِمُ

وطبيعى أن لا ننسى فى هذا المقام تلك الروائع الإسلامية التى دبجت حينما نشط الصليبيون خلال القرنين السادس والسابع الهجريين فى محاربة الإسلام والمسلمين، وبدأ الغزو الصليبى زحفه على بلاد العرب والمسلمين، وكان ما كان من معارك ومواقع أبلى فيها المسلمون بلاء حسنًا توج بالهزائم التى منى بها آل الصليب على يد أبطال الإسلام بقيادة عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى وأمثالهم من الأبطال المغاوير.

وحسبك أن تقرأ فى هذا المجال قصيدة ابن سناء الملك التى سجل فيها انتصارات القائد المظفر (صلاح الدين الأيوبى) فى (حطين)، وأخذه لصليب الصلبوت، وفتحه طبرية ونابلس وحصون عسقلان والنطرون وتبنين وبيت جبريل، وسمى فى هذه القصيدة أسماء ملوك الصليبيين وصناديدهم الذين أسرهم صلاح الدين، واتسع فى وصف الحرب اتساعًا يرتفع بالقصيدة إلى الحد الذى تصير به وثيقة إسلامية تاريخية تضيف مادة جديدة للمؤرخين.

ومن هذه القصيدة نختار هذه الأبيات التى يستهلها بتهنئة صلاح الدين بفتح بيت المقدس، فيقول :

لست أدرى بأى فتح تهنى يا منيل الإسلام ما قد تمنى

قد ملكت الجنان قصرا فقصرا إذ فتحت الشام حصنا فحصنا

لك مدح فوق السماوات يُنْشَا ومحل فوق الأسنة يبنى

قصدت نحوك الأعادى فرد ا لله ما أملوه عنك وعنًا

لم تلاق الجيوش منهم ولكنك لاقيتهم بلادا ومدنا

وتصيدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغنا

ويقول الشاعر محمد بن عبد الله المعروف بسبط بن التعاويذى فى مدح صلاح الدين بعد استيلائه على حطين وفتحه بيت المقدس أيضًا :

ملكَتْ سجاياه القلوبَ محبَّةً إن الكريمَ إلى القلوب مُحَبَّبُ

كَفٌ تكُفُّ الحادثات وراحَةٌ ترتاح للجَدْوَى وقَلبٌ قُلَّبُ

ونَدًى يَهشُّ إلى العفاة تَكرُّمًا ومواهبُ بالطارقين تُرَحِّبُ

وصرامة كالنارِ شابَ ضِرامُها خُلُقٌ أرَقُ من النسيمِ وأطْيَبُ

تُغْريه بالعفْوِ الجناةُ كأنما الجانى إليه بذنبه يتقَرَّبُ

بك يا صلاحَ الدين يوسفَ أكثبَ النائى ورفَّ المُقشعِرُ المُجْدِبُ

ذلَّلْتَ أخلاقَ الزمانِ لأهله فأطاع وَهْوَ الخالِع المُتَعصبُ

ونهضْت للإسلامِ نهضةَ صادقٍ العزمات ترأب من ثآه وتشعب

غادرت أهل البغى بين مُجَدَّلٍ لِقَى الحِمَامَ وخائفٍ يترقَّبُ

وأما النثر الإسلامى فى العصور العباسية فروائعه جد كثيرة، منها ما جاء فى صورة خطبة، ومنها ما جاء فى صورة رسالة، ومنها ما جاء فى صورة مقامة ونختار هنا خطبة من خطب هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية (١٤٩ هـ / ١٩٣ هـ) يقول منها :

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن فى التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزًا بالجنة، ونجاة من النار، وأحذركم يومًا تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاقى ويوم التنادى. يوم لا يستعتب من سيئة ولا يُزاد فى حسنة يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور، واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

عباد الله إنكم لم تخلفوا عبثًا ولن تتركوا سُدىً، حصنّوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع؛ وصلاتكم بالزكاة فقد جاء فى الخبر أن النبى ﷺ قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له. ولا صلاة لمن لا زكاة له»، إنكم سَفْرٌ مجتازون. وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالأمانة، فإن الله تعالى ذِكرُه أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهُدَاه للمنيبين. قال الله عز وجل وقوله الحق : «ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة»، وقال : «وإنّى لغَفَّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى»، وإياكم والأمانى فقد غرَّت وأوردت وأوبقت كثيرًا حتى أكذبتهم مناياهم فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال. فرغّب بالوعد، وقَدَّم إليكم الوعيد. وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت

بهم الأسباب فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب. ليجزى الذين أساءاوا بما عملوا ويجرى الذين أحسنوا بالحسنى»[1].

وإذا رحنا نفتش عن أمثلة لجذور الأدب الإسلامى فى التراث الأندلسى وجدنا أنفسنا أمام كم هائل رائع من هذا الأدب مثل المدائح النبوية وممحصات ابن عبد ربه، والقصائد التى دبجت فى رثاء المدن والممالك الزائلة، ومواعظ أبى إسحاق الإلبيرى الذى اشتمل ديوانه على سبع وثلاثين قصيدة ومقطوعة فى الزهد والوعظ والحكمة والإرشاد، ومن هذه القصائد رائعته الشهيرة التى بلغ عدد أبياتها ثلاثة وخمسين بيتًا، كل بيت فيها مختوم بلفظ الجلالة (الله) وقد يتكرر فى البيت الواحد ثلاث مرات على هذا النحو :

يا أيها المغتر بالله	**فر من الله إلى الله**
ولذ به، واسأله من فضله	**فقد نجا من لاذ بالله**
واتل من الوحى ولو آية	**تكسى بها نورا من الله**
وعفر الوجه له ساجدا	**فعز وجه ذلّ لله**

..... إلخ.

ونجد -أيضًا- كمًا هائلاً من الأدب الإسلامى فى التراث الأدبى للعصرين المملوكى والعثمانى، ومن أبرز ذلك : تلك المدائح النبوية التى ترنم بها ابن حجر العسقلانى، والشهاب المنصورى، وأبو عبد الله البوصيرى، صاحب المطولات فى مدح النبى ﷺ كالبردة التى حظيت باهتمام الشعراء الذين أتوا من بعده، فأكثروا من معارضتها بقصائد عرفت باسم (البديعيات)، ومثل الهمزية التى حاكاها بعض فحول الشعراء فلم يبلغوا شأوها.

---

[1] الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى، ج ٢، ص ٦٧ وما بعدها.

ولا ننسى فى هذا المقام أن نشير إلى روائع الأدب الإسلامى التى ترنم بها الشعراء الصوفيون فى الحب الإلهى من أمثال : محيى الدين بن عربى، وابن الفارض، وعبد الرحيم البرعى، وعبد الغنى النابلسى ... وغيرهم كثير.

وبعد : فإن ما ذكرناه بالنص أو بالإشارة من نماذج الأدب الإسلامى فى العصور القديمة ذو دلالة واضحة على أن هذا الأدب أدب عريق أصيل، وليس وليد هذا العصر، وأن عصور الأدب العربى قد أسهمت بنصيب وافر فى هذا الميدان، وأن تراثنا بجناحيه (الشعر والنثر) لم يكن يومًا بمعزل عن الإسلام وقيمه الأصيلة الرفيعة، فالاتجاه الإسلامى فى الأدب -على امتداد العصور- كان واضحًا وقويًا وصالحًا لأن نقول عنه -مطمئنين- : إنه الجذور الممتدة للأدب الإسلامى الذى ننظره وندعو إلى الاهتمام به فى عصرنا الحاضر.

التيار الإسلامى
فى فنون الأدب العربى الحديث

تمهيـد :

اتضح لنا من العرض السابق أن الجذور الإسلامية فى تراثنا الأدبى شعرًا ونثرًا موجودة وقوية، وأن الأدب المصطبغ بالصبغة الإسلامية لم يغب فى عصر من عصور الأدب عن الساحة الأدبية على الرغم من غياب مصطلح "الأدب الإسلامى" عن هذه الساحة.

ونريد هنا أن نضرب الأمثلة على وجود هذا التيار الإسلامى فى الأدب العربى خلال العصر الحديث الذى بدأ مع بداية القرن التاسع عشر. ومعروف أن الأدب العربى الحديث قد مر بمراحل مختلفة، تطور خلالها بخطوات ثابتة، ومعالم واضحة حتى وصل إلى صورته الفنية المكتملة، وسماته الأدبية المتميزة.

ولا أرانى مبالغًا إذا قررت أن العصر الحديث قد حظى بين العصور بأوفر نصيب من الأدب الإسلامى، وكان ذلك لأسباب عديدة نذكر منها :

١- الاحتلال الأجنبى، وما بثه من مفاسد خلقية، وما أشاعه من مباذل.

٢- الاتصال بالغرب، وما نجم عنه من ظهور الفكر الإلحادية، وانتشار بعض الأنماط الغربية كالحانات والمراقص ودور البغاء والتقليد الأعمى للغرب فى المأكل والمشرب والملبس والفكر والثقافة والسلوك.

٣- ذيوع الأفكار المعادية للعروبة والإسلام كالدعوة إلى إهمال اللغة الفصحى وإحلال العامية مكانها أو كتابتها بحروف لاتينية، ومثل فكرة الوطنية أو الفرعونية أو القومية.

٤- ظهور طائفة من العرب المتأثرين بالثقافة الأوربية، واقتناعهم بها ودعوتهم الناس إلى التغريب والتحديث فى سلوكهم وفكرهم ومعارفهم.

٥- انتشار الأفكار الانفصالية عن "الجامعة الإسلامية" بين أوساط بعض المفكرين.

٦- حرص الأعداء على توجيه التهم إلى الإسلام، ووصفه بأنه دين همجية، وأنه فرض نفسه بالقوة والسيف، وأنه لا يصلح لمسايرة ركب الحضارة والتقدم.

٧- تخاذل المسلمين وتفرقهم إلى الحد الذى نجم عنه استيلاء الصهاينة على فلسطين والمسجد الأقصى ومرتفعات الجولان السورية، كما نجم عنه ما حدث للمسلمين الشيشان والبوسنة والهرسك والألبان وغيرهم من الأقليات المسلمة المستضعفة.

مع كل هذه العوامل ونحوها نما التيار الإسلامى فى الأدب، وتهيأت له فرصة الظهور بقوة، طارحًا أفكاره ومبادئه على الساحة، وكان لنجاحه فى التعبير عن الوجدان المسلم أثر فعال فى تقوية شأنه وامتداد سلطانه.

وسوف نتحدث فى هذا الفصل عن ذلك التيار الشامخ فى فنون الأدب العربى الحديث : شعرًا، وقصة، ومسرحية، ومقالة، وخطبة، ورسالة إخوانية، وسيرة أدبية وأناشيد.

أولاً : فن الشعر الغنائى

دبجت الآلاف المؤلفة من هذا الشعر الذى يتغنى فيه أربابه بالحب الإلهى والتضرع إلى الخالق سبحانه والابتهال إليه أو يتغنون فيه بحبهم لخاتم الأنبياء والمرسلين وصحابته الكرام وآل بيته الأطهار، أو يحتفون فيه بالمناسبات الدينية المعروفة كالمولد النبوى الكريم، والهجرة المحمدية العظيمة، والإسراء والمعراج، وشهر رمضان المعظم، وليلة القدر المباركة، وليلة النصف من شعبان، والعيدين، وذكر غزوة بدر، وفتح مكة المكرمة، وما إلى ذلك.

وكان من موضوعات هذا الشعر أيضًا : تجلية مزايا الإسلام، والرد على خصومه، والدفاع عن مصادره وتراثه وحضارته، ومقاومة التبشير النصرانى، والمحتل الأجنبى الغاصب، والحث على الوحدة والتماسك والتكافل، كذلك تغنى الشعراء بالقيم الإسلامية الصحيحة، وتناولوا قضايا الإسلام والمسلمين المعاصرة مثل قضية فلسطين، ومأساة البوسنة والهرسك والشيشان والأفغان والألبان ودبجت قصائد كثيرة حول مسألة السفور والحجاب، والظواهر الصوفية، والجمعيات الدينية، وشباب الإسلام، وتعليم البنات، ورعاية اليتامى والأرامل والمكفوفين وذوى العاهات الأخرى، والهدى النبوى، والإعجاز القرآنى، والشخصيات الإسلامية، وأبطال الإسلام المعاصرين، وغير ذلك مما يندرج فى هذا الباب ويضيق عنه الحصر.

وفى وسع القارئ أن يظفر بشواهد عديدة لذلك فى بطون دواوين الشعراء المعاصرين كشوقى وحافظ والرافعى ومحمد عبد المطلب ومحمد الأسمر وأحمد الكاشف وأحمد نسيم، وأبى شادى ورمزى نظيم ومحمود جبر شاعر آل البيت، وعبد الله شمس الدين، وروحية القلينى، وعلية الجعار، ومحمود غنيم،

وأحمد محرم، ومحمد عبد الغنى حسن، وحسن كامل الصيرفى، ومحمود أبى الوفا، ومحمد التهامى، وأحمد مخيمر، ومحمود حسن إسماعيل، وصالح جودت، وعلى الجارم، والصاوى شعلان ... وهلم جرا.

وها هى بعض نماذج مختارة من ذلك الشعر الإسلامى الرفيع :

١- من قصيدة لحفنى ناصف يحض فيها على التبرع لجمعية الأيتام، ويخاطب فيها الأغنياء وأرباب رءوس الأموال واعظًا ومذكرًا بالمصير السيىء الذى ينتظر مانع الزكاة، والمآل الحسن الذى يؤول إليه المزكون ... يقول :

اليوم أوفت على خمس وعشرينا	**فاستقبلوا عيدها الفضى ميمونا**
وهنئوا فقراء المسلمين به	**وصافحوا بيد البشر المساكينا**
وعللوهم بآمال مفرحة	**فطالما سرت الآمال محزونا**
لولا الأمانى فاضت روحهم جزعا	**من الهموم وأمسى عيشهم هونا**
واليأس يحدث فى أعضاء صاحبه	**ضعفا ويورث أهل العزم توهينا**
وتخرس البلبل الصداح سورته	**وتسلب الذلق المنطيق تبيينا**
ألم تروا أن أهل المال فى وجل	**يخشون مصرعهم إلا المزكينا؟**
فهل تظنون أن الله أورثكم	**مالا لتشقوا به جمعًا وتخزينا؟**
أو تقروه على مرضاة أنفسكم	**وتحرموا منه معترا ومسكينًا ؟**
ما أنتموا غير قُوَام سيسألكم	**إلهكم عن حساب المستحقينا**
أنتم خلائفه فى الأرض ألزمكم	**أن تعمروها وتفتنوا الأفانينا**
ولن تنالوا نصيبًا من خلافته	**إلا بأن تنفقوا مما تحبونا**

٢- ويقول الشاعر العراقى معروف الرصافى من قصيدة يدافع فيها عن الإسلام الذى اتهمه أعداؤه بالجمود والتخلف والعجز والرجعية :

يقولون فى الإسلام ظلمًا بأنه ... يصد ذويه عن طريق التقدم

فإن كان ذا حق فكيف تقدمت ... أوائله فى عهدها المتقدم؟

وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله ... فماذا على الإسلام من جهل مسلم؟

هل العلم فى الإسلام إلا فريضة ... وهل أمة سادت بخير التعلم؟

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا ... بصائر أقوام عن المجد نوم

وحلت له الأيام عند قيامه ... جباهًا وأبدت منظر المتبسم

فأشرق نور العلم من حجراته ... على وجه عصر بالجهالة مظلم

ودك حصون الجاهلية بالهدى ... وقوض أطناب الضلال المخيم

وأنشط بالعلم العوائم وابتنى ... لأهله مجدًا ليس بالمتهدم

وأطلق أذهان الورى من قيودها ... فطارت بأفكار على المجد حُوَّمِ

وفك إسار القوم حتى تحفزوا ... نهوضًا إلى العلياء من كل مجثم[1]

٣- ويقول الشاعر هاشم الرفاعى من قصيدته "شباب الإسلام" :

ملكنا هذه الدنيا قرونا ... وأخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسى الزمان ولا نسينا

حملناها سيوفا لامعات ... غداة الروع تأبى أن تلينا

إذا خرجت من الأغماد يومًا ... رأيت الهول والفتح المبينا

بنينا حقبة فى الأرض ملكا ... يدعمه شباب طامحونا

شباب ذللوا سبل المعالى ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا

إذا شهدوا الوغى كانوا كماة ... يدكون المعاقل والحصونا

---

[1] ديوان الرصافى، ص ١٢٨.

وإن جـن المسـاء فـلا تراهـم   من الإشـفـاق إلا سـاجدينا[1]

٤- ويقول الشاعر المغربى عبد الكريم مشهدانى من قصيدة عنوانها (سرايفو يا شرف المسلمين) :

سـلام علـى الباشـات الحيـارى   حملـن الجـراح غـزارا غـزارا
سـلام علـى الأوجـه الذابـلا   ت وبـالأمس كـن حكـين النضـارا
تنفـس فـى حسـنهن الربيـع (م)   فما أشـرق الحسـن حتـى تـوارى
سـلام علـى العفـة المسـتبا   ة تشق يـدا العلـج عنهـا الإزارا
علـى منبـع الطهـر قـد دنسـته (م)   الخنـازير، فـانقلب الطهـر عـارا
متـى ينجلـى الليـل عـن هجمـة   تفجـر فـى الخـافقين الشـرارا ؟
ويـا خـالد الفتـح أيـن اللـوا   ء؟ واين الرجـال؟ وأيـن المهـارى؟
لقد عادت الـروم فـى عتمـة الليـل (م)   ولم يحسـن المسـلمون البـدارا
أذل الصليـب جـلال الهـلا   ل، وقـوّض فـى كـل ركـن منـارا
وشُـقت مـن المسـلمات البطـو   ن، وسيقت إلى الفاحشات العذارى
ويـا مجلس الأمـن هـوّن عليـك (م)   تصـوغ قـرارا، وتلغـى قـرارا
تقلـب نظراتـك الزائغـا   ت، وتـأبى عـن الحـق إلا ازورارا
كرهـت رجـالاتك المـاكرين، (م)   كرهـت الصغـار، كرهـت الكبـارا
فلـن يغسـل العـار إلا الدمـا   ء، ولن يؤخذ الحق إلا اقتسـارا[2]

---

[1] ديوان هاشم الرفاعى (المجموعة الكاملة)، ص ٣٨٣، ٣٨٤، ط ٢ مكتبة المنار بالأردن.

[2] نشرت فى الصحيفة التى عنوانها (المسلمون) العدد ٤٣١ فى ١٦ / ١١ / ١٤١٤، ص ١٠.

٥- ويقول شاعر آل البيت محمود جبر من ديوانه "مزامير الإيمـان" مخاطبًا ربـه عز وجل :

حسبى أحوم فى حماك مغردا	**فتذيع ألحانى هناك طيور**
أنا أسعد السعداء ممن حوموا	**من حول نورك والفراش كثير**
عطلت تفكيرى؛ فما لى حاجة	**بالعيش فى كون نمته شرور**
أنا فى الرياض مع الرياح نسائم	**ومع البديع من الزهور عطور**

٦- ويقول حافظ إبراهيم من قصيدة له فى رثاء الشيخ محمد عبده :

سلام على الإسلام بعد محمد	**سلام على أيامه النضرات**
على الدين والدنيا، على العلم والحجا	**على البر والتقوى، على الحسنات**
لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا	**تجاليده فى موحِش بفلاة**
ولو ضرّحوا بالمسجدين لأنزلوا	**بخير بقاع الأرض خير رفاة**
تباركت هذا الدين دين محمد	**أيترك فى الدنيا بغير حُماة ؟**
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى	**ولانت قناة الدين للغمزات**
زرعت لنا زرعا فأخرج شطأه	**وبنت ولما نجتن الثمرات**
أبنت لنا التنزيل حُكما وحكمة	**وفرقت بين النور والظلمات**
ووفقت بين الدين والعلم والحجا	**فأطلعت نورا من ثلاث جهات**

٧- ويقول نزار قبانى من قصيدة له ألقيت فى مهرجان الشعر فى دمشق عام ١٩٧١م :

يا شام أين هما عينا معاوية وأين من زحموا بالمنكب الشهبا؟

فلا خيول بنى حمدان راقصة زهوا، ولا المتنبى مالئ حلبا

وقبر خالد فى حمص نلامسه فيرجف القبر من زواره غضبا

يا رُبَّ حى.. رخام القبر مسكنه ورب ميت على أقدامه انتصبا

يا ابن الوليد .. ألا سيف نؤجره فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا؟

٨- وقلت من قصيدة لى عن الفتاة المحجبة :

يا ليتنى أحظى بها يا ليتنى بغدى القريب أكون فى يمناها

نُسْقَى معا كأس التقى فى بهجة ونشارك الأطيار فى مغناها

فالطرحة البيضاء تكسو شعرها من عين مختلس بغى مرآها

تاج من الإسلام يعلو رأسها تخطو به فى نوره قدماها

ثانيًا : ظاهرة الملاحم والمطولات الإسلامية

تعددت تعريفات الملحمة فى كتب الأدب على اتفاق واختلاف بينها ومن هذه التعريفات نذكر مثلاً تعريف جورجى زيدان لها بأنها : عبارة عن قصائد طويلة تسرد الوقائع والحوار على سبيل القصة، وأكثرها دينية، وأبطالها الآلهة، ومعظم حوادثها عنهم وبهم، كما فى إلياذة هوميروس عند اليونان، و"مهابهارتا" عند الهنود[1]. ويضيف الدكتور طه حسين أن «شعر الملاحم لا يعتمد على ذكر الأبطال والحروب ليس غير، وإنما هو يعتمد على ذلك، وعلى أشياء أخرى، منها اللفظى، ومنها المعنوى، فهو فى لفظه : طويل مسرف فى الطول، تبلغ القصيدة من قصائده آلافًا من الأبيات، وهو فى لفظه مقيد بألوان من اللفظ والموسيقا، وهو فى معناه يذكر الحروب والمحن وبلاء الأبطال فيها، ولكنه يذكر الآلهة ويستوحيهم ما يريد أن يقول، ثم هو فى معناه اجتماعى يفنى شخصية الشاعر فناءً تامًا أو كالتام فى الجماعة التى يصفها من جهة، والجماعة التى ينشده من جهة أخرى»[2]. وقال د. مجدى وهبة : «الملحمة قصيدة طويلة تهدف إلى تمجيد مُثل جماعية عظيمة (دينية أو وطنية أو إنسانية) بسرد مآثر بطل حقيقى أو أسطورى تتجسد فيه هذه المثل»[3]، وجاء فى الموسوعة العربية الميسرة أن «الملحمة قصيدة طويلة جيدة السبك تتوافر فيها الحبكة، كما تتسم وقائع قصتها بالشرف والجلال، ويعالج فيها الموضوع على نحو يتناسب مع أعمال البطولة فى أسلوب رائع، وسيرة البطل فى العادة هى الموضوع الذى يربط كل أجزاء القصيدة»[4] ، وقال الدكتور أحمد زيد :

---

(1) تاريخ آداب العرب لجورجى زيدان، ج ١، ص ٥٥، ط دار الهلال.

(2) الأدب الجاهلى، ص ٣٥٦، ط دار المعارف (الأولى).

(3) معجم مصطلحات الأدب، ص ١٤٠.

(4) ص ١٧٤.

«الملحمة : هى القصيدة القصصية الطويلة التى تحكى أعمال البطولة التى تصدر فى العادة عن بطل رئيسى واحد، والتى كثيرًا ما يكون لها مغزى قومى واضح»[1] .

ويفهم من التعريفات السابقة : أن أبرز خصائص الملحمة يتمثل فيما يلى :

١-أنها تكون فى الغالب شعرًا يتمثل فى قصيدة تتسم بالطول -غالبًا- ويتوفر فيها قدر من الروح القصصية.

٢-أن محورها شخصية بطل حقيقى أو أسطورى.

٣-البطولة فيها يجب أن تكون فائقة، وقد تكون أسطورة خارقة.

٤-العظمة والجلال فى الفكر والخيال والأسلوب.

والواقع : أن المنبع الأول الذى استقى منه أولئك النقاد والدارسون تعريفاتهم للملحمة وخصائصها وشروطها هو ملحمتا الشاعر اليونانى القديم هوميروس "الإلياذة" و"الأوديسا" المتسمتان بالطول، وبالتجاوز فى سرد الوقائع والأخبار الخاصة بحرب طروادة إلى ما وراء الطبيعة من شئون الآلهة وملابستهم للبشر فى أعمالهم، والإلياذة -بالذات- قد جعلت أبطال هذه الحرب من البشر، وبعضهم من الآلهة وأنصاف الآلهة، وجعلت لهؤلاء أدوارًا خطيرة فى سير دفة الحرب.

وفى تقديرى : أن هاتين الملحمتين قد فرضتا نوعًا من "القهر الأدبى" إن صح هذا التعبير على الذين حاولوا تعريف الملحمة وتحديد أبعادها بعد ذلك، فكان تعريف كثير منهم يكاد يكون توصيفًا لهاتين الملحمتين ولما ماثلهما من الملاحم القديمة كالإلياذة لفرجيل، والكوميديا الإلهية لدانتى والفردوس

---

[1] ينظر : "الملاحم كتاريخ وثقافة"، ص ٤، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٦، العدد الأول، أبريل ١٩٨٥م.

المفقود لملتون وشاهنامة الفردوسى الفارسى، والمهابهارتة الهندية. بل إن خصائص هذه الملاحم جميعًا قد دفعت طائفة من النقاد العرب إلى إنكار وجود الملاحم فى الأدب العربى.

ولو كان هؤلاء النقاد قد فطنوا إلى أن لفظة "الملحمة" لفظة عربية محضة، يمكن أخذ مدلولها من اللغة العربية وتراثها الأدبى لوضعوا تعريفًا دقيقًا لها لا يترتب عليه إنكار الملاحم فى التراث العربى، ولا يكون خاضعًا بحال لتبعية التصور اليونانى أو الرومانى. إذ يمكن تعريف الملحمة العربية بأنها قصيدة مفرطة فى الطول أو طويلة نسبيًا تصور البطولات والمعارك العربية تصويرًا موضوعيًا خاليًا من الخرافات والأساطير. ويمكن تعريف الملحمة الإسلامية بأنها القصيدة التى تتحدث عن هدف وواقع وعن معركة الحق ضد الباطل مخالفة بذلك المنهج اليونانى كله. وموضوعها الأساسى هو الحروب الإسلامية، أو قضايا المجتمع الإسلامى المعاصر، أو حقائق التاريخ والأحداث الواقعة بالفعل، أو البطولات الإسلامية الشامخة، أو الرد على خصوم الإسلام من أعدائه والجاهلين به ودفع التهم الباطلة التى ألصقوها به، أو تعليم الأجيال الجديدة معطيات الإسلام، وتعريفهم بتاريخ أبطاله وزعمائه وأمجادهم ودورهم فى بناء دولة قوية ظافرة .. أو ما هو شبيه بذلك.

أقول مرة أخرى : إن لفظة "الملحمة" لفظة عربية يتضمن مفهومها معانى تواضع عليها علماء اللغة العربية وهى التلاحم والتلاصق والوحدة والترابط والقوة والشدة والوقعة العظيمة، ولا تشتمل -إطلاقًا- على معانى الخيال، ولا الأسطورة، ولا الخرافة، ولا المعجزة، ولا خوارق العادات، فليست هذه من معانيها فى الوضع اللغوى فى المعاجم العربية.

وفيما يتعلق بكلمة Epic الإنجليزية، والتى تترجم من البعض إلى

"ملحمة" فهى ترجمة خاطئة، لأن هذه الكلمة أو EPIKOS اليونانية تعنيان "قصة شعرية أو أسطورة خرافية وهمية"، والترجمة الصحيحة لكلمة EPIC هى الأسطورة الشعرية وليست الملحمة.

ويرى الدكتور عدنان النحوى : أن الذين فكروا فى الملحمة أو حاولوا دخول ميدانها كان فى ذهنهم قضية أساسية ورثوها عن التصور اليونانى للملحمة ... هذه القضية هى الطول، أى إن الملحمة يجب أن تتجاوز آلاف الأبيات، وقد احتل هذا التصور أذهان الأدباء والأجواء الجامعية، فهو يرى -أى الدكتور النحوى- أنه لا ضرورة للخضوع لهذا الطول، خاصة وأن طبيعة اللغة العربية لا تحتاجه، وكذلك لا نشعر بحاجة له من ناحية عقلية أو منطقية، إلا أن يكون اقتفاء أثر اليونان واتباعهم فقط.

وواضح أن الدكتور النحوى يريد أن يجعل "الملحمة الإسلامية" تأخذ معنى الملحمة من موضوعها أكثر من طولها.

وعلى كل حال، فإن الملاحم الإسلامية لا تبنى على الخرافات والأساطير، ولا تشتمل على الوثنية بطبيعة الحال، وإنما هى قصائد تقص وتحكى الوقائع العظيمة المستمدة من الحقيقة فى السيرة والتاريخ والمجتمع المعاصر. ومصطلح "الملحمة" عندنا مصطلح نابع من واقعنا الإسلامى المحشود بالأعمال الجليلة والبطولات العظيمة والانتصارات الرائعة، ومن حياتنا الأدبية التى لا تتناقض مع حقائق التاريخ ولا الواقع الاجتماعى المعاصر، وليس مستمدًا لا فى حروفه ولفظه، ولا فى معناه ومضمونه، ولا فى أهدافه ومقاصده من الآداب الأخرى كالإغريقية واليونانية والرومانية والآداب الأجنبية الأخرى. والملاحم الإسلامية تقوم على الصدق والواقع، ولا تقوم -كالملاحم اليونانية- على الخرافة والأسطورة والافتراءات والأباطيل.

والملاحم الإسلامية تهذب الأخلاق، وتقدم نماذج تحتذى للأبطال، وتبث روح الوطنية، وتعمق قيم الإسلام، وتساهم فى بناء الأمة.

وحتى يكون حديثنا عن هذا الفن جامعًا بين الأصالة والمعاصرة فإننا نبدأ أولاً بذكر معالم واضحة من الجذور التراثية لهذا الفن فى أدبنا الإسلامى القديم مثل ملحمة "عمر نامه" وهى ملحمة إسلامية أشاد فيها ناظمها الإيرانى بالإسلام والفتح الإسلامى، وملحمة "فاروقى" وهى ملحمة إيرانية إسلامية نقد ناظمها الشاهنامة الفارسية للفردوسى تلك التى تدور حول تاريخ الأكاسرة ووصف الحرب بين أهل إيران وأهل طوران، وتحتوى على كثير من تاريخ الأكاسرة؛ بل إن ناظم ملحمة فاروقى قد شك فى إخلاص الفردوسى للإسلام، وقال أبياتًا ترجمتها : "قلبه مجوسى، ولسانه مجوسى، إنه يحكى قصة المجوس فى اللغة المجوسية".

ومن القصائد الإسلامية الطوال : قصيدة فى أربعمائة بيت وصف فيها محمد بن عبد العزيز من شعراء اليتيمة حالة تنقله فى الأديان والمذاهب والصناعات، وهى تقارب المعنى المصطلح عليه فى الشعر العربى[1]. وقصيدة "ذات الحلل" التى نظمها أبان اللاحقى فى العصر العباسى، وذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق وغير ذلك، وهى مشهورة، ومن المؤرخين من ينسبها لأبى العتاهية. وامتازت الأندلس بنظم التاريخ والتفوق فى هذا الباب، ومن الشعر الأندلسى أرجوزة طويلة فى فتح الأندلس وأمرائها، نظمها يحيى بن حكم البكرى الغزالى المتوفى ٢٥٠ هـ شاعر الأمير عبد الرحمن بن الحكم، ولأحمد بن عبد ربه أرجوزة جاءت فى ٤٥٦ بيتًا، نظمها راصدًا فيها غزوات الملك الناصر فى الأندلس إلى سنة ٣٢٢ هـ، واعتمد فيها اعتمادًا كليًا على رصد الحقائق التاريخية ومطلعها :

---

[1] تاريخ آداب لغة العرب للرافعى، ٣ / ١٥٤.

سبحان من لم تحوه أقطار ولم تكد تدركه أبصار[1]

صحيح أنها تخلو تمامًا من أى طابع ملحمى، لتجردها من الخيال الشعرى الرقيق، ومن اللغة الجليلة البهية، ولكونها إلى النظم التاريخى التعليمى أقرب منها إلى الشعر القصصى، لكنها -على كل حال- هى وأمثالها من النظم التعليمى شواهد لوجود المطولات الإسلامية فى العصر القديم. ولابن عبد ربه أيضًا قصيدة من هذا الوادى فى "المنذر بن محمد" أحد ملوك الأندلس (٢٧٣ - ٢٧٥هـ) أولها :

بـالمنـذر بـن محمـد صلحت بلاد الأندلس[2]

ومن الأراجيز الإسلامية الطوال : أرجوزة لابن المعتز فى ذم الصبوح، وتعد من أقرب الآثار الأدبية إلى الشعر القصصى، وأسلوبها ممزوج بالدعابة. ولابن المعتز أيضًا أرجوزة فى تاريخ المعتضد، وتبلغ نحو ٤٢٠ بيتًا، وهى تصوير رائع للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى هذا العهد الحافل، وأكبر أثر تاريخى لعصر المعتضد، على أنها صورة مصغرة لنمط الملاحم كالإلياذة والشاهنامة، وهى موجودة فى ديوان ابن المعتز، وطبعت مستقلة عن الديوان فى مصر سنة ١٩١٣م، وقد اكتفى مؤلفها بها عن الكتاب الذى أمره المعتضد بتأليفه عن سيرته.

ومن الجذور التراثية لشعر المطولات الإسلامية : ما رأيناه فى مرحلة الحروب الصليبية من انعطاف الشعراء نحو الموضوع الإسلامى بتركيز واهتمام على النحو الذى نراه مثلاً فى قصائد الإمام البرعى والإمام البوصيرى، ويكفى أن نشير مثلاً إلى مطولة البوصيرى اللامية التى نقد فيها عقيدة النصارى أهل

---

[1] راجعها فى العقد الفريد: ٣ / ٢٠٩، ٢٢٧.

[2] راجع : الأدب العربى للزيات، ص ٣١٨.

الصليب، وإلى همزيته النبوية في مدح الرسول ﷺ وإلى قصيدة "البردة" في مدح النبي ﷺ تلك التى فتحت بابًا لسيل منهمر من القصائد الطوال التى قلدتها وعارضتها -على مدى العصرين المملوكى والعثمانى- ولاسيما فيما اصطلح على تسميته بـ (البديعيات) لكل من صفى الدين الحلى، وابن حجة الحموى، وعز الدين الموصلى، وجلال الدين السيوطى، وعبد الغنى النابلسى، وبهاء الدين العاملى، وعائشة الباعونية، وغيرهم كثير. ناهيك عن الإسلاميات الطوال المتمثلة فى تخميسات البردة وتشطيراتها وتسبيعاتها وغيرها من ضروب النظم المختلفة.

هذا عن الجذور التراثية للملاحم والمطولات الإسلامية.

أما فى أدبنا الحديث، فقد توالى إبداع الملاحم والمطولات الإسلامية على أيدى الشعراء الفحول إلى الحد الذى جعل كثرتها وروعتها يشكل ظاهرة بارزة جديرة بالتقدير والإجلال.

ويمكن تلخيص الأسباب التى أدت إلى شيوع هذه الظاهرة فيما يلى :

١-أن الأمة الإسلامية قد تعرضت سنين طويلة للاستعمار الغربى الذى احتل بلادها، وأذل عبادها، وأذاقها ألوان القهر والعسف، وحرمها الانطلاق إلى آفاق الحرية والعدل والأمن والرخاء .. الأمر الذى لم يجد الشعراء إزاءه ملاذًا لهم إلا فى الحياة مع الماضى المشرق الذى أوقف المحتل الغاصب امتداده، وفى أن يستعيدوا جلال الذكريات الخالدة فى تاريخ العرب والإسلام، بعد أن استحالت حياتهم من بناء وأعمال إلى ذكريات وآمال، لأنهم فقدوا الحرية، وفقدوا بفقدانها كل شىء. فكان من أصداء ذلك تلك الملاحم والمطولات المتغنية بماضينا الإسلامى الوضاء.

٢-أن الأمة الإسلامية منيت بفقد قطعة من أرضها عزيزة غالية عليها هى أرض فلسطين والمسجد الأقصى ومرتفعات الجولان وجنوب لبنان التى باتت جميعها فى حوزة شرذمة قليلة من حسالة البشر المتمثلين فى اليهود الصهاينة.. الأمر الذى أشعل جذوة الحماس والغيرة والجهاد بسلاح الشعر عند بعض الشعراء، فكان من ثمار ذلك المطولات الباكية على فلسطين والقدس وأراضينا المحتلة.

٣-أن الشيوعية الحمراء أبت هى الأخرى إلا أن تحقق أطماعها فى بلاد المسلمين، فكان منها ما كان فى أرض أفغانستان، وكان منها ما هو كائن الآن فى أرض المسلمين الشيشان .. الأمر الذى دفع بعض الشعراء لإبداع المطولات التى صورت ذلك الصراع المحتدم بين الشيوعيين والمسلمين.

٤-أن حب المسلمين لربهم ونبيهم ودينهم وتراثهم العميق قد ملك قلوبهم وهيمن على عواطفهم ومشاعرهم وتجاربهم .. الأمر الذى حمل جماعة من الشعراء على إبداع الملاحم والمطولات المصورة لعظمة خالقهم ورسولهم وشريعتهم.

٥-أن الدين الإسلامى الحنيف لم يسلم هو وأتباعه من مؤامرات ومطاعن خصوم الدين الحق الجاهلين به، الأمر الذى اقتضى دفع للتهم الباطلة التى ألصقت به، ومواجهة الأعداء ببعض المطولات.

٦-ويمكن أن نعد من الأسباب رغبة طائفة من شعراء المطولات فى تعليم الأجيال الجديدة معطيات الإسلام، وتعريفهم بتاريخ أبطاله وزعمائه، وأمجادهم ودورهم فى بناء دولة قوية موحدة ظافرة. باعتبار ذلك ضرورة تربوية أمام حالة الهزيمة التى تستشعرها الشعوب الإسلامية فى معظم الميادين لأسباب شتى على رأسها الإمبريالية والصهيونية وعملائها.

٧-كذلك يمكن أن يكون التعبير عن الهم الذاتى هدفًا مقصودًا لبعض شعراء هذه المطولات، وبخاصة عندما يعيش الشاعر محنة شخصية لا يجد لها حلاً إلا فى رحاب الإسلام والالتجاء إلى ساحته لينفس عن همومه، أو عندما يضيق الشاعر المسلم بالواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى يعيش فيه.

٨-ويمكن القول : إن المطولات كانت تدليلاً من أصحابها على قدرتهم الإبداعية فى البوح عن مشاعرهم وأفكارهم من خلال قصيدة مطولة تثبت طول نفسهم الشعرى، وقدرتهم على الإنشاد والنظم وإمتاع جمهور القراء والمستمعين بقصائد طويلة تصل إلى مئات الأبيات حينًا، وإلى آلاف الأبيات حينًا آخر، دون أن تفتر هممهم، أو تخذلهم أدواتهم الفنية وطاقاتهم الإبداعية، بخلاف غيرهم من الشعراء الذين يلجأون -اضطرارًا أو اختيارًا- إلى الإبداع فى صورة القصيدة العادية.

٩-هناك سبب خاص بكثرة المطولات الإسلامية التى عارض بها أصحابها بردة البوصيرى هو رغبة من عارضوها فى النظم على غرارها، باعتبارها أكثر القصائد الإسلامية الطويلة شهرة وذيوعًا وحبًا، ولها فى وجدان الناس تأثير جد عظيم، وصار من المألوف أن نجد لها احتذاء شبه كامل فى البناء والمعجم والصورة، فضلاً عن المعانى والتصورات. ولعل أحدث مثل لذلك معارضة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر التى تنشرها على حلقات مجلة الأزهر هذه الأيام.

١٠-هذا ويلاحظ أن انتشار المطولات الإسلامية وذيوعها قد صاحب دعوة صريحة من السيد "محب الدين الخطيب" لأمير الشعراء أحمد شوقى كى يكتب ملحمة إسلامية، وعندما اعتذر قام بدعوة الشاعر أحمد محرم الذى

استجاب ونظم ديوان "مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية" لتكون أول ملحمة فى شعرنا العربى، وإن كان شوقى قد أنشأ بعدئذ منظومته العربية الإسلامية الطويلة "دول العرب وعظماء الإسلام" التى تحكى تاريخ الإسلام منذ مولد النبى ﷺ[1].

١١-وأخيرًا يمكن أن يكون من دوافع ذيوع المطولات الإسلامية نمو الوعى الإسلامى وهيمنة الصحوة الإسلامية فى نفوس الشعراء، ناهيك عن ظروف النشر العسيرة التى لا تمكن الشاعر من إمكانات النشر بصورة اعتيادية ميسرة، فيضطر إلى اللجوء إلى المطولات، باعتبار أنها تتيح له أن يقول أكبر قدر ممكن من الأفكار، ويعبر عن أمشاج من المشاعر والرؤى فى شكل مطولة تنشر مرة واحدة فى ديوان مستقل بقليل من المال، وتعفيه من انتظار نشر بقية الأشعار.. ذلك النشر الذى قد يتحقق وقد لا يتحقق.

إن الأسباب التى سبق ذكرها تثبت أن شيوع ظاهرة الملاحم والمطولات الإسلامية فى أدبنا الحديث لم ينتج عن فراغ، ولا يمكن -بالتالى- فصلها عن سياق أعم، يتمثل فى المحيط الاجتماعى الذى يموج بالأفعال وردود الحياة المتباينة. ومن المؤكد أن زملائى من النقاد وأبنائى من الدارسين والدراسات قادرون على اكتشاف أسباب أخرى لشيوع هذه الظاهرة، قد تكون -وهو ما أتمناه- أكثر نضجًا وأوفر حظًا من العلمية والمنهجية والدقة والشمول عما ذكرته آنفًا من الأسباب. وإنى لأدعو -مع الناقد المغربى الكبير محمد إقبال عروى-[2] الشعراء أولاً، والنقاد ثانيًا، وطلاب الدراسات الأدبية

---

[1] راجع : مقدمة ديوان مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية، ص ٥ وما بعدها، ط. مكتبة العروبة بمصر ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م. وراجع أيضًا : القصائد الإسلامية الطوال، قراءة ونصوص للدكتور الأديب الناقد حلمى محمد القاعود، ص ١٠، ١١ منشورات دار الاعتصام بالقاهرة.

[2] جاءت هذه الدعوة ضمن مقال قصير له عن هذه الظاهرة احتوته "المسلمون" الجريدة المعروفة، عدد ٢٦، محرم ١٤١٤ هـ / ١٦ يوليو ١٩٩٣م، ص ١٠.

العليا فى الجامعات ثالثًا إلى الإدلاء بآرائهم حول هذه الظاهرة الطيبة : طبيعتها، وأسبابها، وتجلياتها، وهى عناصر محورية لأن إطلاق مصطلح "الظاهرة" لا يأتى اعتباطًا، وإنما يوظف فى سياق التأكيد على أن أية ظاهرة أدبية أو اجتماعية لابد لها من أسباب ومظاهر يتعين الكشف عنها.

والآن ننتقل إلى الحديث عن روائع الملاحم والمطولات الإسلامية فى الشعر العربى الحديث.

وخير ما نستهل به الحديث : ديوان "مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية" لشاعر العروبة والإسلام أحمد محرم، تلك التى تعد بحق عملاً أدبيًا كبيرًا توج به الشاعر حياته الأدبية، وأمضى نحو خمسة عشر عامًا من عمره عاكفًا عليه. وإلياذة محرم تتألف من خمسة آلاف بيت من الشعر الرائع المصور للسيرة النبوية، وقد صدرت بعد وفاته فى أربعة أجزاء، شملت الثلاثة الأولى منها ذكر الوقائع والملاحم منذ أعلن الرسول ﷺ دعوته إلى أن أتم الله هذه الدعوة، واستقر الإسلام بالمدينة، وجاءت الوفود من بلاد العرب كافة مؤمنة مسلمة. وفى هذه الأجزاء الثلاثة ذكر غزوات النبى جميعها، والأحداث التى جرت خلالها، والشخصيات البارزة فيها. أما الجزء الرابع، فقد خصصه الشاعر لذكر الوفود التى أقبلت فى العام التاسع بعد فتح مكة المكرمة تبايع النبى ﷺ من مختلف الجهات، ثم رسائل النبى إلى الملوك، ثم السرايا.

ومن الملاحم التى سجلت السيرة النبوية : ملحمة "أمير الأنبياء" لعامر بحيرى، وهى تتألف من ١٢٠٠ بيت تتضمن حياة النبى ﷺ من مولده إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وملحمة "النبى ﷺ" لعمر أبى ريشة، وملحمة "السيرة النبوية الخالدة" للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، وملحمة "من إشراقات السيرة النبوية" لعزيز أباظة، وملحمة "الإلياذة الإسلامية الجديدة

للشاعر محمد إبراهيم جدع، ومطولة للشاعر الحجازى السيد عبد الحميد الخطيب عنوانها "سيرة سيد ولد آدم محمد ﷺ" وتتألف من نحو ألفى بيت تضمنت السيرة النبوية فى شمول تام.

ومن المطولات الإسلامية المعارضة لبردة البوصيرى فى مدح النبى ﷺ مطولة البارودى "كشف الغمة فى مدح سيد الأمة" التى تتألف من ٤٥٠٠ بيت تناول فيها صميم السيرة النبوية، متغنيًا ومشيدًا ببطولات الرسول القائد وإبرازها من خلال الغزوات المنتصرة، وتتميز هذه المطولة بالتركيز على الصفات النفسية والخلال الخلقية لشخصية النبى ﷺ أكثر بكثير من الوقوف عند الحوادث والوقائع التى أولاها شعراء الملاحم أهمية عظمى. ومن هذا الباب "نهج البردة" لأمير الشعراء أحمد شوقى، وفيها أيضًا تركيز على شخصية النبى الكريم الجليلة الإنسانية، واستخلاص لقيم البطولة فى شخصيته من خلال الغزوات، وإبراز للمناحى النفسية والأخلاق الفاضلة السلوكية فى سيرته العطرة. ومن الباب كذلك : "ظل البردة" للشيخ محمد عبد المطلب، وهى ثلاثة وعشرون ومائة بيت تناولت صفات النبى الكريم وغزواته، و"نهج البردة" لمحمد توفيق زارع، وأبياتها ١٩٦ بيتًا أنشأها بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف، وجاءت بديعة فى تصويرها لصفحة مشرقة من تاريخ الدعوة الإسلامية، و"بردة محفوظ" للشاعر أحمد محفوظ، وتتألف من ٢٠١ بيت، و"نهج البردة" للأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم التى تنشرها بجزأة مجلة الأزهر هذه الأيام.

ومن المطولات الإسلامية أيضًا : "الملحمة الإسلامية" للشاعر السعودى حسين عرب وهى فى ثمان وأربعين ومائتى بيت، نشرت فى مجلة "المنهل" العدد الثانى عشر عام ١٣٨٨هـ، وملحمة "نور الإسلام" للشاعر

السعودى محمد بن سعد الدبل، وملحمة "من وحى البنوة" لمحمد عبد الغنى حسن، وملحمة "النور" لمحمد الحسناوى، و"الطريق إلى النور" لمحمد الجنباز، و"النونية الكبرى" لإسماعيل صبرى (أبى أميمة)، و"الهمزية الكبرى" للشاعر نفسه، و"الروح القدس" لأحمد مخيمر، وتبلغ آلافًا من الأبيات، و"الملحمة الإسلامية" لأحمد قنديل، وهى فى ألف بيت، والملحمة الإسلامية لكامل أمين، و"محمد ﷺ" لعبده بدوى وملحمة عن السيرة النبوية لعمر حورى.

ومن الملاحم الخاصة بتصوير الغزوات المحمدية : ملحمة بدر لعمر أبى ريشة، وملحمة بدر لعبد القادر حداد، و"ملحمة بدر" المنشورة فى ثلاثة مجلدات والمؤلفة من ثلاثة آلاف بيت، و"ملحمة أحد" لأحمد الخانى.

ومن الملاحم الخاصة بالهجرة النبوية : "ملحمة الهجرة" لمحمد منير الجنباز، و"ملحمة الهجرة" للدكتور عبد الرحمن العشماوى.

ومن المطولات الإسلامية المصورة للخلفاء الراشدين : "الملحمة البكرية" التى أبدعها الشاعر عبد الحليم المصرى عن الخليفة الأول أبى بكر الصديق وصفحات حياته وجلائل أعماله، وأنشدها من فوق مدرج الجامعة المصرية القديمة فى ٢٣ / ٥ / ١٩١٨م، ونشرت بعد إنشادها فى اليوم التالى مباشرة فى الصفحة الأولى كلها وجزء من الثانية من جريدة الأفكار (عدد ٢٤/ ٥ / ١٩١٨)، و"الملحمة العمرية" لشاعر النيل حافظ إبراهيم، وهى متقدمة فى الإنشاء والإنشاد على بكرية المصرى، إذ أنشدها حافظ من فوق مدرج وزارة المعارف المصرية فى مساء يوم الجمعة ٨ / ٢ / ١٩١٨، وتبلغ أبياتها ١٧٥ بيت تناول فيها بعد مقدمة قصيرة مقتل الفارق، ثم عاد إلى الحديث عن بيعته لأبى بكر، وموقفه من على أثناء البيعة، وصور مواقف عمر مع جبلة بن الأيهم، وأبى سفيان، وخالد، ومع ابنه عبد الله بن عمر، ومع

نصر بن حجاج، وعمرو بن العاص، ومع رسول كسرى، وقص قصة من نهجه فى الشورى، وأمثلة من زهده وورعه وهيبته ورحمته ورجوعه إلى الحق، وقطعه لشجرة الرضوان، وكما ابتدأها بمقدمة ختمها بخاتمة قصيرة كان من الأولى بها أن تكون هى المقدمة. وبعد عام ونصف من ظهور هاتين الملحمتين أبدع الشاعر الشيخ محمد عبد المطلب "الملحمة العلوية" فى حياة الإمام على وتاريخه وبطولاته، وقد أنشدها فى حفل يترأسه شيخ الشعراء إسماعيل صبرى فى الجامعة المصرية، واعتزازًا بروح العروبة المتأصلة فى نفس مبدعها الذى كان يلقب بالشاعر البدوى ألقى الملحمة وهو راكب على ظهر جمل كما كان يفعل القدماء من الشعراء فى سوق عكاظ، وتتألف هذه الملحمة من سبع وثلاثمائة بيت من البحر الوافر، والطريف أنه استهلها بمقدمة تصور الطائرة، واعتبر ذلك مظهرًا من مظاهر التجديد فى مقدمة القصيدة العربية ليرضى أرباب نزعة التجديد وأصحاب المذهب الحديث فى الشعر.

وقد تخلص من وصف الطائرة إلى مدح الإمام على، ثم عاد إلى الحديث عن الإمام فى صباه، وعن إسلامه، ثم عن استخلافه ليلة الهجرة، ثم عن حياته فى المدينة، وزواجه من فاطمة الزهراء بنت النبى ﷺ، ومواقفه فى بدر وأحد، وبطولته يوم الخندق، وقتله لعمرو بن ود فى هذا اليوم، وشجاعته يوم خيبر وقتله لمرحب اليهودى، وعن زعامته فى المواطن، ومواقفه أيام السلام، وصور شخصيته ونفسه ووجهه وجوده وتبتله، وموقفه من مقتل عثمان، ومن اختلاف المسلمين حول الخلافة كل هذا صوره فى المطولة تصويرًا جميلاً قويًا مؤثرًا. وهذه هى "الملحمة العلوية الكبرى" وله علوية أخرى صغيرة تقع فى سبعة وأربعين بيتًا من بحر الرمل، وأوثر أن أسميها "العلوية الصغرى" وقد بدأها كذلك بوصف الطائرة، ثم تحدث فيها عن حنينه لنجد

والجزيرة العربية، ومدح الإمام عليا مدحًا رائعًا. وحرى بالذكر أن هناك مطولة علوية أخرى وهى للشاعر محمد الهاشمى.

ومن الملاحم المصورة للبطولة والأبطال فى التاريخ الإسلامى : "ملاحم البطولة فى التاريخ الإسلامى" لعمر أبى ريشة وهى فى ١٢٠ بيت، و"ملحمة السماوات السبع" لكامل أمين وقد جمعت -كما جاء فى مقدمتها- "قصة خلق الإنسان الأول وصراعه فى الحياة، وتدرج البشرية بين الحرب والسلم والخير والشر، وتروى قصتها كفاح الأنبياء من أجل الخير والسلام، وكفاح الأبطال من أجل خير وطنهم، وتقف وقفة طويلة عند حروب صلاح الدين مع الصليبيين، وحروب الظاهر بيبرس مع التتار والصليبيين معًا"، ومن هذا الباب أيضًا : ملحمة "الحرب المقدسة" لمحمود محمد صادق، و"إلياذة الجزائر" لمفدىّ زكريا، ومطولة عن "محمد بن القاسم الثقفى" للدكتور صابر عبد الدايم، و"ملحمة النصر من وحى الجهاد المؤمن فى رمضان المبارك ١٣٩٤هـ وملحمة "الجهاد" نشرت فى عام ١٤٨٨ هـ / ١٩٨٦م للشاعر عمر بهاء الدين الأميرى، و"خالدية" عمر أبى ريشة.

ومن الملاحم المصورة لقصص الأنبياء : ملحمة "أكرم الناس يوسف الصديق عليه السلام" للشاعر الحمزة دعبس، وملحمة "آدم وحواء" لعامر محمد بحيرى، وهى فى نيف وألف بيت تصور بدء الخليقة وقصة آدم وحواء والمعصية والفردوس المفقود والفردوس المستعاد ... إلخ. ومن الملاحم الكاشفة عن الروح التصوفية : ملحمة "جحيم الشاعر" لليعربى محمد توفيق. ومن الملاحم المصورة لتاريخ الكعبة ومناسك الحج ملحمة أبدعها هذا الشاعر من ألف بيت عنوانها "المعلقة الإسلامية أو معلقة الكعبة" تناول فيها بعد المقدمة : إلهام بناء الكعبة، وهجرة الخليل بهاجر وإسماعيل، وزمزم، ورفع القواعد من البيت،

وأصنام إبليس، وإعادة حفر بئر زمزم على يد عبد المطلب، وذهب الكعبة والنذر، والعروبة فى جاهليتها، والمعلقات الشعرية على الكعبة، ومحاولة أبرهة هدم الكعبة، وحماية الله لها من كيده، وتجديد قريش لها، وظهور الإسلام وتحطيم الأصنام التى كانت حولها، وتحويل القبلة من الأقصى إليها، ومناسك الحج، وحرمات البيت الحرام، ثم خاتمة وحديث عن خادم البيت الحرام.

ومن المطولات والملاحم الإسلامية التى تناولت قضايا العالم الإسلامى المعاصر : "بائية الإضراب والصحوة" و"فصول من مأساة أخت فى الله اسمها سراييفو" و"شهدت الآن أن الله حق" لعبد الرحمن وافى، و"الروح القدس" للشاعر أحمد مخيمر، و"الطريق إلى محمد ﷺ" ليوسف الخطيب، و"ما أصعب الكلام" و"العشاء الأخير لإبليس الأول" لأحمد مطر و"نقوش على واجهة القرن الخامس عشر الهجرى" لعبد الرحمن العشماوى، و"ملحمة الشرق الحزين" لعلى النعمى، و"رسالة إلى سيف بن ذى يزن" و"يوميات سيف بن ذى يزن" لعبد العزيز المقالح، و"بورسعيد" لحسن كامل الصيرفى، و"رحلة فى المصير" لعماد الدين خليل، و"الرحيل على جواد النار : من مذكرات عبد الله بن الزبير" للدكتور حسين على محمد، و"أرض الشهداء" لإبراهيم العريض و"مطولة على لسان عراقى" لأيوب عباس، و"المهزلة العربية" لمحمود الحوت، و"النكبة وحزيران" لحسين عرب، و"مطولة عن مجزرة كفر قاسم" لمحمود درويش. و"منشورات فدائية على جدران إسرائيل" لنزار قبانى.

ومما يندرج فى هذا الباب : الملاحم التى كتبها الدكتور عدنان النحوى وفقًا لتصوره الذى سبق ذكره لمفهوم الملحمة، والتى عالج فيها أبرز قضايا العالم الإسلامى المعاصر مثل "ملحمة الجهاد الأفغانى" التى صور فيها ضروب ملاحم المجاهدين فى أفغانستان وروعة صبرهم ضد العدو الشيوعى

الغاشم، و"ملحمة فلسطين" التى صور فيها مأساة فلسطين، واندفاع انتفاضة أبنائها بالأحجار يضربون الصهاينة الآثمين، و"ملحمة القسطنطينية" التى جعل فتحها فتحين : فتح محمد الفاتح لها، ورفض السلطان عبد الحميد التنازل عن أرض فلسطين عند مساومة اليهود له، وطرده المبعوثين شر طردة، وملحمة "على أبواب القدس" التى روى فيها معارك المسلمين فى فلسطين منذ عهد الرسول ﷺ حتى نصر حطين، و"ملحمة الأقصى" التى تتألف من نحو خمسمائة بيت، و"ملحمة الهند" التى تصل أبياتها إلى ٣٣٦ بيت "وملحمة لبنان: وردة ودماء" و"ملحمة دوى التاريخ" ونحو ذلك من بقية ملاحمه، ومن المطولات التى تناولت الأزهر الشريف : "ملحمة الأزهر" لأستاذنا المرحوم الدكتور عبد السلام سرحان، وهى فى أربعمائة بيت وقد طبعت فى ديوان مستقل عام ١٩٦٣م ومن المطولات المتأملة فى كون الله مطولة لابن حوش عيسى شيخنا المرحوم إبراهيم بديوى عنوانها : "الشعر مع الله والذرة".

ونخلص من كل ما تقدم إلى عدة نقاط مهمة :

أولها : أن مفهوم الملاحم والمطولات الإسلامية نابع من مدلول لفظة الملحمة فى لغتنا العربية، ومن تراثنا الأدبى العريق، ومن منهاج الله عز وجل الذى حدده القرآن والسنة، ومن التاريخ الإسلامى، ومن ثم فإن حقائق الملاحم الإسلامية على النحو الذى تبين لنا من الشواهد التى ذكرناها منفصلة تمامًا عن التصور الوثنى الملحوظ فى الملاحم اليونانية والرومانية وما ماثلها. فالملاحم الإسلامية لها تصور مستقل خاص، وغايات إسلامية محددة.

ثانيًا : أن طول القصيدة على النحو اليونانى لم يكن عاملاً محددًا، ولا عائقًا أمام الشعراء الإسلاميين الذين أطلقوا على بعض قصائدهم غير الطويلة اسم الملحمة.

ثالثًا : أن الدارس المتتبع لفن المطولات الإسلامية فى العصر الحديث يظفر بكم هائل متنوع الموضوعات على النحو الذى لمسناه مما ذكرناه من شواهد، بل إن الذى ذكرناه -مع كثرته- إنما يمثل غيضًا من فيض.

رابعًا : أن ظاهرة المطولات والملاحم الإسلامية فى الشعر العربى الحديث جديرة حقًا بدراسة موسعة تتناولها موضوعيًا وفنيًا، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يهيئ لنا أو لغيرنا ذلك فى مستقبل الأيام.

ثالثًا : فن القصة

يجمع الأدباء والنقاد على أن الفن القصصى فن أدبى أصيل يصور موقفًا أو مواقف دينية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عاطفية أو أخلاقية، أو غير ذلك من أحوال الحياة التى لا تحصر.

وتعد القصة من أخطر ألوان الأدب، لما تملكه من إمكانات هائلة فى التأثير والتوجيه غير المباشر، ولما تتمتع به من عناصر التشويق والصراع والإثارة.

ومما لا شك فيه أن القصص الإسلامية من أشرف أنواع القصص، لأنها تصور القيم الدينية والأخلاقية تصويرًا فنيًا ساميًا يسهم فى رقى الشعوب وتقدمها، ويعمق الإحساس بالمثل العليا والقيم النبيلة.

وقد استطاع التيار الإسلامى القصصى أن يشق طريقه -بقوة وتميز واقتدار- فى معترك الحياة على يد فئة من كتاب القصة دفعتهم قوة إيمانهم وسلامة عقيدتهم ونمو الوعى الإسلامى عندهم إلى معالجة قضايا الواقع ومشكلات الإنسان من خلال منظار إسلامى صحيح، وإلى التوجه إلى أحداث التاريخ الإسلامى والمصادر الإسلامية الصميمة، فصاغوا -بأقلامهم الفنية- قصصًا مؤثرة معبرة لها أثرها البالغ فى تهذيب النفوس، ودرء المفاسد، وتوجيه الأمة نحو الهدى والرشاد.

والرائع حقًا : أن كثيرًا من الأدباء الذين تأثروا بالثقافة الأوربية، واقتنعوا بها، وعاشوا زمنًا ينادون بالتغريب والتحديث قد ارتدوا بعد ذلك عن أفكارهم الغربية، فعلى سبيل المثال : بدأ الدكتور محمد حسين هيكل الذى احتضن دعوة الفرعونية حينًا ودعوة الأدب القومى حينًا آخر، والذى جعل الغرب وقيمه ورجالاته مثلاً أعلى فى بعض الأحايين، بدأ يكتب عن "حياة

محمد"، ويهيم فى "منزل الوحى" كما بدأ الدكتور طه حسين يحوم على "هامش السيرة" وإن بقى سنوات بعد ذلك أكثر من صاحبه افتتانًا بالغرب، وإيمانًا به. ثم تبعهما بعد سنوات عباس العقاد، فشرع يجلو العبقريات الإسلامية المتمثلة فى "عبقرية محمد" و"عبقرية الصديق" و"عبقرية عمر" و"عبقرية الإمام على" و"عبقية خالد" و"عبقرية المسيح".

ومضى التيار الإسلامى القصصى يفرض نفسه على الساحة الأدبية، ويطرح أفكاره ومبادئه على القراء، فإذا الناس أمام كم هائل من القصص والروايات الإسلامية التى جادت بها أقلام الكتاب.

ومن هذا الكم الهائل : قصتان لإبراهيم رمزى، صدرت أولاهما عام ١٩٣٦م بعنوان "باب القمر"، وصدرت الثانية بعنوان "ضيف الرسول، وهما من القصص الإسلامى الذى صدر فيه الكاتب عن روح ومنهج يختلفان عن منهج الكاتب النصرانى جورجى زيدان فى رواياته السبع عشرة التى تناولت تاريخ العرب والإسلام حتى آخر عهده صلاح الدين الأيوبى، فقد عبر إبراهيم رمزى بصدق عن وجدان دينى قومى فى وقت معًا، وأبرز القيم والمثل التى جاء بها الإسلام، والتى صدر عنها المسلمون الأوائل، وكأنما أراد أن يوازن بين الحاضر وبين النموذج والمثال.

ومن هذه القصص أيضًا رواية رائعة لعلى أحمد باكثير تظهرت فى أواخر الأربعينيات من القرن المنصرم بعنوان (الثائر الأحمر)، وقد حاول المؤلف فيها أن يقدم رؤية للإسلام فى مصر المعاصرة من خلال معالجته للتاريخ الإسلامى، إذ تناول الصراع بين الشيوعيين والإخوان المسلمين فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، ولكن فى ضوء تصوير الصراع بين القرامطة وأهل السنة، داعيًا إلى العودة إلى مبادئ الإسلام الأولى، مبينًا التحلل الخلقى

والروحى الذى نشأ نتيجة الحركة المضادة للإسلام مثل الشيوعية التى رأى فيها مثالاً لحركة القرامطة فى العصور السابقة.

ومن هذه القصص -كذلك- رواية "واإسلاماه" التى صور فيها باكثير جهاد الملك المظفر "سيف الدين محمود قطز" ضد التتار إلى أن قتله غدرًا رفيقه فى الرق وفى الحرب "الظاهر بيبرس" بعد عودتهما من هزيمة التتار فى "عين جالوت".

ومن هذه القصص أيضًا : قصة "الباحث عن الحقيقة" لمحمد عبد الحليم عبد الله، التى دارت حول الصحابى الجليل "سلمان الفارسى"، وقصة "أمير الحب" للكاتب السعودى محمد زارع عقيل، التى تصور الصراع بين الأمويين والزبيريين، وفيها شخصيات أسماء بنت أبى بكر وابنتها رملة بنت الزبير. وقصة "بنت قسطنطين" لمحمد سعيد العريان، التى اعتمد فيها على مرحلة متقدمة من التاريخ الإسلامى، حيث تقع أحداثها خلال النصف الثانى من القرن الأول للهجرة.

ومن القصص الإسلامية أيضًا : "السيرة النبوية" التى قدمها عبد الحميد جودة السحار فى إطار قصصى متميز، استغرق عشرين جزءًا صدر الجزء الأول منها عام ١٩٦٥، بينما صدر الجزء الأخير سنة ١٩٧٠، وكانت بعنوان "محمد رسول الله والذين معه".

كذلك من هذه القصص قصة "حدث فى القلعة" لمحمد بسام ملص، التى تدور أحداثها حول مجاهد باسل وفدائى مقاتل اسمه "عثمان" فى حرب صلاح الدين الأيوبى مع الصليبيين. وقصة "فتاة الجزيرة" لداود سليمان العبيدى، التى تدور أحداثها حول الغلام الذى أخبرنا رسول الله ﷺ بقصته، وأنه كان يذهب للساحر ليتعلم السحر، ويذهب إلى الراهب ليتعلم الهدى، ثم

صار داعية إلى عبادة الله لا الملك، فقبض عليه الملك، ومضى فى تعذيبه حتى دلهم على الراهب، فأمر الله بقتل هذا الراهب، فأخبر الغلام أهل جزيرة (مالومى) بذلك، فآمنوا برب الغلام والراهب وكفروا بهذا الملك الطاغية، فأمر الملك بشق الأخاديد وإشعال النيران فيها لإحراق المؤمنين فمات الغلام ومات كثيرون من المؤمنين، وفر بعضهم إلى خارج الجزيرة. والقصة -كما ترى- قصة مأساوية ختمت بخاتمة مبكية حزينة، وجاءت أحداثها كلها مؤلمة مع أن عنوانها لا يوحى بذلك. ومغزاها الإسلامى واضح إذ تهدف إلى إبراز شخصية الغلام وتجلية دعوته التى قام بها، وتوضيح المشقة والعذاب اللذين لاقاهما فى سبيل ذلك، وبيان مدى صبره وتحمله لكل الشدائد التى واجهها من الملك الطاغية المتأله ومن أعوانه الكفرة الغلاظ.

ومن القصص ذات الصبغة الإسلامية فى العصر الحديث : قصة "شاعر ملك" لعلى الجارم، التى جسد فيها غروب دولة إسلامية كبرى لعبت دورًا خطيرًا فى الحضارة والثقافة والعلم، ورماها القدر بأيد غادرة عبثت بها فأخفت ضياءها وأحالتها ظلامًا، وبذلك زال عصر من أزهى العصور الإسلامية وأكثرها تقدمًا.

ومن القصص الإسلامية القصيرة : قصتا "الحجاب" و"الهاوية" اللتان نشرتا ضمن المجموعة القصصية المعروفة بـ (العبرات) لمصطفى لطفى المنفلوطى. فقد سلط المنفلوطى فى القصة الأولى أضواء عدسته على قضية "تحرير المرأة" أو "الحجاب والسفور" التى كثر حولها النقاش فى عصره. وفيها نرى أحد أصدقاء المؤلف العائد من أوربا، يحاول أن ينقل جانبًا من الحياة الأوربية وبخاصة الخبيث منها إلى المجتمع المصرى العربى المسلم، ويطلب من زوجته المحجبة نزع حجابها، إذ يراه مظهرًا من مظاهر التخلف، وسببًا من أسباب

تعاسة الأمة، غير أن زوجته تخالفه الرأى، وتصر على بقاء الحجاب، فقد أصبح الحجاب فى عقيدتهـا وفكرهـا مطلبًـا شـرعيًا ومعلمًـا مـن مواضعـات المجتمـع وتقاليده، ومضى الزوج فى إصراره وإلحاحه وإيهام زوجته بأن حرية المرأة هـى التى حققت للمجتمع الأوربى السعادة والتقدم .. الأمر الذى مكنه -بعد جهد شاق- من التأثير فيها وإقناعها برأيه، ثـم ينقـل المؤلـف فـى تلـك الأقصوصـة الانعكاسات السلبية لتحرير المرأة وتخليها عن النقاب، حيث نرى هـذه الزوجـة وقد تحولت إلى بغى تخون زوجها مع أقرب رفاقه. والأقصوصة -كما تـرى- تجسد خطورة السفور وكيف يسقط بالمرأة المسلمة إلى الهاويـة. أمـا أقصوصـة "الهاوية" فتتناول زوجًا أسرف فى شرب الخمر ولعـب الميسـر، وهجـر زوجتـه وأبناءه، وباتت زوجتـه تتوسـل إليـه أن يعـود إلى منزلـه وأسـرته، ولكـن حيـاة الملذات أفقدته وعيه فلم يستجب لنصائحها وتوسلاتها، ومما زاد الطين بلة أنـه أخذ يدعو أصدقاء السوء إلى بيته، وكم حاول هؤلاء الرفاق الاعتداء على عفة امرأته وشرفها، فتتخلص منهم بـالهروب وكـان مـن الطبيعى أن يفقـد الـزوج ثروته، ويفصل من وظيفته، ومع هذا فإن الزوجة الحـامل ظلـت واقفـة بجانبـه، وكانت معه كالأم الحنون بلسم جـراح ونبـع عطـف. وواضـح أن ثمة خيطًـا يربط بين الأقصوصتين، ففى "الحجاب" نرى الزوج الذى بهرته الحياة الأوربيـة يأمر زوجته بالتخلص من الحجاب الذى كان يرى فيه عاملاً من عوامل جهـل الأمة وتأخرها، ويكتشف -فى النهاية- أنه قذف بها إلى القاع والهاوية. وفى أقصوصة "الهاوية" نجد الزوج الذى انهمك فى حياة الملذات والانحـراف تقـوده هذه الحياة إلى التهلكة وتدفع بزوجته وطفلته حديثة الولادة إلى اللحـد فيصـاب بلوثة ويلقى به فى مستشفى الأمراض النفسية والعصبية.

ومن القصص الإسلامية القصيرة أيضًا : قصة لطاهر لاشين بعنوان "بيت الطاعة" تناول فيها قضية خطيرة هى قضية الطلاق وما يترتب عليها من انهدام أركان الأسرة، ووقوف الزوجين أمام القضاة فى المحاكم الشرعية، وقصة لإبراهيم عاصى عنوانها "فى الطريق إلى العاصمة" قدم فيها المؤلف صورة عن القوى التى تحكم هذا العصر "المال والخمرة والنساء" ومن خلال عرضها نرى كيف يخضع لهذا السلطان الخسيس كثير من الناس، يتساقطون ويضيع الحق ويصرع الشرفاء ويمضى الشياطين ليتحكموا بالناس والمصائر.

فكل ما تقدم من شواهد يؤكد ما قررته آنفًا حين ذكرت أن التيار الإسلامى فى القصة قد أفرز كمًا هائلاً من الروايات والقصص المطبوعة بالطابع الإسلامى.

وأحب قبل أن أغادر هذا الموضوع إلى غيره أن أذكر جوانب أخرى تزيد الأمر وضوحًا وتأكيدًا.

الأمر الأول : أن هناك فحولاً من كتاب القصة فى العصر الحديث غلب على نتاجهم القصصى الطابع الإسلامى، فكانوا -بحق- من أقطاب القصة الإسلامية وروادها، وحسبى أن أذكر منهم هنا : المرحوم عبد الحميد جودة السحار، والمرحوم نجيب الكيلانى.

فالأول قد اتجه فى إبداعه القصصى اتجاهًا مباشرًا إلى "الإسلامية" فكرًا ومنهجًا، وظلت الإسلامية على امتداد عمره الأدبى تمثل خطًا فكريًا واضح المعالم، وإن اختلفت أشكال التعبير وتعددت ألوانه، فقد قدم للمكتبة الإسلامية أعمالاً عديدة تتصل فى أغلبها بالإسلام تاريخًا وبحياة سيدنا محمد ﷺ سيرة ومثلاً، وبحياة أعلام صحابته قدوة واقتداء، على أن الخط الإسلامى قد برز أيضًا فى أعماله القصصية ذات الطابع الاجتماعى.

ومن هذا النتاج القصصى الإسلامى : "أبو ذر الغفارى" و"بلال مؤذن الرسول" و"سعد بن أبى وقاص" و"أبناء أبى بكر" و"أهل بيت النبى" و"حياة الحسين" و"عمر بن عبد العزيز" وفيها تناول حياة هؤلاء الأعلام بالوصف والتحليل، مبرزًا دورهم البطولى فى الكفاح من أجل رفعة الدعوة الإسلامية، وما صادفهم فى سبيل ذلك من صعاب وعقبات، وفى الوقت نفسه أبرز القيم الإسلامية الأصيلة والمثل التى جاء بها الدين، وفيها يكمن الخير ويتجدد صلاح المجتمعات، كل ذلك فى أسلوب فنى بديع يستخدم قالب القصة فى بلورة ما شاء من أفكار دون الاعتداء على موثوق الأخبار فيما سجله التاريخ. على أن السحار قد قدم لنا أكبر إنجاز فنى يكفى قيامه وحده دليلاً على أنه أحد أقطاب القصة الإسلامية فى هذا العصر، وقد تمثل ذلك فى السيرة النبوية التى صدرت فى عشرين جزءًا على مدى ما يقرب من ست سنوات، وتناولت حقبة من التاريخ القديم تبدأ من حياة إبراهيم عليه السلام، وتستمر فى تواصلها مرورًا بإسماعيل وهاجر وأبناء إسماعيل، فإذا وصل إلى مولد الرسول محمد ﷺ تناول سيرته العطرة بالكشف والإبانة والتحليل فى كل فصل من فصولها، على نمط خاص ومن منظور محدد، ويظل فى حركته الراصدة إلى وفاة النبى وما تلاها من خلافة الصديق أبى بكر رضى الله عنه وجهاده فى حرب المرتدين، مستعرضًا من خلال ذلك كله صور الكفاح الدينى والبطولة الفذة فى مواجهة زيف الشرك وفساد الطغيان، ومبرزًا دور الإسلام فى تغيير المفاهيم الشركية، وبث القيم الجديدة التى جاء بها من أجل رفعة البشر جميعًا، مستخدمًا نفس القالب القصصى الذى استخدمه قبل ذلك فيما عالج من سير الأعلام. وزيادة على كل ما تقدم فإن السحار قد تناول الحياة الدينية فى مجموعات قصصية ذات مستوى خاص، يتناسب مع مدارك الأطفال ودرجة نموهم وتفكيرهم،

هادفًا إلى غاية تهذيبية، وخطة تعليمية، فقدم للأطفال قصص الأنبياء فى ثمانى عشرة قصة، وقصص السيرة النبوية فى أربع وعشرين قصة، وقصص الخلفاء الراشدين فى عشرين قصة، والعرب فى أوربا فى أربع وعشرين قصة، تناول فيها جميعًا بالعرض المشرق الوضاح جوانب مختلفة من حياة البشرية وتطورها وموقفها من دعوات الرسل، كما تناول حياة الراشدين وجهادهم وحبهم للدين ... إلى غير ذلك مما تعرض له فى أسلوب سهل ولفظ رشيق مستخدمًا وسائله الفنية فى القصص والحكاية. على أنه قدم للمكتبة الإسلامية قصة بعنوان "أميرة قرطبة" توجه بها إلى التاريخ الإسلامى فى بلاد الأندلس ليؤكد ولاءه القومى للذاتية العربية الإسلامية. وعلى مستوى آخر من الأداء قدم السحار إلى المكتبة الإسلامية قصة عن "المسيح عيسى بن مريم" مبرزًا من خلال عرضه لحياته ودعوته وجهة النظر الإسلامية فى كل ما يتصل بالمسيح عليه السلام، فى مواجهة زيف التصورات الخاطئة التى أحاطت به وبالمسيحية كدعوة سماوية استهدفت هداية بنى إسرائيل فى زمانها، وانتهت وظيفتها بظهور الدعوة المحمدية الخاتمة. وهذا الحشد الهائل من الأعمال القصصية الإسلامية إن دل على شيء فإنما يدل على صدق المنزع الدينى وأصالته فى أدب السحار، وجدارته بأن يكون حقًا قطبًا كبيرًا من أقطاب القصة الإسلامية.

وأما المرحوم نجيب الكيلانى : فقد قدم من خلال قصصه التاريخية والاجتماعية رؤية إسلامية بينة القسمات تجعله يتبوأ مكانة عظمى بين مبدعى هذا الاتجاه، وتمتد على خريطة الزمان ولوجًا فى الماضى، واحتضانًا لمشاكل الحاضر. فقد قدم للمكتبة الإسلامية روايته "نور الله" وهى أطول رواياته، وتدور أحداثها فى عصر النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وتصور الصراع

الدامى الذى خاضته الدعوة الإسلامية فى مواجهة أعدائها من اليهود والمنافقين. وقدم روايته "قاتل حمزة" معالجًا من خلالها مفهوم الحرية، نافذًا إلى أعماق نفس بطل الرواية، ليصور لنا المعاناة الشديدة التى عاناها "وحشى ابن حرب" قاتل "حمزة بن عبد المطلب" وقدم روايته "اليوم الموعود" مقتبسًا عنوانها من القرآن الكريم، مصورًا من خلالها الحملة الصليبية السابعة على مصر المحروسة، وهى من أولى الروايات التى كتبها فى بداية حياته الأدبية. وقدم روايته "رمضان حبيبى" التى كشف من خلالها عن سر انتصارنا على إسرائيل فى حرب العاشر من رمضان، مبينًا أن سبب هذا الانتصار هو العودة إلى الله، كما أن البعد عند شرع الله كان سبب النكسة والضياع فى حرب ١٩٦٧م. وقدم روايته "عمالقة الشمال" متحدثًا فيها عن نيجيريا إبان محاولة الانفصال التى قادها "أوجوكو" لفصل "بيافرا" عن دولة نيجيريا أكبر دولة للإسلام فى إفريقيا، وقد عرض حركة الانقلاب ومحاولة انفصال "بيافرا" لا على أنهما حركتان سياسيتان فحسب، بل على أنهما جزء من مؤامرة كبرى ضد الإسلام، تحركها أصابع التبشير النصرانى، والاحتلال الأجنبى. وقدم روايته "رحلة إلى الله" التى تناولت جوانب متعددة من تاريخ حركة الإخوان المسلمين، وبخاصة ما يتصل بالاضطهاد الذى لقيته. وقدم روايته "عذراء جاكرتا" متناولاً موضوع الانقلاب الشيوعى الذى حدث فى إندونيسيا عام ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥م، وهو الانقلاب الذى أخفق فى أيامه الأولى لينقذ الله تعالى إندونيسيا المسلمة من أنياب الشيوعية الملحدة الحاقدة. وقدم روايته "الظل الأسود" التى صور فيها استيلاء الإمبراطور "هيلاسلاسى" على الحكم فى الحبشة إثر مقتل الإمبراطور المسلم "أياسو" الذى أخفق حين تعجل فى إعلان إسلامه، وسمح بإقامة مسجد لوفد المسلمين الذين اجتمعوا به، قبل

أن يعد للأمر عدته، ويقضى على نفـوذ الكنيسـة، أو يقلـم مـن أظفارهـا علـى الأقل. وقدم لنا الكيلانى روايتـه "عمـر يظهـر فـى القـدس" التـى تنـاول فيهـا موضوعًا طريفًا وفريدًا فيه جرأة ووضوح، مما يجعلهـا تجربـة فريـدة فـى الأدب الإسلامى المعاصر، إذ مزج فيها بين الماضى والحاضر، بـل وصـل بينهمـا حتـى جعلهما موضوعًا واحدًا يدور حول النكسة التى أصابت العالم الإسـلامى عـام ١٩٦٧م عندما احتلت الصهيونية أراضى إسلامية عربية جديدة واستولت علـى القدس وعلى المسجد الأقصى أولى القبلتـين وثـالث الحرمـين، وفـى هـذا الجـو الخانق، فى مرحلة التمـزق والـذل والقلـق يعـرض المؤلـف مـن خـلال الروايـة للأسباب الحقيقية لكل ما أصاب العالم الإسلامى من أزمات ونكبات، ويعطينا صورة واضحة المعالم عن الأثر الذى تركته هذه النكسـة فـى نفـوس المسـلمين، ويوضح المؤلف كيـف ظهـر أمير المؤمنـين عمـر بـن الخطـاب -فـى هـذا الجـو المأساوى المهيمن على العالم العربى، بل العالم الإسلامى على مستوى الأحداث ليكشف لنا حقيقة الصراع القائم فى عصرنا، وأسباب الهزيمة التـى ظلـت تخيـم على أرض المسلمين ما يقارب القرن، وآخرها هذه الهزيمة.

وعلى هذا النحو من الصبغة الإسلامية الملموسة فـى أعمـال الكيلانـى القصصية جاءت رواياته : "طلائع الفجر" و"رأس الشيطان" و"الطريق الطويل" و"فـى الظـلام" و"الذيـن يحـترقون" و"دم لفطـير صهيـون" و"ليـالى تركسـتان" و"مواكب الأحرار" و"النداء الخـالد". إلى غـير ذلـك ممـا أصـدر مـن روايـات وقصص قصيرة تنهض جميعها لتمثل التيار الإسلامى فى أدبه القصصى، وتؤكـد أنه قطب ورائد من أقطاب القصة الإسلامية المعاصرة.

والأمر الثانى من الأمور التى أفصحت عن رغبتى فى تناولها هنا : هـو أن الطابع الإسلامى فى القصة الحديثة لا يقتصر فحسب على ما سبق التمثيـل

له، وإنما يتجلى هذا الطابع أيضًا فى القصص التى لا تستمد كل مادتها من الإسلام تاريخًا وواقعًا، حيث يشتمل كثير من هذه القصص على شخصيات دينية تقوم بعمل إسلامى كشخصية الإمام والمأذون والداعية والفقيه، وقارئ القرآن ومعلمه وما شابه ذلك. ومن هذه القصص -مثلاً- قصة "عرس الزين" للكاتب السودانى الطيب صالح، وفيها شخصية الإمام. وقصة "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، وفيها شخصية الشيخ الجنيدى، وقصة "هارب من الأيام" لثروت أباظة التى تناولت شخصية المأذون، وغيرها. وتشتمل بعض القصص على شخصيات إسلامية سوية ملتزمة تمثل شخصية المسلم المتدين الذى يقوم بالواجبات الدينية، ويلتزم بأوامر الله، ويبتعد عن نواهيه، ويشارك فى تحقيق المجتمع الإسلامى المنشود، كما نجد فى قصة "السهول البيض" لعبد الحميد جودة السحار، وفيها شخصية "الشيخ حسن" الشاب المتدين الذى شارك فى صد العدوان الثلاثى على مصر. وقصة "بان الصبح" للأديب الجزائرى "عبد الحميد بن هدوقة" وفيها نجد شخصية "الشيخ علاوة" تمثل المسلم الملتزم. وقصة "دفنا الماضى" للأديب المغربى عبد الكريم غلاب، حيث نجد فيها شخصية الحاج محمد التهامى الذى يمثل المسلم الملتزم.

أمر ثالث أود الحديث عنه هو : أن القصة الإسلامية فى الأدب الحديث لم تكن نثرًا فحسب، وإنما جاءت أيضًا مرتدية حلة الشعر، على النحو الذى نراه مثلاً لا حصرًا فى قصيدة "آية العفاف" لإسماعيل صبرى، وقصيدة "شهيدة العفاف" لأحمد محرم، وقصيدة "الفقيه الأعمى" لأحمد نسيم، وقصيدة "رعاية الأطفال" لحافظ إبراهيم، وقصيدة "غرفة الأحزان" للشاعر عبد العزيز عتيق، وقصيدة "الأرملة المرضعة" للشاعر العراقى معروف الرصافى، وقصيدة "فجر فى موستار" للدكتور عدنان على رضا النحوى.

أمر أخير أود الحديث عنه أيضًا هو : أن بعض القصص ذات المضمون الإسلامى فى العصر الحديث قد جاءت متأثرة بالتغييرات الواسعة التى أحدثتها ثورة ٢٣ من يوليو عام ١٩٥٢م فى مصر، والتى اتسعت لتشمل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية.. الأمر الذى نجم عنه اكتساب الفكر الإسلامى لرؤية جديدة تشكلت أبعادها من فلسفة الفكر الثورى وفلسفة التفكير السياسى عند زعماء هذه الثورة، وانعكس ذلك على بعض القصص الإسلامية التى كتبها أصحابها فى هذا الجو المهيمن على الساحة وقتئذ. وقد ظهرت بوادر هذا الاتجاه فى قصة "الثائر الأعظم" التى كتبها فتحى رضوان ونشرها عام ١٩٥٤، فى قالب أشبه بالقالب الروائى، وقد كان عنصر الثورية فى شخصية الرسول محمد ﷺ يبدو فى عنوان الكتاب أكثر مما يبدو فى مضمونه، وقد حاول الكاتب أن يضعه فى إطار سياسى، وربما كان المغزى الذى كان يهدف المؤلف إلى إبرازه، ويحاول التأكيد عليه : هو حداثة سن أصحاب النبى ﷺ وأبطال الإسلام حينما اعتنقوا هذا الدين الجديد، وقد كانت تلك محاولة من المؤلف للربط بين شباب الضباط الأحرار فى مجلس قيادة الثورة وبين شباب العرب الذين التفوا حول الرسول ﷺ وأسقطوا النظام الوثنى الراسخ فى ذلك العهد. وتعد قصة "محمد رسول الحرية" لعبد الرحمن الشرقاوى من الناحية الفكرية والفنية أكبر المحاولات دليلاً على صدق ما بينا فهى كما قدمها مؤلفها «قصة إنسان رائع البطولة، فاضل على الرغم من كل الظروف ضد القوى الغاشمة المفترسة، ومن أجل الإخاء البشرى، ومن أجل العدالة والحرية، وكبرياء القلب المعذب، ومن أجل الحب والرحمة ومستقبل أفضل للناس جميعًا بلا استثناء. الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون» وهى أيضًا

«قصة صراع يدافع فيه الأغنياء عن وجودهم والفقـراء عـن حقهـم فـى الحيـاة الكريمة وأحلامهم فى عالم أفضل» والكاتب بهذا التصور، وبهذه الرؤية يركـز على المظهر غير الدينـى للرسـالة المحمديـة، ولـذا فـإن عملـه هـذا يصبـح أكـثر التفسيرات علمانية للشخصية المحمدية فى الأدب الحديث.

رابعًا : الفن المسرحى

المسرحية -فى أبسط تعريفاتها- رواية مبنية على حدث واقع أو متخيل قريب من الإمكان يمثلها طائفة من الناس، وتتميز عن القصة باعتمادها على أسلوب الحوار بصفة أساسية. أو بتعبير آخر : مشاهد وفصول استمدت أحداثها من التاريخ أو الواقع أو الخيال، متسلسلة فى نطاق حادثة محدودة المكان والزمان والعمل. وهى تتطلب خيالاً يخلق الأحداث والشخصيات، ويتصور المواقف وما توحى به من حوار وما يتخللها من صراع.

ويرى أغلب النقاد أن المسرحية فن غربى وافد، نشأ أول ما نشأ عند الإغريق فى رحاب آلهة الأولمب الكثيرة التى اخترعها اليونانيون اختراعًا، وجعلوا بينها وبين البشر من الحروب والصراع والحيل والخدع ما اضطرم فى نفوسهم البشرية وما طاب لهم أن يتمثلوه.

وجاء زمن اندثر فيه فن المسرح حتى بعث من جديد مع بداية عصر النهضة فى أوربا فى مسرحيات أخلاقية تعليمية وعظية، كانت تلقى وتمثل وتنشد فى رحاب الكنيسة.

وظل فن المسرح ينمو ويتطور حتى رأينا فيه من العمالقة الغربيين : إيسن و كورنى وشكسبير وموليير وبريخت وغيرهم.

وقد انتقل فن المسرح إلى البيئة العربية فى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، واستطاع أن ينمو ويتطور فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر على أيدى أبى خليل القبانى ومارون نقاش ويعقوب صنوع وفرح أنطون ونخلة قلفاط وعلى أنور وغيرهم من الكتاب العرب حتى رأينا هذا الفن الجديد الوافد يبلغ شأوًا عاليًا فى القرن العشرين على أيدى أحمد شوقى وعزيز

أباظة وتوفيق الحكيم ومحمد فريد أبى حديد وإبراهيم رمزى وعلى أحمد باكثير وعدنان مردم وعبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور وفاروق جويدة وغيرهم.

ونحن لا نريد فى هذه الدراسة أن نتحدث عن سائر أنواع الفن المسرحى فى الأدب العربى الحديث؛ بل نريد الوقوف عند المسرحيات الإسلامية أو التيار الإسلامى فى الفن المسرحى الحديث.

وأعتقد أنه ليست هناك غرابة فى أن يكون للإسلام ولأصحاب التيار الإسلامى وجود فى هذا المجال، فالمسرحيات القديمة قد نشأت فى أحضان الدين وفى جو الاحتفالات الدينية خاصة عند الفراعنة الذين هم الآباء الأول لفن المسرح الذى كانت أرضهم مهدًا له، وعنهم أخذه الإغريق، وارتقوا به إلى أن وصل إلى صورة مكتملة، وحتى بعد اندثار الحضارتين اليونانية والرومانية ومجيىء العصر الوسيط لم يلبث المسرح أن انبعث على يد رجال الدين، وصارت مراسم القداس الدينية فى الملة المسيحية المصدر الذى بعث الفن التمثيلى القديم الذى حاربته الكنيسة بضعة قرون.

ويقصد بالمسرحيات الإسلامية : تلك التى ترتبط فى جوها العام والخاص بفكرة أو موضوع أو قضية من الأفكار والموضوعات والقضايا ذات الصبغة الإسلامية، لتؤكد على قيمة من القيم أو تعرض صفحة مشرقة من التاريخ الإسلامى، سواء تم هذا من خلال الشخصية التاريخية أو الواقعية الحاضرة أو العصرية المتخيلة.

ويكتشف الدارس المتتبع لتلك المسرحيات فى الأدب العربى الحديث أنها تناولت بعض قصص الأنبياء والمرسلين، وشخصيات إسلامية، وأحداثًا إسلامية واقعية أو متخيلة.

كذلك يكتشف الدارس أن التيار الإسلامى المسرحى فى هذا الأدب قد شق طريقه كالفن القصصى بقوة واقتدار ليثبت وجوده بين التيارات الأخرى. وهناك كم هائل من روائع هذا التيار منه -مثلاً- مسرحية "صلاح الدين" التى قدمتها فرقة "سلامة حجازى" بعد ظهورها سنة ١٣٢٣هـ، ومسرحية "فتح الأندلس" التى ألفها مصطفى كامل وهو طالب بالحقوق سنة ١٨٩٢م، ومسرحية لمؤلف مجهول وضعت فى عهد الخديو عباس بعنوان "يوسف الصديق"، وقد استمدها مؤلفها من ألفها إلى يائها من أصلها السماوى المعروف، وقد طبعت طبعة ثانية وبقى مؤلفها مجهولاً حتى اليوم، وأغلب الظن أنه أخفى اسمه خوفًا من التقاليد السائدة التى كان لها سطوة، و لم يخف اسمه خوفًا من بطش السلطات لأنه ختم المسرحية بتمجيد الخديو عباس والدعاء له. ويغلب على الظن -أيضًا- أن المؤلف كتب هذه المسرحية فى تلك الفترة ليومئ بها إلى وضع معين، كأن ينبه الخديو إلى ما ينبغى اتخاذه من عمل بصدد الوضع الاقتصادى لمصر وقتئذ، إذ أن البلاد كانت فى ذلك الوقت تعانى من تدهور الحالة الاقتصادية .. الأمر الذى يستدعى مشورة يوسف التى خدمت اقتصاد ملك مصر حين أهابت به أن يجلب خير السنين السبع السمان ليقيم بها أود السنين السبع العجاف. و لعل مما يقوى هذا الظن أن الأدباء يلتفتون دائمًا إلى مشورة يوسف الواردة فى السورة المسماة باسمه فى القرآن حين يتحدثون عن تدهور الأوضاع الاقتصادية، وخذ لذلك مثلاً من قول شوقى مصورًا الأزمة الاقتصادية التى ألمت بمصر بعد ثورة ١٩١٩م، و لم يكن لها أمين على الأموال ومدير للاقتصاد كيوسف عليه السلام :

أمن حرب البسوس إلى غلاء ... يكاد يعيدها سبعا صعابا

وهل فى القوم "يوسف" يتقيها ... ويحسن حسبة ويرى صوابا ؟!

ومثلاً آخر من قول الشاعر الجزائرى محمد العيد واصفًا الحياة الاقتصادية للجزائريين تحت وطأة الاحتلال الفرنسى :

فشا الجوع واشتد عسر المعاش وعادت سنو يوسف الغابرة

ومن المسرحيات الإسلامية أيضًا : مسرحية بعنوان "على أسوار دمشق" للدكتور نجيب الكيلانى، وتتألف من خمسة فصول كتبها أثناء وجوده فى السجن، ويدور موضوعها حول مرحلة غزو التتار لبلاد المسلمين، ووقوفهم على أسوار دمشق، وقد حاول المؤلف من خلالها أن يقدم شخصية العالم المسلم المجاهد الإمام "ابن تيمية" وجهوده فى إيقاظ المسلمين، وإعدادهم للمعركة الحاسمة مع أعداء الله، وكيف انتصر المسلمون عليهم بعد ذلك انتصارًا مؤزرًا.

ومن المسرحيات الإسلامية : مسرحية عن أم المؤمنين السيدة "خديجة بنت خويلد" رضى الله عنها، ألفها عبد الحكيم محمد سرور، وتدور المسرحية حول ما قامت به السيدة خديجة من مساندة للرسول ﷺ ومعاضدته فى الدعوة إلى الله تعالى، فهى أنموذج فاضل من نماذج أصحاب العقيدة السمحة، وأنموذج للأخلاق الكريمة. وتدور كذلك حول بذلها الأموال للدعوة فى سبيل الله، ودعوة النساء إلى الدخول فى دين الله، وجعل بيتها مقرًا له، فرحمها الله من امرأة، ورحمها الله من زوجة، ورحمها الله من داعية.

وهناك مسرحية بعنوان "بلال الحبشى" للدكتور أحمد شوقى الفنجرى، قدم من خلالها معالجة درامية طيبة المستوى لقضية التوحيد التى تعد أهم شىء فى التصور الإسلامى.

وللمؤلف نفسه مسرحية بعنوان "الصحابى المتوج سراقة بن مالك" تدور أحداثها حول حياة هذا الصحابى الجليل، حيث أبرزت لنا حياته فى

الجاهلية وكيف كانت، وحياته فى الإسلام وكيف صارت، وتبين ما بين هذه وتلك من فروق، كما تبرز لنا تأثره بالإسلام وجهاده فى سبيل الله، وتمضى الأحداث مجسمة لنا صورة هذا البطل فى أروع ما تكون، وتصدق نبوءة الرسول ﷺ ويطيح عرش كسرى، ويلبس سراقة تاج كسرى وسواريه.

ولأمير الشعراء أحمد شوقى مسرحية نثرية عنوانها "أميرة الأندلس" تصور بعض الاضطرابات التى تعرضت لها الأندلس فى نهاية عصر ملوك الطوائف، وكفاح "بثينة" بنت "المعتمد بن عباد" من أجل نصرة أبيها ضد الملوك الأسبان، ويشاركها شجاع أديب شطرًا من كفاحها، وتتزوجه فى النهاية وهو "حسون بن أبى الحسن" التاجر بأشبيلية، وكان شوقى قد كتب هذه المسرحية أثناء النفى، لكنه أعاد كتابتها من جديد.

ولأستاذنا المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى مسرحية بعنوان "عدو السلام" تتكون من ثلاثة فصول، ويقصد المؤلف بعدو السلام : الشيطان الذى لا يتخلى عن عداوته للإنسان، وفكرة المسرحية الأساسية تدور حول الصراع بين الحق والباطل أو بين الخير والشر أو بين النور والظلام. وأغلب الأحداث فى المسرحية يقوم على المعلومات والأخبار التاريخية الموجودة فى تفاسير القرآن الكريم وكتب الدين، وهناك جزء قليل يعد من باب الخيال الجانبى الذى لا تضيع معه الحقائق الدينية والتاريخية.

وللأستاذ محمد موفق سليمة مسرحية شعرية بعنوان "النور شع بفكرنا" تدور أحداثها حول ثبات الطلاب الصغار على إيمانهم، وقدرتهم على إقناع المعلم الجديد والمدير بوجود الخالق جل شأنه، وأنه خالق كل شىء، ومن ثم الدخول فى الدين الإسلامى الحنيف.

وللشاعر الجزائرى محمد العيد الخليفة مسرحية شعرية عن "بلال ابن رباح الحبشى" صور فيها ما تعرض له هذا الصحابى الجليل من قهر واضطهاد بعد اعتناقه الإسلام. ويعد اختيار المؤلف لقصة بلال التفاتة موفقة إلى حال الجزائر وما كانت تعانيه -وقت نشر المسرحية- من ظلم وتعذيب وكأنها بلال الصحابى الصابر الذى انتصر فى النهاية على كفار قريش وهكذا سينتصر الشعب الجزائرى على ظلم الفرنسيين.

وهناك مسرحية بعنوان "صمود فى معركة اليرموك" ليحيى بسيونى مصطفى، وفيها يصور صمود المسلمين فى معركة اليرموك، ومسرحية بعنوان "تحت الأسوار" لمحمد على حناوى، وتدور أحداثها حول الحادثة التاريخية التى تم فيها فتح بلاد السند والهند على يد محمد بن القاسم الثقفى، الذى لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره. ومسرحية بعنوان "أبطال المنصورة" نشرها إبراهيم رمزى عام ١٩١٥م، وتناول فيها صفحة مشرقة من انتصارات المسلمين على الصليبيين، هادفًا من وراء هذا إلى إبراز بطولة المسلمين وسماحتهم وانتصارهم بفضل إيمانهم وشجاعتهم دون ميل إلى الخبث والخديعة، ومسرحية للمؤلف ذاته بعنوان "المعتمد بن عباد" اتجه فيها إلى التاريخ الإسلامى فى بلاد الأندلس مبينًا كيف بلغ المعتمد من العز والمنعة ما بلغ، ثم كيف تصالحت عليه الدسائس وكثر حساده ومناوئوه، فتقلب فى فراش الهوان والبؤس ومسرحية بعنوان "جهنم الصغرى" لمصطفى محمود، تهدف إلى تجلية عاقبة الظالمين الخائنين الغدارين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

وهناك مسرحية بعنوان "صقر قريش" لمحمود تيمور، تناول فيها شخصية الفتى الأموى عبد الرحمن الداخل الذى طارده جند العباسيين، فنجا منهم، وعبر البحر إلى الأندلس، ولم تمض إلا سنون قلائل حتى أصبح أمير

الأندلس كلها وسيدها بلا منازع. وقد كتب تيمور هذه المسرحية المستمدة من التاريخ استجابة منه لما كان يدور فى مصر فى أوائل الخمسينيات من جدل سياسى حول الإقطاع والأحزاب ودواعى الفرقة، والحاجة إلى أن يقوم فى البلاد مستبد عادل، يوحد أمورها، ويرفع الشقاق عن بنيها، ويكسب لها دواعى القوة، وينشر فى ربوعها ألوية العدل، فأخذ يبحث فى كتب التاريخ الإسلامى عن بطل يجسد فى سيرته وأعماله هذا الذى كان يدور فى مصر من جدل، فوجد طلبته فى شخصية عبد الرحمن الداخل.

وهناك مسرحية بعنوان "هاروت وماروت" ألفها الكاتب الكبير على أحمد باكثير، وهى مسرحية دينية سياسية تفسر بعض ما جاء فى القصص القديم عن بابل وسبب هلاكها تفسيرًا ارتآه المؤلف، واستخدمه أساسًا لكتابة مسرحية مسلية ومتقدمة الفكر، على أنه قد كتبها فى إطار ما جاء فى القرآن الكريم من أن الله قد جعل الإنسان خليفة له فى الأرض، وقد أدخل باكثير فى المسرحية فكرة الإنسان المتطور الذى سوف يتغلب يومًا ما على شرور نفسه، فيقيم العدل والسلام على الأرض، ويرقى بعلومه حتى ليغزو الأجرام السماوية ويعيش فيها بفضل ما يهديه الله إليه من معرفة.

وهناك مسرحية بعنوان "باب الفتوح" كتبها محمود دياب، وقد جعل نصر صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين فى حطين موضوعًا لها، ثم راح يفتش فى جنبات هذا النصر عن الصانع الحقيقى له : هل هو صلاح الدين وعبقريته وجيوشه، أم هم الجنود المحاربون البسطاء الذين سعوا إلى حماية أهليهم وأراضيهم ومنازلهم من هجمات آل الصليب، دفاعًا عن حاضرهم ومستقبلهم معًا؟ وما هو هذا النصر الذى حققه صلاح الدين للعرب والمسلمين؟ ماذا يفيد الرجل العادى والمرأة العادية منه ؟ وهل هو نصر باق أم

تراه نصرًا هشًا مؤقتًا، لا يفيد منه إلا أتباع صلاح الدين المباشرون، من أمراء وقواد وتجار وموردى نفائس وجوار ؟ المسرحية تحقيق درامى بالغ العذوبة فى هذه الأسئلة التى تثيرها.

ومن المسرحيات الإسلامية : ثنائية "الحسين ثائرًا" و"الحسين شهيدًا" لعبد الرحمن الشرقاوى، وموضوعهما -كما يفصح العنوان- هو الحسين بن على رضى الله عنهما الذى وجد نفسه بعد موت معاوية وأخذه البيعة بالخلافة لابنه يزيد بالقوة من أقطاب المسلمين أمام خيارين لا ثالث لهما : إما الخضوع لما يطلب إليه من مبايعة يزيد، وإما حمل السيف ليحكم بينه وبين هذا الخليفة المفروض على الأمة بالقوة.

ومن هذه المسرحيات : مسرحية شعرية للكاتب السورى ممدوح علوان عنوانها "كيف تركت السيف ؟" عالج فيها حوادث الفتنة أيام سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، وجسد فيها موضوع التهييج السياسى الذى كان يقوم به أبو ذر الغفارى رضى الله عنه فى محاولة إقامة العدل بين الناس، وضمان أن تعطى فضول أموال الأغنياء إلى الفقراء. والمؤلف ينظر فى موضوع هذه المسرحية إلى فكرة كان مقتنعًا بها هى أن أغنياء الجاهلية قد اعتنقوا الإسلام رياء، ورغبة فى تحويله من دعوة إلى دولة، ومن هنا جاءت الفتنة فى عصر عثمان. وللمؤلف مسرحية أخرى بعنوان "ليل العبيد" تناول فيها نفس الفكرة، وعرض موضوع العبيد من أمثال بلال ووحشى وموقفهم من الدعوة المحمدية.

وهناك مسرحية بعنوان "أهل الكهف" نشرها كاتبها المرحوم توفيق الحكيم عام ١٩٣٣م فقوبل صدورها بضجة من كتاب مصر وقادة الأدب فيها، واعتبرها البعض قطعة من الفن الخالص. وقد استمد المؤلف فكرة هذه

المسرحية من القرآن الكريم ومن التفاسير القرآنية التى كتبت له، فمن تفسير النسفى استمد أهل الكهف، ومن تفسير البيضاوى استمد خطوط فكرة المسرحية. وللمؤلف نفسه مسرحية بعنوان "سليمان الحكيم" سار فيها على نهجه فى "أهل الكهف" وكان القرآن الكريم من المصادر التى اتكأ عليها فى بناء هذه المسرحية.

وللشاعر الكبير المرحوم عزيز أباظه الذى يعد مع شوقى من أقطاب الشعر المسرحى فى هذا العصر مسرحيات شعرية إسلامية فى غاية الروعة والإبداع، وهى مستمدة من التاريخ الإسلامى العريق مثل مسرحيته "العباسة" التى تروى قصة الحب الكبير بين العباسة أخت هارون الرشيد وجعفر بن يحكى البرمكى. ومسرحة "الناصر" التى تقع أحداثها فى دولة العرب بالأندلس، وبطلها هو ثانى الخلفاء الأمويين عبد الرحمن الثالث. ومسرحيته "قافلة النور" التى تدور أحداثها فى بلاد الحيرة فى العام السابع للهجرة، وتحكى قصة انتشار الإسلام فى هذه المنطقة سرًا. ومسرحيته "شجرة الدر" التى تقع أحداثها فى عصر الأيوبيين، ومسرحية "غروب الأندلس" التى يشير عنوانها إلى غروب الإسلام فى بلاد الأندلس بعد أن ظل شامخًا ثمانية قرون.

ومن المسرحيات الإسلامية الشعرية أيضًا : مسرحية بعنوان "محمد" لتوفيق الحكيم قدم بها السيرة النبوية العطرة فى شكل حوار مسرحى أخاذ، وقصد ألا يتدخل فى حقائقها التاريخية الأساسية، وكان هدفه متجهًا إلى الفن الأدبى فى تشكيل مادة السيرة فى أساليب المسرحية الحديثة، والمحافظة على أسلوبه الذى حدده لتصوير أحداثها، حتى تحتفظ بأسسها الأولى دون تغير أو تبديل تاركًا الوقائع التاريخية والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة، ولا يتدخل إلا بما لابد منه لتثبيت أطرافها فى إطار دقيق لا يكاد يرى.

وللشاعر محمد محمود زيتون مسرحية كبرى من حوالى ثمانمائة بيت عنوانها "ميلاد النبى" تصور الحالة العامة ببلاد العرب قبيل مولد النبى ﷺ، وما كان فيها من سطوة الأقوياء .. ثم حادث حفر بئر زمزم ... ثم بشرى عبد المطلب بميلاد النبى الكريم واستبشاره بذلك. وللأستاذ محمد يوسف المحجوب مسرحيات فى السيرة النبوية ذات صبغة تعليمية واضحة، وقد كتبها بأسلوب ميسر يصلح للعرض على الناشئين فى حفلات المدارس، وقد نشرت مجزأة بعناوين متباينة مثل "أصحاب الفيل" و"مولد الرسول" و"الهجرة الأولى" و"هجرة الرسول" و"ذات النطاقين" و"يثرب فى انتظار الرسول" و"غزوة بدر" ونحو ذلك.

وللأستاذ فريد عين شوكة مسرحية شعرية بعنوان "إسلام عمر" صور فيها شخصية عمر رضى الله عنه، وكيف اهتدى إلى الإسلام، ووصف القرآن الكريم وتأثيره فى نفسه. وللمؤلف نفسه مسرحية أخرى بعنوان "إسلام حمزة" يصور فيها ما واجهه النبى الكريم من مشقات فى سبيل نشر دعوته، وكيف اهتدى سيدنا حمزة إلى الإسلام، وصار من أكبر أعوانه وأعظمهم قدرًا.

وليس كل ما مضى هو حصادنا من تتبعنا للمسرحية الإسلامية فى الأدب العربى الحديث، وإنما هناك مسرحيات أخرى كثيرة نكتفى بالإشارة إلى عناوين جملة منها مثل : "أسر لويس التاسع" لأحمد بدوى، و"الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز" لأحمد الشرباصى، و"حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ" لإبراهيم سعادة، و"دار ابن لقمان" لعلى أحمد باكثير، و"رفيدة ممرضة الإسلام الأولى" لأحمد الفنجرى، و"الزاهد" لعبد الله بوقس، و"عمر بن الخطاب" لمحمد محمد خليفة، و"يوسف الصديق" و"عالم وطاغية" للشيخ يوسف القرضاوى، و"المغول" و"المأسورون" و"معجزة فى الضفة الغربية" و"رقص فى ليل الطغيان"

للدكتور عماد الدين خليل، و"السابقون إلى الإسلام" و"شروق السلام فى مصر" و"الصحابية الفارسة : خولة بنت الأزور" لأحمد شوقى الفنجرى، و"ملحمة عمر" و"من فوق سبع سماوات" و"الشيماء شادية الإسلام" و"التوراة الضائعة" و"إله إسرائيل" و"الدودة والثعبان" لعلى أحمد باكثير. و"سيف الله خالد بن الوليد" لمحمد العروسى المطوى، و"الطريق إلى الله" لسليمان مظهر، و"على بن أبى طالب" لعبد السلام العشرى، و"منطلق الإسلام" و"فى سبيل الإسلام" لأحمد أبى عقيل، و"أعراس الشهادة فى موسم الشنق" لمحمد المنتصر الريسونى، و"الزعيم" للدكتور مصطفى محمود، و"الوزير العاشق" و"دماء على ستار الكعبة" لفاروق جويدة، و"تضحية وفداء" للحسينى شعبان المهدى، و"ثورة الزنج" للشاعر الفلسطينى معين بسيسو، و"العدل أساس الملك" و"الحق يعلو" للكاتب الفلسطينى نصر الجوزى و"خالد بن الوليد" لعامر بحيرى، و"أسماء بنت الصديق" و"فى سبيل الوطن" لإبراهيم محمد نجا، و"المروءة المقنعة" و"النصر لمصر" لمحمود غنيم.

وبعد : فأعتقد أن هذا الكم الهائل الذى سردناه من المسرحيات الإسلامية يؤكد ما قررناه آنفًا من أن التيار الإسلامى فى المجال المسرحى قد شق طريقه بقوة واقتدار وأثبت وجوده بين التيارات الأدبية المسرحية الأخرى فى العصر الحديث.

خامساً : فن المقال الأدبى الإسلامى

يعد فن المقال كالفن القصصى من أخطر ألوان النثر الفنى فى التأثير على المتلقى، لسهولته ويسره وقربه وذيوعه وسرعة انتشاره، وتناسبه مع ظروف العصر وضغوط الحياة المختلفة، مما لا يسمح بقراءة الكتاب والموسوعة، فيكتفى بتتبع المقالات وقراءتها أولى من الحرمان، فما لا يدرك كله لا يترك كله كما يقولون.

وفن المقال فن جديد من فنون النثر الأدبى فى العصر الحديث، وإن كانت له جذور فى تراثنا القديم تتمثل فى رسائل عبد الحميد الكاتب والجاحظ، وإخوان الصفا، وابن العميد، والعماد الأصفهانى، والخوارزمى، والقاضى الفاضل، وغيرهم ممن كانت لهم رسائل وكتابات تتلاقى مع المقالة الحديثة فى إطارها العام، سواء فى موضوعها أو فى أسلوب الأداء.

والمقال من النثر كالقصيدة من الشعر، إذ هو قالب فنى مؤثر يكتب نثرًا، ويعرض فيه كاتبه موضوعًا ما مسلسلاً مترابطًا ليعالجه، فيقدم فيه رأيًا أو يرسم صورة أو يقرر فكرة أو نحو ذلك، وينقلها إلى القارئ فى صورة أدبية ممتعة مؤثرة، ويقوم غالبًا على فن الإيجاز والقصد فى التعبير.

وقد ازدهر هذا النوع من الكتابة فى فترة ازدهار النهضة الحديثة وشيوع الصحف والمجلات فيها، وكثرة أرباب القلم والأساليب الأدبية الرفيعة من أمثال الدكتور طه حسين، ومصطفى صادق الرافعى، وأحمد حسن الزيات، وعباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازنى، والدكتور محمد حسين هيكل، ومصطفى لطفى المنفلوطى ... وغيرهم كثير.

والمقال فى موضوعاته يتسع لكل نشاط إنسانى يصوره الأديب، سواء تمثل هذا النشاط فى الفكر، أو العاطفة والوجدان، أو التأمل، أو الثقافة، أو شئون المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية.

وغايتنا هنا أن نتحدث عن المقالة الإسلامية التى تصور موضوعًا إسلاميًا بأسلوب فنى قائم على الإيجاز والتركيز والتنسيق فى المعانى والألفاظ والصور والإيقاع وغيرها من وسائل التصوير الأدبى المؤثر المقنع. فقد تبوأت هذه المقالات درجتها اللائقة بها بين بقية أنواع المقالات، ولو حاول إنسان أن يجمعها من بطون الصحف والمجلات لتجمعت عنده أسفار ضخمة تعجز رفوف المكتبات عن استيعابها. ومما لا شك فيه أن هذا الكم الهائل منها يثبت أن التيار الإسلامى قد فرض وجوده فى كل مجال من مجالات الأدب الحديث.

ويمكن تقسيم المقالات الإسلامية الحديثة إلى نهرين عظيمين، أولهما : يتمثل فى تلك المقالات الإسلامية التى تناول فيها كتابها موضوعات تتصل بالإسلام عقيدة وشريعة وقيمًا وأخلاقًا وفكرًا وتاريخًا وحضارة وتراثًا، أو تتصل بالقضايا الإسلامية التى احتدم حولها الحوار فى هذا العصر، كقضية السفور والحجاب، والدفاع عن الفصحى لغة القرآن والسنة، ومحاربة القيم الدخيلة الهدامة، ونحو ذلك من القضايا المتصلة بالإسلام والمسلمين هنا وهناك. وأما النهر الثانى من المقالات الإسلامية فيتمثل فى تلك المقالات التى دبجها أربابها حول الأدب الإسلامى نفسه.

فمن شواهد الضرب الأول : المقالات الإسلامية للرافعى، وطه حسين، والزيات، والمنفلوطى، والعقاد، ونحوهم ... على شاكلة ما كتبه المرحوم أحمد حسن الزيات عن البلاغة المحمدية فى مقال له بمجلة الأزهر (عدد جمادى الآخرة ١٣٨٣ هـ / نوفمبر ١٩٦٣م) نقتبس منه تلك السطور ... قال تحت عنوان (أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش) : «كلمة قالها من لا ينطق عن الهوى، ولا يقول على الله ولا على نفسه غير الحق، فماذا يقول الكاتب الإنسان بعد هذا القول فى بلاغة هى من صنع الله ؟ وما كان من صنع الله

تضيق موازين الناس عن وزنه، وتقصر مقاييسهم عن قياسه، فنحن لا ندرك كنهه، وإنما ندرك أثره، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره. هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ؟ وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة ؟ إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية، وإذا كان كلام الله هو كتاب البيان المعجز، فإن كلام الرسول هو سنة هذا البيان، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول، فإن البلاغة صفة محمد وحده ... تجمعت فيه صلوات الله عليه خصائص البلاغة بالفطرة، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ... لذلك قال –وقوله الحق– : (أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش، ونشأت فى بنى سعد بن بكر) وقد قال له صاحبه أبو بكر : (لقد طفت فى بلاد العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أحسن منك، فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى) ومن أولى بذلك كله ممن يخاطبه الله تعالى بقوله : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى : الأصالة والإيجاز».

ومن شواهد الضرب الثانى : مقال بعنوان (أثر القرآن فى شعر حسان) لعبد الهادى صافى فى مجلة الوعى الإسلامى (عدد المحرم ١٤٠٧ هـ) ومقال بعنوان (الأدب الإسلامى ربيع للأدب العربى) لمحمد سعيد المجدوى فى مجلة (البعث الإسلامى) عدد جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ، ومقال بعنوان (الأدب الإسلامى فطرة إنسانية) لعبد الرحيم الرحمونى فى مجلة (منار الإسلام) عدد ذى القعدة ١٤٠٩هـ، ومقال بعنوان (الأدب الإسلامى المقارن : ضرورة حضارية) لجمال سلطان فى مجلة (الوعى الإسلامى) عدد ربيع الأول ١٤٠٩ هـ، ومقال

بعنوان (الأدب الإسلامى واقع ماثل لا يحتمل الاعتراض أو التحاور) للدكتور إبراهيم عوضين فى (مجلة الدعوة السعودية) عدد جمادى الأولى ١٤٠٨هـ، ومقال بعنوان (الأدب وارتباطه بمنهج الإسلام) للدكتور أحمد عمر هاشم فى مجلة (الفيصل) عدد ذى القعدة ١٣٩٨هـ، ومقال بعنوان (الإسلام ومتغيرات الأدب العربى الحديث) للدكتور عبد الباسط بدر فى مجلة (الأمة) عدد ذى الحجة ١٤٠٥هـ، ومقال بعنوان (تراثنا الإسلامى منجم لأدب الأطفال) كتبه محمد عاصم الأفيونى فى مجلة (الوعى الإسلامى) عدد ذى القعدة ١٤٠٥ هـ، ومقال بعنوان (التصور الإسلامى للأدب هو المنطلق للوصول بأدبنا إلى العالمية) كتبته سهيلة زين العابدين حماد فى مجلة (الأدب الإسلامى) عدد ذى الحجة ١٤٠٧ هـ، ومقال بعنوان (حاجتنا إلى أدب إسلامى) كتبه بسيونى الحلوانى فى (المجلة العربية) عدد صفر ١٤٠٦ هـ وغير ذلك كثير، بل كثيرًا جدًا يعجز القلم عن سرده.

وحرى بالذكر : أن لى عددا من المقالات الإسلامية نشرتها فى الصحف والمجلات المصرية والسعودية واحتواها كتابى "حديث المساء" الذى سينشر عما قريب إن شاء الله ..

سادساً: فن الخطابة الإسلامية في العصر الحديث

استكمالاً للحديث عن فنون النثر الأدبي الإسلامي في العصر الحديث فإننا نكتب هذه الكلمة السريعة عن فن الخطابة الإسلامية الذي لا يقل خطراً وأهمية عن الفنون الأخرى في التأثير على المتلقي، بل إنها الفن الأقوى تأثيراً باعتبارها تخاطب الجماهير بالكلام الجيد الذي يقنع العقل ويمتع العاطفة، ويهز النفوس هز الكماة عوالي الرماح.

ومما لا يختلف عليه اثنان أن الخطابة الدينية لم تنقطع في أي عصر من العصور، وقد ازدهرت في عصرنا هذا، وبلغت أوجها، وكثر الخطباء الواعظون، وأصبح الارتجال هو الغالب عليها، ولاسيما الخطباء الذين تخرجوا من الجامعات الإسلامية كجامعة الأزهر العريقة في مصر، والجامعة الإسلامية، وجامعة الإمام، وجامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية ونحو ذلك من الجامعات المنتشرة في بلدان العالم الإسلامي.

ومما لا يختلف عليه اثنان أيضًا : أن الخطابة الدينية تبغيا إثارة المشاعر لفعل الخيرات، وتجنب المنكرات، وتوجيه النفوس إلى النفع والإصلاح والهدى والرشاد. ومن ثم كانت موضوعاتها من أجل الموضوعات الخطابية لما وقر في نفوس السامعين من تبجيل الدين وتقديسه.

ومن الخطباء الذين طبقت شهرتهم الآفاق في هذا المجال نذكر مثلاً لا حصرًا : الشيخ جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ مصطفى القاياتي، والشيخ عبد العزيز جاويش، والشيخ عبد الله النديم، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والإمام محمد بن عبد الوهاب، والدكتور أحمد الشرباصي، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ أحمد حسن الباقوري، والشيخ محمود أبو العيون، والشيخ عبد الحميد كشك، والشيخ محمد متولي الشعراوي، والدكتور أحمد عمر هاشم.

وها هو ذا نص من خطب الإمام محمد بن عبد الوهاب الذى قام بدعوته السلفية فى نجد والحجاز، وعمد إلى إنشاء خطب إسلامية مدبجة بأسلوب أدبى أنيق، وجارية على ما ورد فى السنة المطهرة لتحقق الهدف المنشود .. قال -بعد المقدمة- : «أما بعد : فيا أيها الناس اتقوا الله حق تقواه، وسارعوا إلى مغفرته ورضاه، فقد خلقكم لأمر عظيم، وهيأكم لشأن جسيم، خلقكم لمعرفته وعبادته، وأمركم بتوحيده وطاعته، وجعل لكم ميعادًا تجتمعون فيه للحكم فيكم وفصل القضاء بينكم، فخاب وشقى عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شيء وجنة عرضها السموات والأرض. وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف واتقى، وباع قليلاً بكثير، وفانيًا بباق، وشقوة بسعادة. عباد الله، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين تتقلبون، ويستخلفها بعدكم الباقون. ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله قد انقضى أجله وانقطع عمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا بالتوبة قبل أن يغلق الباب، ويسبل الحجاب»[1].

---

[1] مؤلفاته (ملحق المصنفات، الخطب المنبرية)، ص ١٣.

سابعًا : فن الرسائل الإسلامية

وهذه أيضًا كلمة سريعة عن هذا الفن استكمالاً للحديث، ونعنى بـه : تلك الرسائل التى ينشئها الأديب المسلم، ويبعث بها لآخر فى غرض من الأغراض الدينية. وهذه الرسائل لها جذور تراثية معروفة فى أدبنا القديم كرسالة الفاروق عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء، ورسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز فى صفات الإمام العادل، والرسالة التى أنشأها القاضى الفاضل، وبعثها صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يبشره فيها بفتح بيت المقدس، ويذكر المعارك التى سبقت تحريره وعملية التحرير ... ونحو ذلك من الرسائل القديمة.

وقد تألق نجم هذه الرسائل فى عصرنا الحديث، وأضاءت آفاقها، وارتفع قدرها، وتعددت نماذجها، واحتضنت الصحف والمجلات قطوفًا من ثمار حدائقها وجاءت متسمة بالألفاظ المصطفاة، والعبارات الناصعة، والأساليب الرائعة والأفكار المرتبة الواضحة، على النحو الذى تلمسه مثلاً فى تلك الرسالة التى أرسلها صاحب الفتح السيد محب الدين الخطيب إلى شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم يقترح عليه إبداع ملحمة إسلامية كبرى تخلد أمجاد الإسلام الذى هو أجدر بالتخليد مما قام به رجال فى أمم أخرى بتخليد مآثرهم فى ملاحم كبرى كهوميروس والفردوسى .. قال الخطيب فى رسالته ما نصه :

«كنت هممت غير مرة أن أكتب إليكم أقترح عليكم مشروعًا كنا نحاول إقناع "شوقى" بك رحمه الله به ولكن خشيت أن يصرفكم ذلك عن معانى الجهاد الأخرى، وهذا المشروع هو إرسال نظركم الكريم بين حين وآخر إلى مفاخر التاريخ الإسلامى الخلقية والعمرانية والسياسية والإصلاحية والحربية، ونظم كل مفخرة منها فى قطعة خالدة تنقش فى أفئدة الشباب فإذا ذخر أدبنا

بكثير من هذه القطع على اختلاف أوزانها وقوافيها أمكن بعد ذلك ترتيبها بحسب تاريخ الوقائع وتأليف إلياذة إسلامية من مجموعها. أليس من العار أن يكون للفرس ديوان مفاخر (كالشاهنامة) وأن يكون لليونان ديوان مفاخر (كالإلياذة) والإسلام الذى لم تفتح الإنسانية عينها على أعلى منه مرتبة وأعظم منه محامد يجتهد مؤرخوه فى تشويه صفحاته والحط من قدر رجاله. لأن الذين دونوا تاريخ الإسلام كانوا أحد رجلين : رجل جاء بعد سقوط دولة فتقرب إلى رجال الدولة الجديدة بتسوىء محاسن القديمة، ورجل اتخذ من الشموس الأربعة: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى مثلاً أعلى، فكل قمر من أقمار العرب مذموم عنده موصوف بالضآلة والنقص لأنه لا يراه إلا على نور تلك الشموس التى هى فوق الإنسانية ولا تقاس مواهب البشر بمواهبهم. إنى أخاف أن يقوض المسلمون صرح فضائلهم وأن يهدموا قلاعًا هى دواعى الفخر، بينما أبناؤنا يتعلمون من الأوربيين وصنائعهم تمجيد رجال لو كشف الغطاء عن تاريخهم الحقيقى لشممنا نتنه، مَنْ مِن شبابنا يعرف مسلمة بن عبد الملك كأنه معاصر له، ويعرف قتيبة بن مسلم كأنه مجاهد فى جيشه.

إن الذى قصر فيه المؤرخون لا يستطيع أن يدركه إلا الشعراء، وأكثر شعرائنا مشغولة أقلامهم بجسد المرأة ومصروفة عقولهم عن الخير، وهم يسرقون من دواوين شعراء الإنجليز فليس عندهم وقت لمراجعة دواوين العرب والإسلام، وقراءة ما بين سطوره.

أكثرت عليكم وقد يكون أن اختصك الله بهذا الفضل فألهمنى أن أشغل هذه الصفحات وهذه الدقائق بالإفاضة إليك».

وعلى النحو الذى تراه أيضًا فى الرسالة التى كتبها الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن إلى بعض إخوانه حيث قال :

[سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فنحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو على نعمه وعلى أقداره وحكمه، والخط وصل وصلكم الله ما يرضيه وما ذكرتم صار معلومًا، والله المسئول أن يمن علينا وعليكم عند الوحشة بذكره والإنس بمجالسته وعند ذهاب الإخوان بروح منه وسلطان، والذى أوصيكم به تقوى الله تعالى ومعرفة تفاصيل ذلك على القلوب والجوارح ومعرفة الأحكام الشرعية الدينية عند تغير الزمان وكثرة الفتن وظهور الهرج، وقد ورد «أن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الراجح عند منازعة الشهوات»، وذكر أبو داود وغيره من أهل السنن ما ينبغى مراجعته واستحضاره عند ذكر الفتن والملاحم، وذكر ابن رجب فى رسالته كشف الكربه فى فضل الغربة ما يسلى المؤمن ويعزيه، وذكر ابن القيم رحمه الله فى المدارج جملة صالحة، وفى الأثر : «العبادة فى الهرج كهجرة إلىّ»، وفى حديث الغرباء «للعامل منهم أجر خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ، ولذا أرى لكم فى هذه الخلطة الصبر على مقام الدعوة بالتلطف بالإبلاغ عن نبيكم وهذا مع القدرة وأمن الفتنة أفضل من العزلة، والإقلال من مخالطة الناس لمن أمكنه أسلم، وإنى لأود أن أكون مثل أحدكم فى هذا الزمان، ولكنى ابتليت بالناس وحيل بينى وبين ذلك، والله المستعان؛ وإليه المشتكى وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته].

ثامنًا : فن السيرة الأدبية الإسلامية

وهذه أيضًا كلمة سريعة عن هذا الفن الذى لا يمكننا نسيان الحديث عنه فى هذا الكتاب، والمقصود بالسيرة الأدبية الإسلامية : ذلك الفن الذى يصور فيه الكاتب بأسلوب أدبى رشيق سيرة النبى محمد ﷺ والصحابة والتابعين وسير البارزين من الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة والأبطال المسلمين فى العصور الإسلامية المختلفة. وفن السيرة الإسلامية الأدبية ليس مجرد عرض لحقائق التاريخ ،ولا أدبًا خياليًا محضًا نائيًا عن توثيق الحقائق التاريخية، وإنما هو عرض تاريخى جامع بين سمات الأسلوب العلمى القائم على الحقائق وسمات الأسلوب الأدبى الذى ينتقى من وسائل التعبير والتصوير الفنى ما يبعث الحيوية والقوة والمتعة فى سرد الحقائق التاريخية.

ولقد كانت لهذا الفن جذور فى تراثنا القديم، تتمثل فى كتب السيرة النبوية كسيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام، كما تتمثل فى الكتب المعنية بتاريخ الصحابة ورجال الحديث، وسير الخلفاء، كأسد الغابة فى معرفة الصحابة، وتاريخ الطبرى، والبداية والنهاية لابن الأثير .. وما إلى ذلك.

وقد سبق أن أشرنا إلى شواهد من هذا الفن كحياة محمد، وفى منزل الوحى للدكتور محمد حسين هيكل، وكتاب "على هامش السيرة" لطه حسين، ومجموعة العبقريات التى كتبها العقاد. ونضيف إليها هنا شواهدأخرى مثل كتاب "السيرة النبوية" للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، وكتاب "بين يدى عمر" لخالد محمد خالد، وكتاب "صور من حياة التابعين" لعبد الرحمن الباشا، و"الفداء فى الإسلام" للدكتور الشرباصى.

تاسعًا : أدب الرحلات الإسلامية

وهذا الفن أيضًا لا يمكن أن ينسى، لأنه فن يصور فيه الأديب تجاربه في الحياة التى عاشها مع شعوب الأمة الإسلامية، ومع غيرها فى ضوء عقيدته الإسلامية، ليعطى لقرائه صورًا صادقة لمسها بنفسه عن سماحة الإسلام وحضارته فى التعامل مع الإنسان أيًا كان موقعه، وجنسيته وملته، كما يصور فى رحلاته جهاده فى سبيل الدعوة الإسلامية، وفى طلب العلم وتحصيل الرزق ونشر الدعوة.

ولهذا الفن أيضًا جذور قديمة يغلب عليها التأريخ كرحلات الأدباء الأندلسيين والمغاربة إلى المشرق وهى معروفة مشهورة، وما لنا نذهب بعيدًا وبين أيدينا فى القرآن الكريم أنموذج رائع من هذا الميدان يتمثل فى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، ورحلته إليه فى طلب العلم الذى أنبأه الله به.

أما فى عصرنا الحديث، فقط ظهر فى فن أدبى ممتع، وتصوير فنى مثير، أحيانًا على سبيل السرد والوصف، وحينًا فى إطار قصصى روائى، ومن شواهده الرائعة : "إطلالة على نهاية العالم الجنوبى" لمحمد العبودى، و"أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب" لصلاح الخالدى، و"رحلاتى إلى البلاد الإسلامية" لمحمد الصواف، و"الرحلة إلى المدينة المنورة" للشيخ محمود ياسين، و"الرحلة الحجازية" لمحمد السنوسى، و"صور من الشرق فى أندونيسيا" للشيخ على الطنطاوى، و"مذكرات سائح فى الشرق العربى" للشيخ العلامة أبى الحسن الندوى، ومشاهداتى فى بلاد العنصريين" لمحمد العبودى، و"ذكريات لا تنسى" لمحمد المجذوب ... وما إلى ذلك.

عاشرًا : فن الكتابة والتأليف

وهذا الفن مجاله واسع يتضمن كل ما صنف فى الفكر الإسلامى من تفسير وحديث، وفقه وتشريع، وتوحيد وأخلاق، ووعظ وإرشاد، واقتصاد إسلامى، ونظم إسلامية، وغيرها مما يتصل بالإسلام فكرًا وتشريعًا وقيمًا ولغة.

ومعروف أن هذا الفن يتنوع أسلوبه من كتاب لآخر، فمن المصنفات ما يصاغ بأسلوب علمى صرف هادف إلى التقعيد والتقنين والإقناع العقلى. ومن المصنفات ما يكتب بأسلوب أدبى جميل قائم على بلاغة التعبير، واصطفاء العبارات الموحية، والتصوير الفنى المؤثر، وهذا الضرب ليس جديدًا فى أدبنا -ومثله الأول- وإنما نجده فى تراثنا الإسلامى العريق، على النحو الذى نراه -مثلاً- فى كتابى الإمام عبد القاهر الجرجانى "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وكتاب "إعجاز القرآن" للباقلانى.

ومن شواهده فى العصر الحديث : "النبأ العظيم" و"مدخل إلى القرآن" للشيخ دراز، و"مشاهد القيامة" و"التصوير الفنى فى القرآن" للمرحوم سيد قطب، و"البيان القرآنى" و"البيان النبوى" للدكتور محمد رجب البيومى، وكتابين بالعنوانين نفسيهما للدكتور عبد الجواد المحص، و"تحت راية القرآن" و"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" لمصطفى صادق الرافعى، و"مع كتاب الله" للشرباصى، و"الوصايا العشر" و"إنسانية محمد" و"معجزة الإسلام" لخالد محمد خالد، و"عقيدة المسلم" و"خلق المسلم" للشيخ الغزالى، و"حقائق وأباطيل حول الإسلام" للعقاد، و"القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه" و"القصص القرآنى من العالم المنظور وغير المنظور" لعبد الكريم الخطيب، و"أدب القصة فى القرآن الكريم" و"أباطيل الخصوم حول القصص القرآنى" للدكتور عبد الجواد المحص،

و"القصص فى الحديث النبوى" للدكتور محمد الزير، و"أدب الحديث النبوى" لبكرى شيخ أمين، و"تأملات فى البيان النبوى" للدكتور إبراهيم عوضين و"التصوير الفنى فى الحديث الشريف" لمحمد الصباغ، و"منهج الفن الإسلامى" لمحمد قطب، وغير ذلك كثير .. كثيرًا جدًا.

حادى عشر : الأناشيد الإسلامية المكتوبة للأطفال

وأخيرًا نتحدث عن هذا الفن الإسلامى المتصل بصغارنا الأعزاء فلذات أكبادنا ومصابيح بيوتنا، وهو فن لا يقل أهمية عن الفنون السابقة، ولاسيما بعد أن ذاعت الأغانى الهابطة اللاهية العابثة فى مجتمعنا، وأصبحت وأمست فى كل بيت عن طريق الإذاعة والتلفاز الذى يدمنه الصغار إدمانًا ينذر بالخطر.

وهو فن له جذور فى تراثنا القديم تتمثل فى الأشعار التى كانت تغنيها الأمهات لأطفالها فى الجاهلية وما تلاها من عصور بيد أنه فى عصرنا الحديث قد نما وتطور وصارت له أطر فنية تراعى عند النظم بحيث يكون النشيد خفيفًا عذبًا، فى صورة أغنية موزونة لطيفة تتناسب فى معانيها مع مدارك الأطفال العقلية وقدراتهم الذهنية وتغرس فيهم القيم النبيلة، والسلوك الطيب، والوعى الراقى، والفهم الثاقب، والنظر البعيد، والخيال الخصب، والذوق الرفيع، والوازع الدينى القومى.

ومن شواهد هذا الفن فى عصرنا : "أناشيد البراعم المؤمنة" لمحمود أبى الوفا، و"أناشيد للطفل المسلم" كتبها أحمد محمد الصديق، و"أناشيد الطفولة فى الأسرة والمجتمع" ليحيى الحاج يحيى، و"أناشيد الدعوة الإسلامية والطفل المسلم" لنخبةمن شعراء الدعوة وهى من منشورات دار الاعتصام، و"أناشيد وأغاريد للطفل المسلم" من إبداع يوسف العظم، و"بستان الأناشيد للبراعم" تأليف عبد القادر حداد و"شدو الطفولة" لإبراهيم أبى عباءة .. وغير ذلك كثير.

وحرى بالذكر أن الأدب الإسلامى المكتوب للأطفال لا يقتصر على فن الأناشيد، وإنما هناك فنون أخرى أبدعت من أجلهم تتمثل فى المسرحيات، والقصص، والحكايات التى صاغها أربابها نثرًا أو شعرًا على شاكلة "حكايات شعرية للأطفال" من تأليف يحيى الحاج يحيى، و"حياة الخليل إبراهيم عليه

السلام" لعبد التواب يوسف، و"سيف الله خالد بن الوليد" لعبد التواب يوسف أيضًا، و"غزوات النبى للفتيان"، إبداع عبد المنعم الهاشمى، و"قصص إسلامية للأطفال" كتبها محمد منير جمباز ... وغير ذلك كثير.

وبعد، فإنى أقول -مع صغارى الأعزاء، وصغار كل رجل مسلم فى العالم كله هذا النشيد كمثال من هذه الأناشيد :

الديـن والحـق لنـا ... والعـدل لنـا، والكـل لنـا

أضحـى الإسـلام لنـا دينـا ... وجميـع الكـون لنـا وطنـا

توحيـد الله لنـا نـور ... أعددنـا الـروح لـه سـكنا

الكـون يـزول ولا تمحـى ... فـى الدهـر صحـائف سـؤددنا

بنيـت فـى الأرض معابدنـا ... والبيـت الأول كعبتنـا

هـو أول بيـت نحفظـه ... بحيـاة الـروح ويحفظنـا

قولـوا لسـماء الكـون لقـد ... طاولنـا النجـم برفعتنـا

وأذان المسـلم كـان لـه ... فـى الغـرب صدى مـن همتنـا

يـا أرض النـور مـن الحرمـين ... ويـا ميـلاد شـريعتنا

روض الإسـلام ودوحتـه ... فـى أرضـك رواهـا دمنـا[1]

ويقول الشاعر أحمد شلبى، مع صغيريه (عبد الرحمن ومحمد) فى نشيد له عن "الغراب"[2] :

---

[1] أناشيد الدعوة الإسلامية والطفل المسلم لنخبة من شعراء الدعوة : ص ١٠، ١١، منشورات دار الاعتصام، ط دار النصر للطباعة بدون تاريخ.

[2] ما يزال هذا النشيد مخطوطًا، وقد حصلت عليه من الشاعر.

مـا ســره هــذا الغــرابْ ؟ في الأرض يبحث، والترابْ
وعــلـيــه ريــش أســودٌ كالليل ليــس به شــهــابْ

ما سر هذا الغراب ؟

ينعيــقــه البــاكى شجن وعــليه ألــوان الحـــزن
أتــراه ينعــى راحــلا؟ أم يــا تــرى أثــر الزمن ؟

ما سر أحزان الغرابْ ؟

هو شــاهد الحـدَث الأليمْ فى قـصــة القـتل القديمْ
لما ابـــنُ آدم قــادهُ وســواسُ شــيطانٍ رجيمْ

فمضى إلى سوء العقابْ

قــابيــل أوّل مجــرمِ قــابيل ســفّاك الــدمِ
ذبحــت يــداه أخًــا له فــى جنــح ليــل مُظــلِم

يا ويلتاه من العذاب

وهــناك أبــدى دهشــتهْ هــابيل راح ضحــيتــه
ومُضـــرَّج بدمــائِــه من قــد يــوارى ســوأته؟

أم سوف تأكله الذئابْ؟

بعــث الإله له الغــرابْ يهديــه للأمــر الصوابْ
يخــفــى غــرابا ميتــا ويدسُّـــه بيـــن التــراب

وبذاك أخبرنا الكتاب

يــا أيها الطيــر الجريــحْ مِنْ فِعْــل إنســان قبيــحْ
لا زلــتَ تــرثى فِـعْلــهُ بنعيقــك الباكــى تصيــح

ترنـــو إلينا فى عتابْ

خصائص الأدب الإسلامى ومزاياه

يكتشف القارئ المتذوق للأدب الإسلامى، والباحث المتأمل فى نصوصه شعرًا وقصة ومسرحية وغيرها من بقية فنونه أن هذا الأدب يتسم بخصائص عديدة، ويتحلى بمزايا فريدة .. نذكر منه ما يلى :

- يختص هذا الأدب بأنه الأدب النابع من مصدر صحيح نقى، وهو الإسلام دين الله الحق الخالد الذى شرعه الله لعباده، وجاء به أشرف الخلق ليأخذ بيد الإنس والجن نحو السعادة الحقة. ولأن هذا الأدب كان نابعًا من هذا المصدر العظيم فإنه جاء ملتزمًا بالقيم والمثل العليا والفضائل الكريمة التى يمثلها الإسلام، على أنه أدب بعيد عن المفاسد والشرور والمساوئ والأحقاد.

- والأدب الإسلامى «أدب يقوم على تصور متكامل، له من المدى ما لا يحلم به بشر غير المؤمنين، وله من الرحابة ما يجعله يتآلف مع الأرض والسماء وما حوتهما فى تناسق لا يدركه إلا المؤمنون، ومحبة لا يذوقها إلا الصادقون»[1].

---

[1] فى الأدب الإسلامى المعاصر للدكتور محمد حسن بريغش، ص ٤٠، ط٢: مكتبة المنار بالأردن، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- والأدب الإسلامى «أدب يحمل عاطفة أو نزعة إسلامية، ويعبر ويدل على مفهوم فكرى إسلامى أو يدعو إليه ... وبهذا فالذى يميز الأدب الإسلامى عن غيره من ألوان الأدب ومذاهب فن القول محليًا وعالميًا هو الدلالة والمحتوى وليس الصورة أو الشكل أو القالب، أو اللغة التى قيل فيها، وإن كانت العربية هى لغته الأولى والأوْلى -ولا كذلك العصر الذى قيل فيه، ولا الموقع والمكان، ولا الظرف السياسى الذى أظله»[1] .

- والأدب الإسلامى «أدب موجه لا يرضى بالأمر الواقع فى لحظة ما، أو جيل ما، وإنما مهمته تغيير الواقع وتحسينه، ذلك لأن الإسلام جاء لتطوير الحياة وترقيتها، و لم يجيء ليرضى بالأمر الواقع فى زمان ما، أو فى مكان ما، ولا بمجرد تسجيل ما فيها من دوافع ونزعات أو قيود، سواء فى فترة خاصة أو فى المدى الطويل، ومما لا شك فيه أن تلك الإيجابية والحيوية المتطورة مشتقة من الإسلام ذاته»[2] .

- والأدب الإسلامى أدب إنسانى يعالج كافة قضايا الإنسان، ويصلح للعالم كله، وليس محدودًا ببلد معين أو جنس خاص أو شعب من الشعوب، ويملك هذا الأدب من الإمكانات الفكرية والفنية ما يجعله قادرًا على استيعاب الحياة بكل ما فيها، وتناول شتى قضاياها ومظاهرها ومشكلاتها وفق التصور الإسلامى الصحيح لهذه الحقيقة. وهو إذ يصور واقع الحياة ويبسط مشكلاتها وأدواءها يضع العلاج الصحيح لها. وليست الواقعية التى يتميز بها الأدب الإسلامى تلك الواقعية التى تعارف عليها الغربيون فى مذهبهم الفنى الواقعى.

---

[1] من قضايا الأدب الإسلامى للدكتور صالح آدم بيلوص ٧٨، ٧٩، ط : دار المنارة بجدة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

[2] السابق، ص ٧٦، ٧٨، وينظر فى التاريخ فكرة ومنهاج، ص ١٦.

لأن الواقعية الغربية تصور واقع الإنسان فى حيز ضيق محدود، وتنسى الواقع الإنسانى الكبير الذى يشمل حياة الإنسان كلها طولاً وعرضًا وعمقًا وزمانًا ومكانًا ... الواقع فى نظر المذهب الغربى يتمثل فحسب فى الجانب المادى الحيوانى دون نظر إلى الجوانب الروحية والمعنوية. أما الإسلام -وأدبه تبع له- «فيرى الواقع بمنظار أعم وأشمل، وهو الأصدق هو الواقع البشرى .. هو كل ما يحدث فى حياة بنى الإنسان من تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية .. وتصوير هذا الواقع يراعى مكانة الفرد فى حياة البشرية، ولا يهمل واقع الجماعة، كما يراعى جوانب القوة والضعف معًا فى حياة الإنسان، فلا يهمل هذه على حساب تلك .. وتلك هى الواقعية الحقة»[1].

على أن الأدب الإسلامى حين يصور ذلك لا يزيف حقيقة، ولا يزين نفاقًا، ولا يخلق وهمًا فاسدًا، ولا يحابى ضلالاً، وإنما يطلق نيرانه على شياطين الإنحراف والفساد من أجل أن تستقيم البشرية .. وإذا كانت واقعية الأدب الإسلامى تشمل الإنسان فى جميع حالاته وسائر آفاقه، فإنها لا تسلط الضوء على الشر وتجعل منه فضيلة، ولا تسلط النور على الضعف وتجعل منه بطولة، ولا تغفل الجوانب العليا من كيان الإنسان .. الأدب الإسلامى فى واقعيته يرسم ما فى الفرد من نقائص وعيوب وضعف وخسة وهبوط، ولكن على أساس أنها شر، وعلى أنها نقائص، لا على أساس أنها واقع وضرب لازب لا محيد عنها، ولا أمل فى الفكاك منها أو الارتفاع عليها[2] .

- والأدب الإسلامى أدب صادر عن ذات نعمت باليقين وسعدت بالاقتناع وتشبعت بمنهج الله، ونهلت من ينابيع العقيدة الصافية، ومن هنا كان

---

[1] من قضايا الأدب الإسلامى، ص ٧٥، ٧٦.

[2] انظر : منهج الفن الإسلامى لمحمد قطب، ص ٩٢، ومن قضايا الأدب الإسلامى : ص ٧٦.

الأدب الإسلامى أدبًا أصيلاً صادقًا، وتعبيرًا فنيًـا مؤثـرًا لا يوجـد لـه نظـير فـى الآداب الأخرى.

- والأدب الإسلامى ليس أدبًا عبثيًا، ولا يمكن أن يكون كذلك، وإنما هو أدب ذو غاية نبيلة، وهدف سـام منشـود، ولا ريـب أن هـذه الخاصيـة قـد انبثقت عن حقيقة إسلامية كبرى هى أن الفرد المسلم -بحق- ينأى بنفسـه عـن العبث، وينظر مسبقًا إلى عواقب ونتائج الأعمـال والأقـوال الصـادرة عنـه وإلى مدى ما يعود عليه وعلى أمته من ذلك.

- ويتسـم الأدب الإسـلامى بالشـمول والتكـامل، ولا غـرو فـى هـذا «فالإسلام ينظر نظـرة شـاملة متكاملـة باعتبـار الإنسـان جسـدًا وروحًـا معًـا، ويأخذه أخذًا شاملاً متكاملاً بكل ما فيه من كل جوانبه وزوايـاه ليحـدث فيـه التوازن والانسجام»[1].

- والأدب الإسلامى -من الناحية الفنية الجماليـة- أدب رائـع يرتـدى من أساليب البيان ما يزيده جمالاً ويجعله أقوى تأثيرًا وفاعلية .. وفنونـه متعـددة ولكل فن منها روعته الخاصة بـه .. وليـس الأدب الإسـلامى كمـا قـد يتوهـم البعـض أسـاليب تقريريـة مباشـرة، وقواعـد منظومـة جـامدة، وخطبًـا وعظيـة ناصحة.. واقرأ روائعه تجد فيها صدق ما أقول.

- والإسلامية فى الأدب تصور فكرى فى تعبـير أدبى، لا يقـف عنـد حدود الاستعانة المباشرة أو غير المباشرة بمعانى القرآن الكريم والحديـث النبـوى الشريف، وإنما نلمسها فى التميز الذى أراده الإسلام لأدبـه وأدبائـه فـى التعبـير عن صدى القيم فى النفس تعبـيرًا حيويًـا منبثقًـا مـن التصـور الإسـلامى، فهـى

---

[1] من قضايا الأدب الإسلامى، ص ٧٤.

تتعدى ما يلوح فى ظاهر النص إلى ما يجول فى داخله من فكر وإحساس وتصور، وما يعرف فيه من إيحاء بمواقف إسلامية. والأديب المسلم ذو صفات فى أدبه، ومنهج فى سلوكه، حددت جوانبه الآيات الأخيرة من سورة الشعراء، فهو كما يتحرى الصدق فى أدبه، ويلتزم بالتصور الإسلامى فى أهدافه وأحلامه وأشواقه فإنه لا يجانب السلوك الإسلامى فى معاشه، فالإيمان فكر، وعمل الصالحات تعبير عنه، وذكر الله حسا وعقلا وتصورًا تطبيق سلوكى، والانتصار للحق سلوك منهجى إيجابى، وكل ذلك ترجمات عملية لما وقر فى القلب، فالأدب الإسلامى هو أدب الشخصية الإسلامية فى تكوينها الفكرى، ومنهجها السلوكى[1].

– ويمتاز أدب الدعوة الإسلامية بقدرته على الإقناع العقلى والإمتاع العاطفى، ومن ثم فإنه كان من أهم روافدها الكثيرة .. واكب خطواتها شرقًا وغربًا، وكان سلاحًا له تأثيره النفسى البالغ فى معركة الإسلام مع الكفار فى عهد النبوة، وفى عهد النبوة، وفى عهد الفتوحات الإسلامية التى حمل لواءها الخلفاء الراشدون؛ بل كان فى كل العهود التى جاءت من بعد «وسيلة الدعاة، والإعلام فى الجهاد، وباعث الصحوة عند الخمول، ونداء الأحرار حين تدلهم ظلمات القهر والتمزق، والصيحة العالية إذا ادلهمت الخطوب، واشتدت الأزمات، وتعرضت الدولة الإسلامية لما يهدد كيانها أو ينحرف بحضارتها»[2] يؤكد هذا : أنه ما من معركة من معارك الإسلام إلا وسبقتها خطبة رائعة من القائد تحمس الجند، كخطب الصحابة والقواد من قادة القادسية واليرموك ونحوهما، وخطبة طارق بن زياد قبيل فتح الأندلس، وما من جيش إسلامى

---

[1] مقدمة فى دراسة الأدب الإسلامى للدكتور مصطفى عليان، ص ١٢، ١٣، دار المنارة للنشر بجدة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

[2] آفاق الأدب الإسلامى لنجيب الكيلانى، ص ٦٧، مؤسسة الرسالة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥م.

حارب إلا وواكبه شعر مؤثر يحرك فى القلوب مشاعر الاستبسال لإعلاء كلمة الله.

- وإذا كان الأدب يقاس بالعواطف التى صدر عنها، وبمدى ما يكون لهذه العواطف من قوة وصدق ونبل، فإن الأدب الإسلامى هو الأدب الذى يصدر عن أسمى وأصدق وأنبل عاطفة .. عاطفة الإسلام دين الفطرة، والدين الحق الخالد الذى شرعه الله للدنيا كلها .. أبيضها وأسودها .. عربيها وأعجميها.

- وإذا كانت قيمة الأدب تقاس بأهميته، فإن أدب الدعوة الإسلامية فى غاية الأهمية، لأنه الأدب الذى لا يراد به إلا وجه الله وخدمة دينه، وهو الأدب الذى يستمد تياره وروافده من أنوار القرآن وأضواء السنة، وقيم الإسلام الروحية وفضائله الاجتماعية ومثله الإنسانية ومنهجه السديد الرشيد. وهو الأدب الذى سجل أمجادنا، وصور مآثرنا، وأضاء حاضرنا بنور ماضينا العظيم، وهوالمصدر التاريخى الثبت الذى جمل تاريخنا وكتب له الخلود، وأحبط المحاولات المغرضة التى كانت وما تزال ترمى إلى تشويه التاريخ الإسلامى العريق، وإذا راجعت تاريخ الطبرى أو المسعودى أو ابن كثير أو ابن الأثير أو غيرهم وجدت تاريخنا أدبًا إسلاميًا، ووجدت أدبنا تاريخًا شريفًا، وهذا الأمر جعل تاريخ الإسلام أجمل التواريخ بشاشة وأعظمها أثرًا ووقعًا، وكلما حاول مغرض أن يشوه حقيقة من تاريخنا انبرى له الأدب المرافق لتلك الحقيقة فدحض افتراءه، وأحبط كيده، وبذلك كان أدب الدعوة الإسلامية على مر العصور مدافعًا عن تاريخ الأمة الإسلامية[1].

- وإذا كان الأدب يقاس بقيمة ما يحتويه من موضوعات ويعالجه من أغراض فإن موضوعات أدب الدعوة الإسلامية هى أشرف الموضوعات

---

[1] راجع ما قلناه فى حديثنا عن الجذور التراثية للأدب الإسلامى.

وأذكاها وأروعها وأنقاها، ويكفى -مثلاً لا حصرًا- أنه يدعو إلى الإسلام عن طريق إظهار محاسنه وإيضاح مثله وفضائله، ويثير الحماس فى نفوس المسلمين، ويذكى روح الجهاد فى القلوب على النحو الذى كان إبان الغزوات والفتوح الإسلامية، وفى مقدمات المعارك والوقائع الحاسمة التى خاضها المسلمون مع الروم والتتار والصليبيين فى "عمورية" و"الحدث" و"عين جالوت"، و"حطين" وغيرها. ناهيك عن المدائح النبوية، والابتهالات الدينية، والوصايا والمواعظ، والقصص الدينى المشوق الذى يشد الانتباه ويمتع السامعين .. ونحو ذلك من الموضوعات التى ينأى القلم فى تعدادها لكثرتها بسبب شمول الرسالة المحمدية واتساع أهدافها ومجالاتها.

- ويمتاز الأدب الإسلامى بأنه أدب قوى منذ ارتبطت نشأته ببداية الدعوة الإسلامية ساعة جهر بها النبى ﷺ حتى اليوم، ولم لا يتسم هذا الأدب بالقوة، وأغلب مبدعيه يملكون مواهب دفاقة، وألسنة فصاحًا، وعاطفة جياشة؟[1].

- ويمتاز الأدب الإسلامى بأنه أدب عفيف فاضل لم ينطق بفحش، ولم يظلم بقول، ولم يبدأ بأذى، ولم يجأر بزور، ولم يتفوه ببهتان[2].

ويمتاز بأنه أدب عالمى غير محلى ولا يرتبط أبدًا بإقليمية معينة، بل هو أدب إنسانى عالمى، وجد وانتشر وأذيع سريعًا، مرتبطًا بعجلة الدعوة الإسلامية، وسرعة انتشارها داخل الجزيرة بين القبائل العربية، ثم بعد اتساع دائرتها عالميًا خارج الجزيرة[3]، ثم ازداد ذيوعه وانتشاره على امتداد العصور كلها، وبخاصة بعدما كثر مبدعوه فى عصرنا الحديث.

---

[1]، [2]، [3] دراسات فى أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود حسن زينى، ص ٤٨ وما بعدها، ط: مكتبة الخانجى بالقاهرة.

- والأدب الإسلامى أدب يحمل فى مكوناته روح الأدب وخصائصه الإيحائية الوجدانية بغير صراخ وعظى مباشر، وتقرير توجيهى أجوف وجمود عقلى غير مؤثر.

- والأدب الإسلامى : «لون بارز من ألوان الفنون، ينظر إلى الكون ومفرداته، أو إلى الحياة وحركتها، وإلى المخلوقات وصراعاتها، نظرة يحكمها التصور الإسلامى، والالتزام العقائدى، ويحلل بصدق همسات النفس، وأشواق الروح، وتفاعل الفكر، وتوهجات السمو الإنسانى، وتدنيات اليأس والألم والحيرة، وينتصر لقيم الخير والحق والجمال، فى الإطار الفنى الناجح، وفى نسيج من الصدق، ويجعل من الفن والالتزام كيانًا واحدًا، لا انفصام فيه ولا تمزق ولا تضاد»[1].

- والأدب الإسلامى «أدب عف، تمتزج فيه المتعة بالمنفعة، وتنتفى عنه التسلية الرخيصة، والسخرية المؤذية، لأنه أدب تحكمه ضوابط وشروط من نوع خاص، نابعة من أصالة الإسلام وعراقته ومسئوليته. وهذه الضوابط والشروط لا تتعارض أو تتصادم مع الحرية، حرية العقلاء والنظفاء والشرفاء»[2].

- والأدب الإسلامى أدب تجمعه خصائص موضوعية وفنية مشتركة هى -فى جملتها- وليدة التحول الكبير من الجاهلية إلى الإسلام، ووليدة التأثير القوى لمعانى القرآن الكريم والسنة النبوية، ولغتهما، وأساليبهما البيانية.

- والأدب الإسلامى الشعرى : أدب متنوع بين المقطوعة والقصيدة القصيرة والقصيدة الطويلة نسبيًا، والملاحم ذات الطول الفائق. وإذا كان أغلبه قد التزم بوحدة الوزن والقافية، فإن طبيعة التطور واتساع الأغراض ومجاراة روح العصر والرغبة فى التجديد قد أوجدت إلى جانب القصيدة العربية الإسلامية بنظامها المألوف ألوانًا أخرى تتمثل فى الشعر المنوع القوافى،

---

[1]، [2] : آفاق الأدب الإسلامى لنجيب الكيلانى، ص ٤٧، ١٢٥، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

والمتعدد البحور، والموشحات، وشعر التفعيلة. والعواطف فى هذا الشعر عواطف جياشة صادقة، و لم لا تكون كذلك والشعر شعر إسلامى ؟!

- ومن الطبيعى أن يلحظ القارئ فى هذا الشعر : تأثر أصحابه بالقرآن الكريم والسنة النبوية، واقتباسهم من هذين النبعين العظيمين .. ومن الطبيعى أيضًا أن يظهر فى الشعر وفى القصة وفى المسرحية، وفى بقية فنون هذا الأدب التأثر بروح الإسلام، والاستمداد من تاريخه وحضارته.

ويكفينا هذا القدر من الحديث عن خصائص الأدب الإسلامى ومزاياه.

من روائع الشعر الإسلامى

قصيدة المقنع الكندى فى صلة الرحم :

يقول :

١- يُعاتِبُنى فى الدَّيْن قومِى ، وإنَّما ... دُيونِىَ فى أشياء تُكْسِبُهم حمْدَا

٢- أَسُدُّ به ما قد أخلَّوْا وضيَّعُوا ... ثُغورَ حقوق ما أطاقوا لها سدًّا

٣- وفى جَفْنةٍ ما يُغلَقُ البابُ دونها ... مُكلَّلَةٍ لحمًا مُدَفَّقَةٍ ثَرْدا

٤- وفى فرسٍ نهْدٍ عتيقٍ جعلتُه ... حجابا لبيْتِى ثُمَّ أخدمْتُه عبْدا

٥- وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلفٌ جدًّا

٦- إذا أكلُوا لحمِى وَفرْتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

٧- وإن ضيَّعوا غيْبِى حفِظْتُ غُيوبهم ... وإن هُمْ هوَوْا غيِّى هَويتُ لهم رُشْدا

٨- وإن زجروا طيرا بنحْس تمُرُّ بى ... زجرْتُ لهم طيْرًا تَمُرُّ بهم سعْدا

٩- ولا أحْمِلُ الحِقْد القديمَ عليهمُ ... وليس رئيسَ القوم منْ يحملُ الحقدا

١٠- لهمْ جُلُّ ما لِى إن تتابعَ لى غِنًى ... وإن قلَّ مالى لم أُكلِّفْهم رفْدا

١١- وإنِّى لعبد الضيف مادام نازلاً ... وما شيمةٌ لى غيرُها تُشْبهُ العبْدا[1]

---

[1] تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ : ١ / ٤٢١، والجفنة : الوعاء الواسع. والفرس النهد العتيق : العالى الأصيل الكريم الجيد. والبيت : بيت القوم (القبيلة). وأكل اللحم : التقول على المرء بالسوء والقول الذى يؤلمه. والغيب : السر. والرفد : العطاء.

تحليل وتعليق

لا شك أن صلة الرحم من دعائم البناء السليم للمجتمع، فإذا انعدمت تلك الرابطة بين ذوى القربى تفرق شملهم، وتشتت جمعهم، وسهل على الأعداء غزوهم والنيل من سيادتهم. ولا شك أن العز لا يتحقق للإنسان إلا بالتعاون والائتلاف والاتحاد والمحبة مع ذوى قرباه -حتى يرهبه الآخرون، ويبتعد عن حماه الطامعون. لذلك فهو مطالب بتقديس صلة الرحم، والتغاضى عن هفوات الأقارب، والتسامح عن إساءة العشيرة، والتجاوز عن هفوات أهله، حفاظًا على صلة الرحم، وأملاً فى خير أهله.

لقد كان العرب فى جاهليتهم يقدسون هذا الخلق، ويتمدحون به، وينددون بقطع الأرحام، وجاء الإسلام فحث على تلك الرابطة بعد أن هذب فلسفتها وحدّ من غلوائها، فقال الله تعالى : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقال -أيضًا- : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، وقال الرسول ﷺ : «لا يدخل الجنة قاطع رحمه» وجاء فى الحديث القدسى : (أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمى؛ فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته).

والمتتبع للشعر العربى يظفر بقصائد عديدة تدور حول التمدح بهذا الخلق الكريم، وتقديس تلك الرابطة. وكلها قصائد تبدو وكأنها غناء عذب وأناشيد حلوة يترنم بها الشعراء. ولما كان من الصعب الإحاطة بها جميعًا فإننى اخترت منها القصيدة السالفة وهى تفصح عن اعتزاز الشاعر العربى بهذا الخلق وتمجد صلة الرحم وتصور معاملة الأهل بالحسنى وإن أساءوا. وقائلها شاعر من شعراء العصر الأموى هو "المقنع الكندى" المعروف بجودة الإبداع وفصاحة

اللفظ ومتانة السبك وإن كان مقلاً. وكان المقنع قد «نشأ في بيت وجاهة وسيادة، ولكنه كان متخرقًا في عطاياه (كثير السخاء) سمح اليد بماله، لا يرد سائلاً عن شيء حتى أتلف كل ماخلفه أبوه من مال، فاستعلاه بنو عمه بأموالهم وجاههم. ثم إنه أحب ابنة عمه (بنت عمرو بن أبي شمر) فخطبها من إخوتها فرفضوا أن يزوجوه إياها، وعيروه بفقره وإسرافه وبالديون التي كانت عليه»[1]، فنظم هذه القصيدة موضحًا سبب ديونه الكثيرة، ومصورًا ما بينه وبين إخوته وبني عمه من أوجه الخلاف الشديد.

والقصيدة -كما ترى- من النماذج الرائعة في تصوير صلة الرحم والحفاظ عليها والتمسك بها مهما كانت إساءة الأهل للإنسان. وصاحب القصيدة -كما يفهم من البيت التاسع- كان يحتل مكان الصدارة في قومه؛ فليس من الغريب إذا قابل إساءة إخوته وبني عمه إليه بالإحسان إليهم، ولا من الغريب -مادام شاعرًا- أن يقدم لقرائه وسامعيه تلك اللوحة الفنية الرائعة التي تصور مدى التباين والتضاد بين معاملته لأهله، ومعاملتهم له، والتي تعرض لقطات منوعة من جملة القيم الرفيعة التي كان العربي القديم يعتز بها، وينظر إليها على أنها من الأمور التي يتحتم على الرجل الفاضل التخلق بها، ولاسيما إذا كان زعيمًا لقومه.

وإذا كانت الأبيات تنم عن عاطفة الفخر والاعتزاز بصلة الرحم، والتخلق بالقيم الفاضلة؛ فإنها في الوقت ذاته تكشف عن العاطفة الآسية الحزينة لما كان يلقاه صاحبها من سوء معاملة إخوته وبني عمه له.

والحديث عن مضمون القصيدة وقيمها الموضوعية يقتضي تقسيمها إلى قسمين مترابطين أشد الارتباط :

---

[1] السابق : ١ / ٤٢٢.

القسم الأول (من ١ : ٤) وفيه يشير الشاعر إلى عتاب، قومه له على ما حل به من ديون كثيرة، ثم يوضح أسباب هذه الديون، فيذكر أنه استدان المال حين رأى بعض قومه يضيعون أو أوشكوا أن يضيعوا عددًا من حقوق القبيلة، فاضطرهو إلى الاستدانة حتى يحافظ عليها. وواضح أن الشاعر فى ذكره لهذه السبب لم يفصح عن سبب عجزهم عن المحافظة على الحقوق المشار إليها، وهذا -فى تقديرنا- يحتمل أحد أمرين : إما اتصافهم بصفة البخل، وإما فقرهم الشديد، والاحتمال الأول هو الصواب عندنا؛ فقد سبق أن ذكرت أن بنى عمه قد استعلوه بأموالهم وجاههم. وواضح -كذلك- أن بنى عمه كانوا يقفون من بقية أفراد القبيلة موقفًا سلبيًا؛ حيث أخلوا بحقوق القبيلة عليهم، وضيعوا كل ما تقتضيه أواصر القربى من ترابط وتعاون .. الأمر الذى يوحى بأن نظرتهم إلى الحياة كانت نظرة مادية بحتة، يطغى فيها إحساس الفرد بذاته على إحساسه بإخوته وبنى عمومته، ويتوجه كل واحد منهم إلى بناء مجده الخاص، دون التفات إلى ما ينبغى أن يكون لذوى قرباه من أمجاد.

وذكر الشاعر -أيضًا- أنه استدان المال ليتمكن من توفير القرى (لحمًا وخبزًا) لمن يحل على القبيلة ضيفًا .. وهذا معناه أنهم كانوا يغلقون أبوابهم هربًا من الضيفان فيتحمل هو -باعتباره صاحب الصدارة فيهم- مسئولية إكرام الضيف .. الأمر الذى يوحى -أولاً- بجوده، وحرصه عليه، ويوحى -ثانيًا- بحرصه الشديد على أن تكون صورة القبيلة -فى عيون الناس- صورة مشرفة، فلا يعرف عنهم أنهم قوم بخلاء يتخلون عن إكرام الضيف، ولا يقومون بالواجب الذى تحتمه البيئة والتقاليد العربية.

وذكر الشاعر -أيضًا- أنه استدان المال ليوفر الخيل القوية المدربة التى تمكنه من حماية القبيلة والدفاع عنها وقت البأس.

والمتأمل لهذه الأسباب التى ذكرها الشاعر لاستدانته يجد أنه كان يستحق عليها الشكر والتقدير من قومه بدلاً من اللوم والعقاب؛ فقد أفصح فى الشطر الثانى من البيت الأول : أن ديونه كانت بسبب هذه الأمور الثلاثة فقط، وأنها أمور تكسبهم حمدًا بين الناس، وترفع منزلتهم بين القبائل، وتحقق لهم مجدًا وشرفًا وسمعة طيبة، وأنه لو لم يقم بما قام به من واجب الضيافة للغرباء، وإعداد السلاح للأعداء، لضاعت سمعتهم، وتلاشت هيبتهم، وانحطت مكانتهم فى مجتمع كان السخاء له ديدنًا، والدفاع عن القبيلة فيه أمرًا محتمًا.

هذا عن القيم الموضوعية فى القسم الأول من القصيدة. وأما القسم الثانى فقد عرض فيه الشاعر لقطات منوعة من المفارقة بينه وبين إخوته وبنى عمه، وهى لقطات تبرز مدى الخلاف الشديد بين معاملتهم له ومعاملته لهم؛ ويظهر من خلالها التناقض التام بين موقفهم منه، وموقفه منهم؛ فقد كانوا يغتابونه ويتقولون عليه سوءًا وقولاً قبيحًا، وكان هو بعكس ذلك. وكانوا ينالون من مجده، ويعمدون إلى تقويضه حقدًا عليه، فكان يرد على هذا بعكسه أيضًا، فيقيم لهم المجد، ويحفظ لهم السمعة الطيبة والأثر الحسن بين الناس، ولا يعتبر ذلك منة عليهم؛ بل يراه واجبًا محتمًا لابد أن يضطلع به بحكم انتمائه لهم وحرصه على مجدهم من جهة، وبحكم تبوئه مركز الصدارة فيهم من جهة أخرى. وكانوا يذيعون أسراره، ولا يدافعون عنه إذا سمعوا أحدًا يذكره بسوء، فكان يرد على هذا بما يغايره تمامًا. وكانوا يحبون له الضرر والخسارة والضلال فى الوقت الذى يمتلئ قلبه بحب النفع والنجاح والهداية لهم. وكانوا يتمنون له كل شر، بينما يتمنى هو لهم كل خير. وكانت قلوبهم تمتلئ بالأحقاد الدفينة عليه بينما هو منزه من هذا الخلق الذميم، ولا غرو فرئيس القوم لا يحقد على أهله، وليس لهم منه إلا الحب كل الحب. وكان يعطيهم أغلب ماله فى حال

الوفرة والغنى، ويمتنع عن طلب العون منهم عند الفاقة. وقضى حياته عبدًا للضيف -سواء كان نازلاً عليه أو نازلاً عليهم- يجود عليه مهما كلفه الجود، ويخدمه مهما شقت عليه الخدمة؛ لأن إكرام الضيف شيمة أصيلة لديه؛ ولأنه واحد منهم ينوب عنهم في هذا المجال؛ بل هو شيخهم الحريص على كل ما يحقق للقبيلة سمعة طيبة في مجتمع اتصف بالجود، وبالغ في إكرام الضيف.

ويلحظ الدارس أن الشاعر قد انتقل من القسم الأول للقسم الثانى بواسطة العطف بالواو المتلوة بإن المؤكدة، فقال :

وإن الذى .... إلخ.

وكان فى إمكانه أن يقول : ولكن الذى ..... أو يلجأ إلى العطف بغير الواو كالفاء، وثم؛ لكنه آثر العطف بالواو وإن المؤكدة دون غيرها من أدوات الربط السالفة، لأن الربط (بالواو وإن) يجعل ما قبلهما متحدًا بما بعدهما حتى يصبحا كأنهما كلام واحد. وذلك لا يحدث عند الربط بالأدوات الأخرى. على أنه قد جعل اسم إن المنصوب اسمًا موصولاً (الذى)، ومعروف أن الموصول لا يتضح بدون الصلة، وذلك يجعل ما بينه وبين إخوته وبنى عمه من خلاف حد كبير وغير محدود. وقديمًا ذكر النقاد العرب -من أمثال عبد القاهر الجرجانى- أن الربط بين الجملتين بإن المؤكدة ذو قيمة فنية عالية، وضربوا لذلك أمثلة عديدة، كقول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وقول بشار بن برد :

بكرا صاحبى قبل الهجير ... إن ذاك النجاح فى التبكير

وقول آخر :

جاء شقيق عارضًا رمحه ... إن بنى عمك فيهم رماح

وقال النقاد –فى بيان القيمة الفنية للربط بإن المؤكدة– : إنها تقوم بما تقوم به الفاء من الربط بين الجملتين، وتزيد على ذلك أمرًا عجيبًا؛ فالكلام معها مستأنف، مقطوع وموصول معًا. كما أنها تهيئ الفكرة لأن يكون لها حكم المبتدأ، أى أن تكون محدثًا عنها حتى وإن لم يكن لها مسوغ.

ولا أغلو إذا قلت : إن إيثار الشاعر لهذه الأداة فى الربط بين قسمى القصيدة مثال واحد من عشرات الأمثلة الدالة على أن الوعاء الفنى لتجربته الشعرية وعاء فى ذروة البلاغة العربية، ويتبوأ أعلى مكان فى سماء الفن؛ فكل كلمة، وكل عبارة، وكل صورة جاء بها لم تكن إلا رافدًا للمعنى الذى وضع قصيدته من أجله.

يؤكد هذا أنك لو تفحصت القصيدة وجدت فيها علاوة على ما سبق:

- استخدامه –فى بعض الأبيات– الأفعال والمشتقات الدالة على الكثرة والتتابع ووقوع الحدث غير مرة.
- واستخدامه –فى أبيات أخرى– الأفعال الدالة على تحقق الوقوع.
- وإيثاره الألفاظ ذات الإيحاءات المتعددة.
- والتناسب الواضح بين الوعاء الفنى وموضوع التجربة.
- والنقاء فى السياق.
- والبعد فى التركيب عن الغموض والتواء القصد.
- وإيثار الفعل المبنى للمجهول إذا اقتضى المقام ذلك.
- واستعمال أساليب القصر، والتنويع بينها.
- والإكثار من الكنايات فى التصوير لبلاغتها العالية المعروفة.
- واختيار البحر العروضى المناسب لموضوع القصيدة.

- ثم أسلوب المقابلة التى اتكأ عليها فى تصوير موقفه وموقف إخوته وبنى عمه.

- هكذا أقول حين أجمل القول باختصار عن القيم الفنية الرفيعة فى هذه القصيدة التى تعد -بحق- من أروع الشعر المتحدث عن "صلة الرحم" والشعر المنشود حول أبناء العم، والشعر المتسم بالروح الإسلامية.

فإذا كان لابد من التفصيل، فانظر -مثلاً- إلى قوله : «يعاتبنى فى الدين قومى» فإن هذه العبارة تشعر القارئ بأن الشاعر كان ذا مال، وأنه أضاع ماله، فاستدان، وبدلاً من أن يقف معه بنو عمه وإخوته فى هذه المحنة راحوا يوجهون له العتاب واللوم -لا مرة واحدة؛ بل مرات ومرات- متجاهلين الظروف التى أوقعته فى هذه المحنة. على أن الفعل (يعاتب) يوحى -من ناحية أخرى- بعلو مكانته أو -على الأقل- أنه ليس أقل منزلة ممن يعاتبه، بخلاف "يلوم" مثلاً الذى قد يكون من الكبير للصغير أو من الأعلى للأدنى. وإذا كان العتاب دليل المحبة -كما يقال- فمعنى هذا أن ما كان بينه وبين بنى عمه وإخوته من اختلاف شديد لم يضيع مكانته فى عيونهم، ولا كان سببًا فى بغضهم له، وعدم توقيرهم إياه. وكان هو تحت كل الظروف يأسرهم بإحسانه، ويجمعهم بمعروفه، ويصل ما قطعوه، ويبنى ما هدموه، ويحفظ ما ضيعوه. وكل هذه الدلالات تتولد من خلال التعبير بالمضارع (يعاتب) دون سواه.

وهكذا الشأن فى الدلالة والإيحاء لو نظرت إلى بقية المضارعات الواردة فى النص مثل (أسد - تكسبهم - أحمل - يحمل - أكلف) فكلها توحى بوقوع ما تعبر عنه غير مرة. وهكذا الحال -أيضًا- فى الفعل الماضى (تابع) الذى استعمله فى مجال ما يقدمه لإخوته وبنى عمه من العون فى حال

وجود الغنى، فإن هذا الفعل وبالصورة التى جاء عليها يوحى بأن الضائقة المالية التى يعاتبه قومه عليها إنما هى أزمة طارئة، وأنها لن تستمر. كما يوحى بأن رفده لهم كثيرًا ما يحدث، وأن عطاياه لا تتوقف إلا عند الفاقة -ونادرًا ما تحدث- ومما لا شك فيه أن هذه الإيحاءات تسهم فى عمق الإحساس بالمرارة والأسى وهى الغاية التى يعبر عنها شاعرنا المقنع. وهكذا الحال -أيضًا- فى وصفه للجفنة التى يقدم فيها الطعام للضيف بأنها جفنة مكللة لحمًا مدفقة ثردًا؛ فإن "مكللة" و"مدفقة" اسما مفعول مشتقان من الفعل المضعف "كلل" و"دفق" على التوالى، والفعل المضعف يشير -كما نعرف- إلى الكثرة والتوالى، وذلك أوقع فى الدلالة على الكرم الزائد والجود البالغ. على أنه قد أبرز اللحم وهو فى الجفنة فوق الثريد فى صورة بديعة حين استعار له الإكليل الذى يوضع على الرأس مرصعًا بالجواهر للزينة .. الأمر الذى يوحى بكثرة اللحم وجودته وظهوره بشكل واضح جميل فوق المأدبة. وعلى أنه قد أجاد فى تقديم اللحم المكلل على الثريد المتدفق لاعتبارات القافية من ناحية، ولأن اللحم مقدم على الثريد من ناحية أخرى. وعلى أنه قد آثر التعبير عن إناء الطعام بلفظ "الجفنة" وهى الوعاء الكبير الواسع للدلالة على السخاء والمبالغة فى الكرم. وعلى أنه قد وصف الجفنة بأنها جد واسعة تملأ البيت حتى لا يستطاع إغلاق بابه، أو أن باب بيته مفتوح دائم لكل ضيف، فليس ثمة حاجز إطلاقًا بين القرى والضيف. وفى هذا ما فيه من الإيحاء بالجود البالغ والعناية بإكرام الضيف.

وانظر -مثلاً- إلى الأفعال : (أخلوا - ضيعوا - ما أطاقوا) فهذه الأفعال تكشف عن خوفه من أن يعرف قومه بأنه يخلون بحقوقهم القبلية، ويضيعون ما يحقق لهم الذكر الحسن، ولا يستطيعون الحفاظ على القيم التى

يعتز بها العربى ومن ثم فهو يحرص على القيام بما فرطوا فيه. كما تكشف هذه الأفعال عن مدى الجهد الذى عاناه فى سبيل القيام بذلك.

وانظر كيف عبر عن وسائل الدفاع التى أعدها لحماية القبيلة من أعدائها بالفرس القوى المربى تربية ممتازة والمدرب تدريبًا جيدًا، فهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث عبر بالجزء عن الكل. ولا غرو فى اختياره الفرس بالذات من وسائل الدفاع؛ فالفرس -كما هو معروف- كان نقطة مضيئة فى حياة العربى القديم؛ فكان يعنى بتربيته، ويتفنن فى تدريبه، ويثنى عليه فى وصفه، ويبكيه إذا مات؛ لأنه يسهم فى صنع مجده، ويساعد فى انتصاراته.

وانظر : كيف عبر عن حقوق القبيلة بالثغور؛ فهذه استعارة مكنية مشخصة تبرز هذه الحقوق فى صورة المواقع الحربية التى يتحتم الدفاع عنها حتى لا يستولى عليها الأعداء .. وقد حمل الشاعر نفسه مسئولية الدفاع عنها حين تبين له عجز قومه عن الدفاع.

وانظر : إلى بناء الفعل للمجهول فى قوله : "وفى جفنة ما يغلق الباب دونها" ففى مجيئ الفعل على هذه الصيغة دلالات عدة ما كانت لتتحقق لو جاء مبنيًا للمعلوم. وهذه الدلالات هى :

أولاً : القيام بواجب الكرم على أحسن ما يكون الأداء؛ فلا حاجز بين الضيوف والقرى، وفى هذا إيحاء بكثرة المترددين عليه.

ثانيًا : الإشارة إلى أن جميع أهل البيت -صغارًا وكبارًا- لا يغلقون الباب، ولا يحولون بين الضيف وما يريد.

ثالثًا : أن الشاعر ذو مكانة رفيعة، فلم يقل : "وفى جفنة ما أغلق الباب دونها" لأن من كانوا مثله من السادة الكبار لا يقومون بمثل هذا العمل؛ وإنما يقوم به الخدم الصغار. ومن المؤكد أن الشاعر قد عمد إلى هذه

الصيغة للدلالة على هذا المعنى؛ لأننا رأيناه فى بيت آخر من القصيده يزيد من تعميق معنى السيادة عنده باستخدامه لصيغة "أفعل" فى قوله عن فرسه "أخدمته عبدا"، فهذه الصيغة فى دلالتها على معنى السيادة - تختلف تمامًا عما لو قال : "خدمه عبد" أو "يخدمه عبد".

وانظر إلى تنكيره لكلمة "فرس"، فهو تنكير مقصود للدلالة على أنه يعنى جنس الفرس كله، وللإشادة به من جهة ثانية. ولو كان قد جاء بالكلمة معرفة بالألف واللام ما أفادت هذه الخصوصية.

وإذا كان الأسلوب الخبرى قد فرض نفسه ليكون وعاء فنيًا لإخراج التجربة؛ فإنه قد احتوى بداخله ألوانًا من أساليب القصر المفيدة للتخصيص والتوكيد وتقوية المعنى.

وأول ما يصادفنا فى النص من هذه الأساليب قوله : "يعاتبنى فى الدين قومى"، حيث قدم ما حقه أن يتأخر -أعنى : الجار والمجرور على الفاعل- وهذا يفيد : أن عتاب قومه له لم يكن إلا فى الدين .. الأمر الذى يوحى بنبل السبب فيما اعتراه من ديون، كما يوحى بعمق الأسى الذى يملأ قلبه من عتاب قومه له على شىء لا يبغى من ورائه إلا الخير لهم.

وثالث ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله : "لهم جل مالى" فقد قدم الخبر على المبتدأ، فأفاد التقديم أن أغلب مال الشاعر كان لأفراد قبيلته، فكان هو المعطى، وكانوا هم الآخذين .. الأمر الذى يوحى بأنه كان شيخًا للقبيلة من طراز خاص، يختلف عما كان سائدًا من النظم القبلية التى كانت تفرض أن يأخذ شيخ القبيلة أكثر مما يعطى ليتمكن من إظهار القبيلة أمام القبائل الأخرى بمظهر مشرف يعلى من شأنها جودًا، ويرفع من قدرها قوة.

ورابع ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله -بعد الأسلوب السابق

مباشرة- : "إن تتابع لى غنى" حيث قدم الجار والمجرور "لى" على الفاعل "غنى"، فأفاد التقديم أنه لا يعطى إلا من ماله. وأنه حين يعطى إنما يعطيهم هم؛ فما لهم بعد ذلك يلومونه على ما بذله فى سبيلهم ؟! إن هذا لشىء عجاب!!

وآخر ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله : "وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا"، فصوغ العبارة بهذا الشكل يدلنا على ما كان يقوم به فى إكرامه للضيف نيابة عن إخوته وبنى عمه من خدمته بنفسه، وإجابته فى كل مطالبه، ولين الجانب معه، والسهر إلى جواره كأنه واحد من الأرقاء خادم لسيده. ولما كانت العبودية لغير الله مما تأباه النفس البشرية ولاسيما إذا كان المرء كبيرًا لقوم فإنه حصرها فى إكرام الضيف فقط ... الأمر الذى يفيد حرصه البالغ فى إكرام الضيف، وتواضعه فى حضرته، حتى لو وصل الأمر إلى حد العبودية، والتحول من السيادة إليها. ويفيد -كذلك- أنه يثبت لنفسه صفات العربى الأصيل من الإباء والشمم، والترفع عن صغائر الأمور، والبعد عن القيام بأعمال لا يقوم بها أمثاله من السادة الزعماء.

وعلاوة على ما تقدم من أساليب القصر التى أبرزت المعانى فى حلل بهية لها من الدلالات والإيحاءات ما عرفناه، فقد أكثر الشاعر من أساليب الشرط الدالة على وقوع الجواب كلما وقع الشرط. وهذه الأساليب واضحة فى غنى عن الذكر.

وعلى الرغم من أن حكاية الخبر هى الثوب الذى ارتداه الشاعر فى صوغ التجربة، فإن ذلك لم يمنع من لجوئه إلى رسم الصور المتخيلة التى تساعد على إبراز معالم ما يريده بوضوح تام. وقد اعتمد فى رسم هذه الصور على الفنون البيانية من تشبيه ومجاز مرسل واستعارة وكناية. وقد سبق التلميح إلى

ما احتواه النص من تشبيه فى "مكللة لحما" ومجاز مرسل فى "الفرس النهد العتيق" واستعارة مكنية فى "ثغور حقوق" وفى "ضيعوا غيبى" و"هدموا مجدى" و"بنيت لهم مجدا".

أما الكناية فهى الفن البيانى الشائع فى رسم الصورة بالقصيدة؛ فتراه -مثلاً- قد كنى عن الجود بالجفنة الممتلئة طعامًا، والتى لا يغلق باب الدار دونها. وكنى عن حمايته لقومه بالإعداد الجيد لفرسه، وبتكليف عبده بالعناية به استعدادًا للحرب إذا ما دعا الداعى أو علا صوت النفير. وكنى عن القبيلة بالبيت إشعارًا بأن إخوته وبنى عمه هم الملاذ الذى يأوى إليه ويجد فيه راحته وسكناه. وكنى عن "الغيبة" بأكل اللحم. وواضح أنه قد استمد هذه الكناية من ثقافته الإسلامية، فقد صور القرآن الكريم الغيبة أجمل تصوير فى قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وجاء فى السنة النبوية العطرة أن الرسول ﷺ قال لرجلين اغتابا مسلمًا : «إنى أرى خضرة اللحم على أفواهكما».

وكنى عما كان يتمناه إخوته وبنو عمه من الشر له بقوله : «زجروا طيرا بنحس تمر بى»، وكنى عما كان يتمناه لهم من الخير بقوله : «زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدًا». وواضح أن الكناية فى هذين الموضعين مستقاة مما شاع فى البيئة من مظاهر التفاؤل والتشاؤم.

وكنى عن استغنائه عنهم وقت الفاقة بقوله : "لم أكلفهم رفدا"، وكنى عن عنايته بالضيف النازل طوال إقامته عنده بالعبودية له.

فهذه كنايات عديدة عبرت عن المعانى بطريق غير مباشر، فجاءت بها فى ثوب أنيق موضح ومشخص وحامل للمقصود ومعه الدليل.

وأما القالب الموسيقى الذى اختاره الشاعر للقصيدة فهو كما ترى "البحر الطويل"، وهو بحر كانت العرب تسميه "الركوب لكثرة ما كانوا يركبونه فى أشعارهم"[1]، وقد أحسن الشاعر فى بناء قصيدته عليه؛ لأنه بحر طويل ممتد يناسب الموضوعات الجادة، ويتسع لكل المعانى التى يريد الشاعر إبرازها. ومعروف أن البراعة فى اختيار البحر المناسب للموضوع من الأمور التى يحمد عليها الشاعر؛ فقد أشار ابن طباطبا العلوى -مثلاً- إلى أن الشاعر «إذا أراد بناء قصيدة، مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه والقوافى التى توافقه، والوزن الذى يسلس له القول عليه»[2]، وأشار المرزوقى -فى حديثه عن عمود الشعر- إلى «التحام أجزاء النظم، والتئامها على تخير لذيذ الوزن»[3] واشترط صاحب الصناعتين أبو هلال العسكرى -فى عمل الشعر- «أن تطلب لمعانيه وزنًا يتأتى فيه إيرادها»[4].

فالائتلاف بين الوزن والمعنى متحقق فى هذه القصيدة، الأمر الذى يجعلنا نقرر -مطمئنين- أنها من النماذج التطبيقية لنظرية الربط بين موضوع القصيدة وموسيقاها الخارجية.

وإلى جانب هذه الموسيقا الخارجية أو الظاهرة، توجد فى القصيدة موسيقا داخلية أو خفية من مظاهرها :

أولاً : اختيار الشاعر لألفاظه وما بينها من تلاؤم فى الحروف والحركات، وما فيها من دلالات وإيحاءات. وقد سبق توضيح ذلك.

---

(1) الفصول والغايات، ص ٢١٢، ٢١٣.

(2) عيار الشعر: ص ٥.

(3) مقدمة شرح ديوان الحماسة، ص ٩.

(4) كتاب الصناعتين، ص ١٣٩.

ثانيًا : تكرار بعض الألفاظ مثل أسد -سدا - لحمى - لحومهم، مجدى - مجدا، غيبى - غيبوهم، هووا - هويت، تمر بى - تمر بهم، طيرا، عبدا، مالى.

ثالثًا : الطباق الذى جاء عفو الخاطر بين (هدموا وبنيت) وبين (ضيعوا وحفظت) وبين (الغي والرشد) وبين (النحس والسعد) وبين (الغنى وقلة المال).

رابعًا : المقابلات البديعة التى أبرز الشاعر من خلالها مدى التناقض والتضاد بين موقف إخوته وبنى عمه منه وموقفه منهم، والتى اتخذت مجموعة من الصور المتنوعة على النحو الذى أوضحناه فيما سلف.

وهكذا يتضح لنا -بعد هذا الشرح المستفيض- روعة ما احتوته القصيدة من قيم موضوعية وقيم فنية. ونبل ما تدل عليه من حرص صاحبها على صلة الرحم، ومقابلة إساءة إخوته وبنى عمه بالإحسان إليهم، وحرصه الشديد على أن يعرفوا بين القبائل بالكرم، وبالقوة، وبكل المحامد التى تعلى من شأنهم، وترفع من قدرهم، وتزيد من شرفهم بين الناس. على أنها -من قبل ومن بعد- رائعة من روائع الأدب الإسلامى المعتز بصلة الأرحام أيما اعتزاز، المتمسك بالقيم الإسلامية النبيلة أيما تمسك.

ومن روائع الشعر الإسلامى :

قصيدة "الأزهر فى عيده الألفى" للدكتور حسن جاد

أرأيْتَ كيف طوى القرونَ الأزهرُ ... وأدَال عُمْرَ الدهْرِ وهو مُعمَّرُ

مرَّتْ عليه الألف لم توهن له ... عَزْمًا ولا أوهتْ قواه الأعْصُرُ

وأشَابَ ناصيةَ الزَّمانِ وَلمْ يَزَلْ ... وإهَابُه غَضُّ الشبابِ مُنَضَّرُ

اللّهُ ناطَ به الكتابَ وهَدْيَهُ ... حِفْظًا فَلا يَبْلَى وَلاَ يَتَغيَّرُ

وحَبَا كِنَانتَهُ به فأحَلَّها ... شرفًا تطولُ به السِّمَاكَ وتَظْهَرُ

هَرَمٌ منَ الأَهْرَامِ إلاَّ أنَّهُ ... حَرَمٌ يلوذُ به الحجيجُ ومَشْعَر

أبدًا تُشَدُّ له الرحالُ حَثِيثَةً ... ويُؤَمُّ بعد المسجدين ويُؤْثرُ

لا تغْتَرِرْ يَوْمًا بِصَرْحٍ شَادَهُ ... وَهْم عَلَى عقلِ البُناة مُسَيْطِرُ

ليس الذى يَبْنِى الحجَارَة مِثْل مَنْ ... يَبْنِى العقولَ النَّيِّرات ويَعْمُرُ

ما شَادَ بَانٍ فى الكنانةِ مثلما ... شَادَ المعزُّ الفاطمىُّ وجوهرُ

يا معهدًا عمَّ المشارقَ نورُه ... فَمَشَى على أضوائِه الُتَحيِّرُ

واستنبضَ الدنيا فرجعَ شرقُها ... عنه وجاوبَ غربُها الُتحضِّر

وَوعى علومَ الدين والدنيا معًا ... متوثِّب الخطواتِ لا يتعثر

وحَمَى الشريعةَ وهو حصنُ كتابها ... وبه يفيض نميرُها التَفَجِّرُ

وتعهد الفصحى فكان لسانها ... وعليه ألويةُ البلاغةِ تُنشر

كَمْ أطلعَتْ آفاقهُ مِنْ أنْجُمٍ ... زُهرٍ وكم تنساب منه الأبْحر

من كل ركن فى الشريعة يستبى ... فى العلم أفذاذَ العقول ويَسْحَرُ

من كان يلتمسُ الحقيقةَ حرَّةً ... فلديه جوهر لبها المتخيَّر

كمْ في رحـابِ الأرضِ من طلابِها　　حَجُّوا إليـه خاشعين وكـبروا

* * *

ماضَرَّ لو سَلك الشبابُ سبيلَه　　في الحق واستهدوا به واستبصروا
طلبوا الهدى من غيره فتطرفوا　　وتخبطوا في الوهم حتى كفَّروا
ولو استبانوا الرشد لم يتَشَدَّدُوا　　فالدين أسمح في الأمور وأيْسَرُ
علل النفوس خطيرة لكنما　　علل التدين والعقيدة أخطر
من ذا سواه يروض جمح نفوسهم　　بهداه وهو على الرياضة أقدر ؟
كم ذا رَمَاهُ بالتأخّر مغرض　　فهل الأصالة رجعَةٌ وتأخر ؟
حسبوا الحفاظ على التراث تحجُّرا　　فهل الحفاظُ على التُّراث تحجُّر؟
إفكٌ تورّطَ فيه كلُّ مُضَلِّل　　لمَّا تولى كِبره المستعمر
من لمْ يُؤَسِّس بالقديم جديدَه　　فجديدُه واهي الأساسِ مُزَوَّر

* * *

مرت عليه الحادثاتُ فَجازَها　　مُتجلِّدًا حينًا وحينًا يَزْأَرُ
كم قاد ثورات النضال وشبَّها　　نارًا على المستعمرين تُسعَّر
وجرى زكيًا من بواكيه دمٌ　　عَبِقٌ بأنفاس الخلود مُعطَّر
وإذا استُضيم الشعبُ أو رِيعَ الحمى　　صرَخَتْ مآذنُه وضجَّ المنْبر
من أشعَل الحرية الحمراء في　　ساحاته نُورًا ونارًا تَصْهَر؟
وملاحمًا يجثو لها تاريخه　　غُرًا بأقلام الخلود تُسطَّر

مَنْ بَـثَّ رُوحَ الوغـىَ حُـرًا لم يَـزَلْ ... يلـدُ البطـولاتِ التـى لا تقهـر؟
إنَّ الموكَّـلَ بـالحنيف وهديـه ... أحـرى وأخلق بالجهـاد وأجـدر

* * *

يـا أزْهَـر الماضى المجيـد تَحيَّـةً ... النَّـدُّ فَـوْحُ أريجهـا والعَنْبر
غَـرَّاءَ يوجبُهـا الوَّفـاءُ وَذِمَّـةً ... ترْعـى الحقـوقَ ومِنَّـةً لـك تُشـكر
أنا مِـنْ غـراس يَدَيْكَ فَـرْعُ خَميلةٍ ... كَرُمتْ منابتُهـا وطَـابَ العنصـر
يَجْـرى البيـان الحقِ فـى أعراقهـا ... عذبًـا فتُطلـع نابهيـه وتثمـرُ
تتفيـأ الفصحـى ظليـل ظلالهـا ... وغصونهـا للعبقريـة مزهـر
مـاض عليـه مـن الجـلال مهابـةُ ... يحنـو لهـا المختـال والمتجـبّر
إنـى لأذكـره فيُبهَـر خـاطرى ... والمجـد حقًا مـا يَـروع ويبْهـر

***

لبيـك شيخَ الجامعـات ومَـنْ بـهِ ... مصرٌ علـى الدنيـا تتيـهُ وتَفْخَـر
كنـتَ السـماء منـارة ومكانـة ... طلـع الشيوخُ بهـا نجومًـا تَزْهـر
كـانوا ملوكًـا للملـوك وكلُّهـم ... فـى وجـه طغيـان الملوك غضنفـر
لم يُغرهـم جـاهٌ ولا أزْرَتْ بهـم ... دُنْيـا ولا اسْـتَهْوَاهُمُوا مـا يُنْكَـرُ
من مدَّ فـى وجـه الخديـوى رِجْلُـه ... زهـدًا وضـم يديـه وهـو المقْـتر؟[1]
من صير الأمراءَ فـى سُوق الحِمَى ... سـلعًا تَقُـوِّم قَبْـلَ أن يتـأمّروا[2]

---

[1] هو الشيخ الباجورى الذى لم يحفل بالخديوى حين زار حلقته وكان يمدُّ رجليه فلم يضمهـا ثم إنه لم يقبل هدية الخديوى التى بعث بها إليه مع فقره.

[2] هو العز بن عبد السلام سلطان العلماء الذى أفتى ببيع أمراء المماليك واعتبرهم من مال بيت المسلمين.

والراسخُ الإيمانِ ليس يُخيفُهُ ... من دهره إلا العليُّ الأكبر
والعلم كان مناهلا يَرْوى الصَّدَى ... ظمآنه منها وعَنْها يَصدُر
حلقاته الغَرَّاء حول شيوخه ... هالاتُ أقْمارِ سَناها أقمر
كانت خلايا النحل عند دويّها ... وبها جَنَاها الرحيقُ السُّكَّرُ
وبساحها شتى المذاهب تلتقى ... فالسَّاحُ حشدٌ والأئمةُ حُضَّرُ
تغشى مجالسها الملائكُ خُشَّعًا ... وَيَحفُّها مدد السماء النيِّر
وتعمُّها النفحات من أنفاسها ... وكأنها المسكُ الفتيقُ الأزْفر
فالعلمُ قَصْدُ الطالبين لذاته ... لا يُبْتَغَى جاهٌ به أو مظهر
ما باله أضحى غثاء تجارةٍ ... تلغو بها سوقٌ ويلهُو متجر
عَمَّتْ معاهدَةُ الدائن والقُرى ... أتُرى كمظهرها يسرُّ المخبَرُ ؟
وَترَى بكلِّ مدينة كلية ... أتُرى كمنظرها يَروقُ الجوهر ؟

....

....

قالوا التَّطُوَّر قلتُ صِبغٌ حائلٌ ... إنَّ الأصيلَ الحرَّ لا يتطور
أمِنْ القُشور الهامشية يُرْتجَى ... عِلْمٌ سَوِىٌّ أو سُلوكٌ خَيِّر ؟
لا يخدعَنْك بها كتابٌ أبيضٌ ... من بعد ما هُجِر الكتابُ الأصفرُ

يا أزهَرَ الماضى وكَمْ فى النَّفْس من ... ذكرى يُؤَججُها أسى وتَحسُّر
عذرًا إذا شط اليراع فأَنْتَ مَن ... يعفو إذا شط اليراعُ ويعذر
عَقدت لِسانك عُجْمةٌ وَلَطَا لما ... قد كان باللغة الفصيحة يَهدرُ

مَنْ أهملَ القرآن حفظًا غالَهُ ... عِيُّ اللسانِ الأعجميِّ فيُحصَرُ

جيلٌ لعمرك مَا يُصحِّحُ آيةً ... حتى غدَتْ مِنْه المنابرُ تسْخَرُ

نفثات أشجانٍ زَحمْنَ مشاعرى ... ومن الشجون مقيّدٌ ومُحَرَّر

أَشْدو وفى عينى وبين جوانحى ... دَمْعٌ يجولُ ومُهْجَةٌ تتفطَّر

لكننى فى عيدك الألفى لا ... أنسى الرجاء فربَّ كسْرٍ يُجْبَر

مهما نظمتُ لك الوفاءَ وصُغْتُهُ ... درًّا فإنى فى الوفاء مقصر

يكفيك أنك أنت مصرُ ومجدها ... يوم الفخار وأن مصرَ الأزهرُ

هذه القصيدة رائعة من روائع الأدب الإسلامى، ومطولة بديعة من مطولاته الجديرة بالعناية والتقدير. وقد آثرتها من بين المطولات بالدراسة والتحليل لاعتبارات شخصية وموضوعية :

أما الجانب الشخصى : فصاحبها علم بارز من أعلام الأزهر الشريف، وزهرة يانعة من بستانه الفواح، تعلم فيه طالبًا، وتخرج منه ثائرًا وعالمًا وكاتبًا وشاعرًا وناقدًا، وقد صحبته -رحمه الله- زمنًا من عمرى، تتلمذت فيه على يديه، وتعلمت منه كيف أنقب عن العلم، وكيف أصوغ ما أكتب بأسلوب أدبى رشيق، فأصبح له فى ذمتى الوفاء والعرفان بالجميل الذى تعد هذه الدراسة لتلك المطولة مظهرًا من مظاهر هذا الوفاء، ولاسيما أن الشيخ الجليل كان يود أن يصاهرنى لكن إرادة الخالق حالت دون رغبتى ورغبته، على أنه -رحمه الله- قد طوق عنقى بأبيات قدّمنى بها إلى الحضور يوم عقدت الجلسة العلمية لمناقشتى فى رسالة الماجستير التى أشرف عليها عن "محمود أبى الوفا : حياته

وشعره"، وهى أبيات تعد هى الأخرى من روائع الشعر الإسلامى، لأن مدحه لى فيها مدح صادق لا تملق فيه ولا نفاق، وهل يتملق أستاذ تلميذه الخالى من المناصب والأموال وقتذاك؟

قال -رحمه الله، وجعل الجنة مثواه- :

نابه ما فيه نقص　　　أيها المحصون أحصوا

شعلة تذكو نشاطا　　　وعلى العلم يلصُّ

وله فى كل بحر　　　من شباك الفن شص

صح من كل زحاف　　　غير أن الاسم وقص

لم يزل يسمو ويسمو　　　عابد الجواد محص

ثم إن الرجل كانت لى معه ذكريات عزيزة يطول فيها القول، وليس مكانها هنا.

وأما الجانب الموضوعى : فهو أن القصيدة تحتفى بالعيد الألفى لأزهرنا العريق .. تلك القلعة الشامخة ذات الرسالة الإسلامية العالمية التى تستمد عالميتها من عالمية الإسلام، وتقدم عصارة فكرها ونتاج بحوثها خدمة للأمم والشعوب.. القلعة ذات التاريخ العريق، القلعة التى حمت على امتداد ألف عام ويزيد تراثنا الإسلامى، ولغتنا الفصحى، وأدبنا الرفيع .. القلعة التى كانت وما تزال تستقبل أبناء المسلمين من كل أنحاء المعمورة، لينهلوا من وردها العذب، ويغترفوا من بحرها الفياض .. القلعة التى تخرج منها صاحب القصيدة .. وصاحب الدراسة ... وغيرهما من أعلام الأزهر الأجلاء.

وموضوع القصيدة كما ترى : احتفاء من الشاعر بالأزهر فى عيده الألفى، وتصوير لدوره الرائد فى حضارة الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا وفى كل

العصور. وهو موضوع من أنبل الموضوعـات وأشرفها، و لم لا يكـون كذلـك وهـو يتحـدث عـن الأزهـر الشـريف الـذى يعـد أقـدم جامعـة عرفهـا الشـرق الإسلامى، وكعبة الإسلام التى يحج إليها طلاب العلم والمعرفة مـن شـتى بقـاع الدنيا، وحصن الدين الحنيف واللغة الفصحى الذى تحطمت أمام قوته الحمـلات الإلحادية والتيارات الغربيـة الوافـدة وعواصـف اللغـات المختلفـة .. ومعلـوم أن الأزهر الجامع قد أنشأه القائد الفاطمى "جوهر الصقلى" فى قلـب القـاهرة بعـد بنائها بأمر من "المعز لدين الله الفاطمى"، وبدأ بنـاؤه سـنة ٣٥٨هـ، واسـتغرق عامين، وسمى "الأزهر" إشارة للقب السـيدة "فاطمـة الزهـراء" بنـت النبـى ﷺ التى تنسب إليها الدولة الفاطمية. و لم يكن الأزهر جامعًا تقـام فيـه الصلـوات فحسب، وإنما كانت تعقد فيه حلقات العلم والوعظ والتوجيه، ومـازال يتطـور حتى أصبح جامعًا وجامعة كبيرة فى القاهرة وله كلياته العديدة المتفرعة عنه فـى أقاليم مصر. وكان أول ما درس فيـه فقـه الشيعة وإلى جانبـه العلـوم الرياضيـة والفلكية والطبية والجغرافية. ثم لما قامت الدولة الأيوبية على أنقاض الفـاطميين أسرفت فى القضاء على كل أثر للشيعة، ومن ثم فقد الأزهر كل مظهر كان له حتى صلاة الجماعة، وعطلت فيه الدراسة مائة سنة، ثم عادت فى عهد الظـاهر "بيبرس". والمسترعى للانتبـاه أن الأيوبيـين حـين عطلـوا الدراسـة فـى الأزهـر، وأنشأوا مدارس أخرى لم ينقص ذلك من قدره، وإنما تخـرج فـى هـذه المـدارس أعلام على طائفة من علماء الأزهر تولوا التدريس فيها، و لم تكن هـذه المـدارس إلا امتدادًا لدور الأزهر فى تنمية الثقافة العربية والإسلامية. وبعد سقوط بغـداد سنة ٦٥٦هـ، وغارات التتار على الشام التى تتـابعت إثـر هـذا السـقوط هـاجر كثير من علماء العراق والشام إلى مصر، فعاشوا فى كنف المـاليك مـع علمـاء مصر الذين تخرجوا فـى الأزهـر، وعمـل هـؤلاء وأولئـك على تجديـد الـتراث

الإسلامى، وأوقف المماليك والأمراء والأعيان الأموال والأراضى على العلماء والطلاب، فتدفق طلاب العلم على الأزهر من أرجاء العالم الإسلامى. وظل المماليك يوالون عطفهم على الأزهر، والعلماء يؤلفون ويعملون ليجعلوا من مصر أعظم مركز ثقافى للإسلام ولغة العرب. ولم تكن مهمة العلماء علمية فحسب، بل كانوا -أيضًا- قادة الحركات التحررية، وزعماء الثورات، والقوة التى يخشاها أمراء المماليك، ومن ثم كان يلوذ بهم المظلوم ليجد فيهم كل عون يدفع عنه الضيم، وظل الأزهر كذلك حتى كان عهد العثمانيين الأتراك، فجردوا مصر من مظاهر الحياة، ونقلوا إلى تركيا العلماء والصناع والمهرة، واستولوا على الأوقاف المحبوسة على الأزهر، فمكث الأزهر يكافح هذا الليل، ويدرس علوم الدين واللغة العربية فى صمت حتى دهمت الحملة الفرنسية البلاد بقيادة الملعون "نابليون بونابرت" سنة ١٧٩٨م، فقاد الأزهر الأمة للدفاع عن كيانها، وبدأ هذا الدور الدفاعى المشرف منذ اليوم الأول الذى كشف فيه "نابليون" النقاب عن أحلامه التوسعية الاستعمارية، وسياسته الغاشمة المستبدة بفرض الضرائب الباهظة، والإمعان فى أساليب القهر، وإعدام الأبطال الأحرار كالسيد محمد كريم، فازدادت نفوس المصريين غضبًا، وثار الشعب كله فى وجوه الغزاة الطامعين المستبدين، وكان الأزهر مركزًا للثورة، ومنبعًا لحركات الجهاد، ومن ثم أدرك الغزاة خطورة الأزهر، فأطلقوا مدافعهم من تلال المقطم على حى الأزهر والأحياء المجاورة له، واقتحموا الجامع الأزهر بخيولهم وعاثوا فيه فسادًا، ونكلوا بالكثير من أبنائه الأحرار، لكن الأزهر مضى يكافح ويتزعم حركة الثائرين، وأدى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف دورًا تاريخيًا رائعًا، وانقض طالب سورى يدعى "سليمان الحلبى" كان يدرس فى الأزهر على القائد الفرنسى "كليبر" فطعنه بخنجره، وأرداه صريعًا فى حديقة منزله يوم ١٤

يونيو سنة ١٨٠٠م. وأكبر دليل على إدراك الفرنسيين لخطورة الأزهر وقتئذ : أن نابليون أنشأ ديوانًا يتقرب به إلى الشعب المصرى ويخطب ود الأزهر والأزهريين، واختار فيه عشرة من المشايخ هم : عبد الله الشرقاوى، والبكرى، والصاوى، والفيومى، والمهدى، والمرسى، ومصطفى الدمنهورى، وأحمد العريشى، ويوسف الشبراخيتى، ومحمد الدواخلى، على أنه قد أمر المصورين الفرنسيين بأخذ صور لهؤلاء العشرة الأجلاء، و لم تزل هذه الصور محفوظة حتى الآن فى معرض (فرساى) بفرنسا.

وحين تولى محمد على باشا حكم مصر استعان بالأزهر، واعتمد على كواهل أبنائه فى بناء النهضة التى أرادها للبلاد، إذ اختار منهم البعوث وطلبة مدرستى الألسن والطب، وعين العلماء للتدريس فى المدارس التى أنشأها، واختار منهم مصححين للكتب المترجمة، وكان منهم مثلاً لا حصرًا الشيخ رفاعة الطهطاوى، الذى رأس البعثة التعليمية التى أرسلها محمد على إلى فرنساعام ١٨٢٦م، واشتغل بالترجمة من الفرنسية إلى العربية بعد عودته، وألف كتاب "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" الذى وصف فيه مشاهداته فى فرنسا أثناء البعثة، كما كان منهم الدكتور النبراوى أحد نوابغ الطب، والكثير من رجال الهندسة والحربية.

وظل الأزهر عماد النهضة فى عهود أبناء محمد على الذين توالوا على حكم مصر، وامتدت إليه يد الإصلاح والتجديد والتطور خلال هذه العهود، وكان منها تنبه الشيخ محمد عبده إلى نقص علوم الأزهر. فنادى بوجوب التوسع، وكان من ثمار دعوته استصدار قانون يقضى بذلك فدرس الطلاب إلى جانب ما كان يدرس من قبل : مصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض، وشجع الطلاب على دراسة هذه العلوم بمكافآت مالية. و لم يزل الأزهر يتقدم

ويساير النهضة فى جميع تطوراتها حتى صار اليوم من أكبر الجامعات فى العالم، تدرس فيه كل أنواع المعرفة، من فقه، وتفسير، وحديث، وعقيدة، وفلسفة، وقانون، ونحو وصرف وبلاغة وعلوم أدبية، وطب وهندسة وصيدلة وزراعة وإعلام ولغات أجنبية وتجارة واقتصاد .. وغير ذلك من العلوم التى أقيمت لها كليات متخصصة ومعاهد دينية فى القرى والمدن تغذى هذه الكليات بأبنائها وبناتها .. وكان لقانون التطوير الصادر عام ١٩٦١ فى عهد الزعيم جمال عبد الناصر بالذات عميق الأثر فى هذا التطور الكبير. فدور الأزهر فى صيانة التراث العربى والإسلامى، والجمع بين علوم الدين والدنيا واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار، وحسبه أنه المنهل الذى ورده كل أديب وعالم، والقوة الموجهة التى أذكت حماس المناضلين فى الثورة ضد الفرنسيين أثناء حملتهم التى أشرنا إليها، وفى ثورة ١٩١٩ ضد الإنجليز، وفى أحداث كوبرى عباس أيام الملك فاروق، وهو الآخذ بيد النهضة الحديثة منذ بدأت فسما بها واعتلى فى إيمان وثقة، وهو الصرح الشامخ الذى يحفل تاريخه الطويل بالعلماء والأعلام الذين ملأ صوتهم وصيتهم الشرق الإسلامى، بل العالم كله من أمثال الشيخ عبد الله الشرقاوى، والشيخ محمد الأمير، والشيخ محمد عبده والإمام المراغى، والشيخ شلتوت، والشيخ عبد الرحمن تاج، ومصطفى عبد الرازق، والشيخ الظواهرى، ومحمد الفحام، وحسن مأمون، وبيصار، والشعراوى، والشرباصى، وسيد سابق، والغزالى، والشيخ دراز، والشيخ طنطاوى، والدكتور أحمدعمر هاشم، والشيخ جاد الحق والشيخ أحمد المحلاوى، والأحمدى أبى النور، ومحمد بن فتح الله بدران، والطيب النجار، وعبد المتعال الصعيدى، وغيرهم من لآلئ العلم التى انتظمها عقد الأزهر الثمين.

هذه الصفحات المشرقة من تاريخ الأزهر فى العلم وفى النضال كانت

كلها متمثلة فى ذهن شاعرنا الراحل الدكتورحسن جاد، وهو يدبج القصيدة العصماء التى سلفت، فرأيناه وهو يحتفى بمرور ألف عام على إنشاء هذا الصرح الدينى العلمى الشامخ يصور دوره التاريخى النضالى المشرف، ورسالته الحضارية الخالدة فى تنوير العالم، والحفاظ على القرآن والسنة ولغتهما الرشيدة. ويذكر كيف جاب الأزهر الشريف الحقب والقرون مسجلاً على امتداد ألف عام أزهى صفحات التاريخ، ومازال حتى اليوم يواصل أداء رسالته السامية التى تجوب الدنيا شرقًا وغربًا. وينتقل الشاعر فيذكرأن الحق تبارك وتعالى قد خص الأزهر الميمون بالحفاظ على قرآنه المجيد، فسمت به مصر وحدها من بين الأمم والشعوب بالعزة والشرف والمجد، فصار العالم بأسره يردد ذلك النشيد الذائع: مصر الأزهر، والأزهر مصر.

وينتقل الشاعر فيذكر : أن الأزهر هرم عظيم، لأنه يجمع فى رسالته بين علوم الدين والدنيا، يأتى إليه الناس من كل صوب للنهل من ورده العذب، والاغتراف من بحره الوافر الفياض، ويستشعرون وهم يؤمونه أنهم يشدون إليه الرحال كما تشد إلى الحرم المكى، والحرم المدنى، والمسجد الأقصى، فله من الجلال والهيبة والقداسة ما لهذه المساجد الثلاثة.

وينتقل فيذكر أن الأزهر يتفوق ويتميز عن سائر القمم والعجائب التى شادها بنو الإنسان بأنه قمة هذه القمم وأبدعها، وأعجب هذه البدائع وأروعها، لأنه صرح فكرى يبنى العقول، ويهذب النفوس، ويصلح الأرواح بالعلوم الإسلامية الأصيلة، والمعارف الدنيوية الراقية، بينما القمم والعجائب الأخرى -ومنها أهرامات الفراعنة- قائمة على فن التشييد، وهندسة الحجارة فحسب.

وينتقل فيذكر أن الذى شاد هذا الصرح الشامخ بطلان عظيمان من

أبطال الإسلام : المعز لدين الله الفاطمى الذى أمر ببنائه، وجوهر الصقلى الذى نفذ هذا الأمر .. وتلك إشارة تاريخية تومئ إلى العرفان بالجميل والتقدير لهذين البطلين الكبيرين.

وينتقل فيشير إلى دور الأزهر فى نشر نور العلم، وهداية الحيارى، وحفظ العلوم الدينية والدنيوية، وحماية الشريعة الإسلامية، وتعهد اللغة العربية الفصحى، والحفاظ على فصاحتها وبلاغتها، والدفاع عن الحق والحقيقة، وإمداد الأمة بالعلماء النحارير الأفذاذ.

ويتناول بعد ذلك قضية من أبرز القضايا المعاصرة هى قضية التطرف التى لا يذكرها صراحة، بل يشير إليها ويلمح من خلال أبياته التى ينصح فيها شباب اليوم أن يسلكوا سبيل الأزهر فى طلب الحق والحقيقة، لأنهم إذا نهجوا غير نهجه انحرفوا وتخبطوا فى التيه والجهل والضلال، واتهموا غيرهم -كما يشاهد من بعضهم- بالكفر والإلحاد، ولو تعلموا فى الأزهر لعرفوا ما فى الإسلام من يسر وسماحة، وسيبتعدون حتمًا عن التعصب والتشدد والتطرف والتخبط.

ثم ينتقل فيشير إلى حملات الأعداء المستعمرين وأذنابهم على الأزهر، حين اتهموه واتهموا أهله بالتحجر والتأخر والرجعية وعدم مجاراة روح العصر والمدنية الحديثة، وذلك -فى مرآة الشاعر- أبطولة وافتراء، لأن ما يسمونه تجديدًا لا تكون له قيمة إذا تخلى عن التراث القديم العريق الأصيل .. التراث الذى تعتز به الأمة الإسلامية، ويحافظ عليه الأزهر ليصل حاضرنا بماضينا ولا يبتره عن أساسه وجذوره كما يريد أصحاب هذا الاتهام.

وينتقل فيتحدث عن صمود الأزهر للمصائب والنكبات وعن دوره العظيم فى موكب الكفاح الوطنى ضد الغزاة، فيوضح أن الأزهر قد تصدى

للأحداث والمحن والفتن، فانتصر عليها كالأسد المصور، يحطم أعداءه، ويقضي على أحلامهم في القضاء عليه.

كما أن كثيرًا من ثورات النضال في سبيل الحرية والاستقلال قد انطلقت من ساحاته، وكانت نارًا متأججة يكتوى بسعيرها المحتلون الغاصبون، وقد سقط في هذه الثورات كثير من أبنائه الذين جادوا بأرواحهم، واستشهدوا في سبيل أمانيهم الغالية. وكان الأزهر -وما يزال- هو الصوت الداعي إلى الجهاد كلما جدت دواعيه، فإذا أصيب المسلمون بضيم أو استبيح حماهم صرخت مآذنه منادية بالكفاح لدفع الظلم، والحفاظ على عزة الإسلام والمسلمين، وإنه ليشعل "الحرية الحمراء" في ساحاته وهي مغموسة بدماء الشهداء، يصطلي بنارها الأعداء، فيعم نوره على الأمة الإسلامية، فكم خرجت أعمدته من الأبطال والزعماء، وكم نسجت أقلامه الملاحم والبطولات المظفرة وهو يحمل ألوية الجهاد، وينشر رايات العلم، ويحمل على كاهله مسئولية الدفاع عن الإسلام ومحاربة الجهل، وعدم الوعي.

وينتقل الشاعر فيوجه للأزهر تحية إعزاز وإجلال وتقدير ووفاء، ووقار ومهابة، وشكر وثناء، وعرفان بالجميل؛ لأنه تعلم فيه، وتخرج منه، وكان زهرة يانعة من بستانه الكريم المنبت، الطيب العنصر، وكان ثمرة طيبة من دوحته الغناء التي يجري البيان الأصيل في جذورها عذبًا فراتًا فتنبت ثمرًا شهيًا طيبًا يتمثل في علمائه العباقرة ذوي الفصاحة والبلاغة في القول والتعبير.

وينتقل فيناجي الأزهر شيخ الجامعات وأقدمها قاطبة موضحًا في مناجاته له أن مصر الكنانة قد شرفت به عزًا وفخرًا بلغت به عنان السماء فازدانت بشيوخه وأعلامه نجومًا متلألئة زاهرة، وأن هؤلاء العلماء الأفذاذ كانوا أصحاب مكانة عالية بين الناس في العصور الغابرة، فكانوا ملوكًا للملوك،

وكانوا كالأسود فى مواجهة الحكام الطاغين المستبدين، لا يهابون فى الحق أحدًا، ولا يخافون لومة لائم، ولا يقعدهم عن أداء رسالتهم رهبة من سلطان حاكم أو رغبة فى جاه ومنصب يغريهم به أولو الأمر، فأحدهم مثلاً وهو الشيخ الباجورى كان يمد رجليه فى حلقة التدريس، ودخل عليه الخديو زائرًا حلقته، فلم يحفل به، ولا ضم رجليه، وإنما ظل على حاله لا يلقى له بالاً، ولا يخشى من صولجانه، على أنه لم يقبل هدية هذا الخديو التى بعث بها إليه مع فقره الشديد إلى مثلها، ولكنها عزة العلماء الأجلاء، وزهدهم فى متاع الدنيا الفانى، أما سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقد أفتى ببيع أمراء المماليك واعتبرهم من مال بيت المسلمين، وهذه فتوى صحيحة جريئة من عالم قوى الإيمان لا يخشى إلا الله يقلب سلعة السلاطين المماليك حكام عصره فى سوق النخاسين، حتى يتحرروا من رقهم، فتصح منهم الولاية والإمارة، لأن الحاكم فى الإسلام لابد أن يكون حرًا غير مملوك.

وينتقل فيتحدث عن العلم الراوى لظمأ النفوس، وعن حلقاته العديدة، ورواده الذين تسمع أصواتهم فى ساحات المسجد وكأنهم خلية نحل تتعدد فيها المذاهب الفقهية، والاتجاهات العلمية، والتيارات الفكرية، وكلها حلقات تباركها السماء، ومجالس تحفها الملائكة، وتعمها النفحات الربانية، لأن أصحابها مخلصون فى طلب العلم، لا يرجون من ورائه جاهًا ولا ربحًا ولا تجارة، وإنما يبتغون مرضاة الله والتزود بنور العلم فقط.

ويقود هذا المعنى الشاعر إلى التعجب من حال العلم وطالبيه اليوم، إذ صار حرفة يتكسب بها، وتجارة هادفة إلى الربح المادى الدنيوى !! ويذكر أن المعاهد الدينية والكليات الأزهرية قد انتشرت فى أنحاء الوطن بين المدن والقرى شرقًا وغربًا، ولكن هذه الكثرة يختلف ظاهرها عن باطنها، فهى من حيث

المظهر رائعة بديعة، ولكنها من حيث الجوهر مدعاة للحسرة بعد أن تغيرت الأحوال والأوضاع فى الأزهر بصدور قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١ الذى أنشأت بمقتضاه كليات للعلوم الدنيوية كالطب والهندسة والصيدلة والزراعة ونحوها، وكليات للبنات، ودرست بمقتضاه فى المعاهد الأزهرية جميع المواد الثقافية التى تدرسها مدارس وزارة التربية والتعليم فى مصر، إذ يرى الشاعر أن هذا التطوير صبغ حائل يزاحم العناية بالعلوم الشرعية والعربية، على أن الأزهر الأصيل الحر لا يتغير ولا يتطور، ثم إن ما يقدم لطلاب الأزهر اليوم -فى رأى الشاعر- مجرد قشور هامشية لا تقدم علمًا سويًا ولا سلوكًا خيرًا، بعد أن حلت الكتب القاصرة البيضاء التى يؤلفها المعاصرون محل الكتب الصفراء التى حشاها أسلافهم بكنوز العلم ولباب المعارف، كحاشية التفتازانى على السعد فى البلاغة، وشرح أبى الحسن فى الفقه المالكى، والأشمونى فى النحو .. وما ماثل ذلك من الكتب القديمة التى قلما يجود الزمان بمثلها.

ثم يختتم الشاعر مطولته بمناجاة يعتذر فيها لشيخه وإمامه "الأزهر الشريف" عن زلات اللسان والقلم التى لا يتحرز عنها هيمان الشاعر، ويعود للأسى والتحسر على حال الأجيال الحديثة من أبناء الأزهر، إذ عقدت العجمة ألسنتهم عن الفصحى لغة القرآن والسنة فى عىّ وعجز، لأنهم أهملوا تعهد القرآن الكريم بالحفظ والمراجعة، فغدت المنابر تشتكى من اللحن، وتسخر من الخطباء اللاحنين. ثم يشير إلى أن نقده لأوضاع الأزهر وحال الأزهريين اليوم ما هو إلا نفثات شاعر وفى حق الوفاء لأزهره .. نفثات أليمة متحسرة يبوح بها، ودموعه تسيل، ومهجته تتمزق، ونفسه تطمح إلى عودة تلك القلعة الشماء إلى ما كان عليه الأزهريون القدماء فى العلم والعطاء والعمل والأداء والنبوغ والعبقرية .. لأن الأزهر الذى لم يعطه حقه من الوفاء بتلك القصيدة

التى احتفت به فى عيده الألفى هو فخر مصر، ومناط اعتزازها، ويكفى أن الأزهر هو مصر، وأن مصر هى الأزهر.

تلك هى المعانى والأفكار التى ألم بها الشاعر فى هذه المطولة .. وكلها معان وأفكار تفيض بها تجربة شعورية صادقة نبيلة معتزة بالأزهر وفية له حريصة على ازدهاره، محتفية بماضيه العريق وبعيده الألفى. والأفكار بصفة عامة تتسم بالعمق والوضوح والترتيب والتسلسل والصدق؛ لأنها -كما قلت- وليدة تجربة شعورية صادقة، لأن الشاعر معتز بالأزهر، وفى له، غيور عليه، حريص على رفعته وازدهاره.

وقد دارت الأبيات كلها حول موضوع واحد هو "العيد الألفى للأزهر" والشاعر بطرقه لهذا الموضوع ينضم لموكب الشعراء الذين دبجوا فى الأزهر الشريف قصائد عصماء تتناول مكانته السامية، ودوره العلمى الرائد بين جامعات العالم، ورسالته الإسلامية الكبيرة من أمثال أمير الشعراء أحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وأحمد محرم، وإبراهيم نجا، ومحمود غنيم، وعزت شندى موسى، ومحمد عبد المنعم، وسعد ظلام، والدكتور أحمد عمر هاشم، وعبد السلام سرحان صاحب "ملحمة الأزهر" التى جاءت فى أربعمائة بيت، وغيرهم .. الأمر الذى يجعلنى أوصى الباحثين المعاصرين بأن يكتب أحدهم رسالة علمية جامعية عن هذا الموضوع المهم .. موضوع "الأزهر الشريف فى مرآة الشعراء المعاصرين : دراسة موضوعية وفنية"، وأسأل الله أن يمكننى من الكتابة حوله فى المستقبل.

ومما لا شك فيه أن موهبة الشاعر قد أبدعت المعانى والأفكار السابقة فى تصوير فنى حى ينبض بالقوة والروعة والحيوية، ويعتمد على التشخيص لتلك المعانى والأفكار .. والتشخيص تشخيص حى غنى بالظلال والألوان،

وخصيب بالجيشان والحركة، والصور البيانية التى استعان بها الشاعر لتحقيق غرضه والتأثير فى المتلقى صور كثيرة متنوعة بين التشبيه والاستعارة والكناية .. وكلها قريبة التناول سائغة، لا التواء فيها ولا قسر.

ومن التشبيهات الرائعة -مثلاً- : تشبيه الأزهر فى الشموخ والخلود بأهرامات الفراعنة، لكنه هرم مقدس آخر غيرها يؤمه العلماء وطالبو المعرفة كما يؤم الحجاج بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج، وتشد له الرحال كما تشد للمساجد الثلاثة المباركة المقدسة عند المسلمين. وكذلك تشبيهه لشيوخ الأزهر بالأقمار المنيرة الساطعة، وتشبيهه لحلقات العلم فيه بخلايا النحل المدوية ذات الرحيق السكر، وتشبيهه للنفحات السماوية التى تعم هذه الحلقات بالمسك الفتيق الأزفر.

ومن الاستعارات الجميلة : تصويره للأزهر جيشًا إسلاميًا قويًا يستمد أسلحته من القيم الإسلامية الرفيعة، يجوب القرون، ويديل العمر لا يخرب ويدمر، وإنما يبنى ويعمر، ويملأ الدنيا علمًا وقيمًا وحضارة حتى شابت نواصى الزمان، وما زال هو غض الشباب، نضر الإهاب، يحافظ على كتاب الله ولغته الفصحى، فيزداد كل يوم نضارة وحيوية وقوة وشبابًا، فلا يبلى ولا يتغير. وأيضًا تصويره المشخص للأزهر فى صورة عالم بصير من الجهابذة، قد وعى علوم الدين والدنيا، وحمى الإسلام الحنيف، وتعهد الفصحى، وحافظ على بلاغتها. كذلك تصويره للأزهر أسدًا هصورًا يزأر فى تصديه للأحداث والنائبات والفتن. وجعله مآذن الأزهر ومنبره كائنات حية تصرخ بدعوى الجهاد لدفع الظلم والحفاظ على عزة الإسلام والمسلمين، وإبرازه لشيوخه وأعلامه فى صورة نجوم متألقة زاهرة تتلألأ فى سماء الأزهر، وإبرازه لهؤلاء الأعلام فى صورة الأسود الواثبة بقوة وبسالة على الطغاة المستبدين.

ومن الكنايات المعبرة عن المعنى مصحوبًا بالدليل عليه لإثباته وتأكيده : الكناية عن الأزهر مرة بـ "شيخ الجامعات" ومرات بما هو قريب من ذلك.

على أن أروع ما تضمنه النص من التصوير الفنى الساحر : تصويره للأزهر بالخميلة التى كرمت منابتها وطاب عنصرها وجرى البيان الحق فى أعراقها عذبًا.

والقصيدة بصفة عامة : موكب متلاحق من الصور الفنية الناتجة عن امتزاج أفكار الشاعر بعاطفته .. وهذا الموكب المتلاحق من الصور الفنية قد آزرته ألفاظ رقيقة موحية، وأساليب متنوعة بين الخبر والإنشاء، ووزن موسيقى حلو الإيقاع، وقافية مطلقة رائعة النغم.

هذا وتعد هذه القصيدة معارضة لقصيدة شوقى التى دبجها حين هز إصلاح الأزهر شاعريته، فانطلق يتحدث عنه، ويذيع على الدنيا أمجاده، ويذكر بتاريخه، ويكشف عن مكانته فى الأجيال والعصور بقوله :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكان الدر إن فصلته ... فى مدحه خرز السماء النيرا

واذكره بعد المسجدين معظما ... لمساجد الله الثلاثة مكبرا

واخشع مليا واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا

كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانا وأفخم مظهرا

... إلخ ما قال.

فالقصيدتان متفقتان فى الوزن وحرف الروى والموضوع، غير أن حركة حرف الروى ليست واحدة، كما أن حسن جاد أطول نفسًا بكثير من شوقى، ولكن شوقيًا له فضل السبق.

ولعل معارضة حسن جاد لشوقى هى التـى جعلته يتـأثر كثيرًا بمعـانى شوقى فى قصيدته، حيث أخذ هذه المعانى، وحورها وقدمها فى ثـوب جديـد، ولم يقع عليها وقع الحافر على الحافر، وإلا عددناه سارقًا. وفى إمكان القـارئ الدارس الوقوف على هذا بالموازنة بين معانى الشاعرين.

والخلاصة : أن هذه القصيدة أنموذج رفيع المحتوى والمستوى مـن نمـاذج الشعر الإسلامى المطول .. بل رائعةمن روائع هذا الشـعر بمضمونهـا الإسـلامى الرفيـع، وقيمهـا الخلقيـة التـى صورتهـا، ثـم باسـتيحاء الشـاعر للعديـد مـن المصطلحات الإسلامية كالحرم ومشـاعره، والمسـاجد الثلاثـة التـى تشـد إليهـا، والمذاهب الفقهية، ونحو ذلك،

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

غير موجودة

من أصل

المصدر

× الصفحات من ١٨١ الى ١٩٤ غير موجوده باصل الرسالة

ومن روائع الأدب الإسلامى :

قصيدة الفرزدق فى هجاء إبليس

- دراسة تحليلية -

يذكر الذين ترجموا للفرزدق أنه عاش ما يقارب القرن من الزمان، وأن أخلاقه تتصل بالأخلاق الجاهلية على الرغم من ولادته ونشأته فى ظلال الدولة الأموية -وهى من الدول الإسلامية- فقد عاش عمره الطويل الممتد يمارس الفسق، ويشرب الخمر التى حرمها الإسلام، ويرتكب الفاحشة، ويحضر مجالس المغنيات، ويقذف بشعره المحصنات، ويتعدى حدود الله، واشتهر بين الناس بفسقه، وبحدة لسانه، وحبه للخصومات، وهجائه لمن حوله هجاءً عنيفًا مقذعًا، فعاش الناس يخشون معرة لسانه، ويهابون سلاطته، ويحذرون من فحش كلامه، وكثرة استهتاره بأعراض العباد، وأحكام الدين[1].

ويستدل الذين يصفونه هذا الوصف بشواهد عديدة من حياته وأخباره وأشعاره، ويذكرون -فى هذا الصدد- نقائضه المقذعة فى الهجاء مع جرير بن عطية الخطفى، وأشعاره الدالة على إنفاقه أيامه ولياليه فى اللهو والاختلاف إلى دور القيان، كقوله -مثلاً- :

إذا شئت غنانى من العاج قاصف   على معصمٍ ريّان لم يتخدَّدِ[2]

وقوله :

هما دلّتانى من ثمانين قامةً   كما انقض بازٍ أقتمُ الريش كاسرُه[3]

---

[1] انظر : الفرزدق للدكتور شاكر الفحام، ص ١٦٦ وما بعدها، ط. دار الفكر.

[2] ديوان الفرزدق، ص ١٣٩، ط : دار الكتب العلمية ببيروت.

[3] المصدر نفسه، ص ١٨٩.

ويقولون : إنه كان بدويًا من تميم ذا غلظة وعصبية كما كان الحال بالنسبة لأجداده في الجاهلية، وأنه عاش يتمسك بعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم الجاهلية، فقد ظل -مثلاً- يجير على قبر أبيه "غالب"، على نحو ما كان أجداده يجيرون. ولما توفى صديقه "بشر بن مروان" نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الناس قبل الإسلام، ولذلك طالما أتاه جرير -في معاركه الأدبية معه- من هذه الثغرات الثابتة له في خلقه وسلوكه ودينه[1] .

ومع تسليمي بصحة ما تقدم، وباعتراف الفرزدق نفسه ببعضها في شعره، فإن الإنصاف يحملني على الإشارة إلى أنه لم يكن في كل أشعاره بعيدًا عن الالتزام بالمنهج الإسلامي في الشعر، وبالرسالة السامية للأدب فيما ينظم من درر القول وروائع الكلام، ولا كان -أيضًا- في كل فصول حياته لاهيًا ماجنًا. وبين يديّ الآن بعض الشواهد الدالة على ذلك. إذ يروى -مثلاً- أنه التقى بالحسن البصري -فقيه البصرة وقاضيها وشيخ زهادها- في جنازة، فقال للحسن : أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس، وشر الناس ! قال الحسن : كلا، لستُ بخيرهم، ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم؟ فقال الفرزدق : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، وخمس نجائب لا يدركن. يعني : الصلوات الخمس[2] .

وفي هذا الخبر دلالة على أن عقيدته ظلت مبنية على التوحيد، وعلى أنه لم يكن منسلخًا من الدين جملة، ولا مهملاً له دائمًا.

ويروى -أيضًا- أنه قيد نفسه ذات مرة، وأقسم أن لا ينزع القيد من

---

[1] انظر : الفرزدق للدكتور ممدوح حقي، ص ٢٠، ط دار المعارف بمصر (الثالثة).

[2] انظر : السابق، ص ٢٥، ٢٦.

رجليه حتى يحفظ القرآن الكريم تحقيقًا لنصيحة الإمام على بن أبى طالب حين أشار على أبى الفرزدق أن يعلمه القرآن يوم قدّمه إليه بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ هـ، وقال له : إن ابنى هذا شاعر[1].

ولقد آتى حفظ الفرزدق للقرآن الكريم ثماره فى سلوكه على الرغم من مجونه، إذ كانت عاطفته الدينية تستيقظ فى بعض الأحايين، فيعزم على التوبة النصوح، والحياة الملتزمة بتعاليم الدين الحنيف، كما آتى ثماره فى شعره، فرأيناه يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء فى جملة من شعره، ورأيناه ينظم عددًا من القصائد المطبوعة بروح الإسلام، حيث يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب. ورأيناه يمدح بعناصر إسلامية كثيرة، بل رأينا هذه العناصر -أيضًا- فى أهاجيه ومراثيه ونحوهما من فنون شعره.

يقول -مثلاً- فى مدح زوجته النوار بعد أن ندم على طلاقها :

ندمت ندامة الكُسَعِيِّ لمّا غدَتْ منى مطلقةً نوار

وكانت جنة فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار[2]

فترى الأثر القرآنى واضحًا تمام الوضوح فى البيت الثانى، حيث شبه حياته القديمة مع زوجته بالجنة دار النعيم والسلام والمتعة والرخاء، لكنه أخرج نفسه من هذه الجنة بطلاقها، فكان حاله حال أبى البشر الذى أخرجه عصيانه ومخالفته وانسياقه وراء وساوس الشيطان من دار الخلد والنعيم.

ويقول فى مدح بشر بن مروان الذى ولى العراق لأخيه عبد الملك :

يا بشر إنك سيف ا لله صيل به على العدو، وغيث ينبت الشجرا[3]

---

[1] انظر : الفرزدق لشاكر الفحام، ص ١٢٢، ١٢٣.

[2] الديوان، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

فتراه -هنا- يصف ممدوحه بأنه سيف الله الباتر لرقاب الأعداء، والغيث المنبت للشجر. والصورة الأولى سبق لكعب بن زهير أن مدح بها النبي في بيته المشهور من قصيدته (بانت سعاد) :

إن الرسول لنور يستطاء به مهند من سيوف الله مسلول

ويقول مفتخرًا فى إحدى قصائده :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعز وأطول[1]

فترى معجمه اللغوى فى هذا البيت يستمد بعض عباراته من قول الله تعالى :

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[2] .

ويروى أنه نسك مرة، فأنشد شعرا يذكر فيه خوفه من يوم القيامة، ومن النار، ومن ذلك قوله :

أخاف وراء القبر إن لم يعافنى أشد من القبر التهابا وأضيقا

إذا قادنى يوم القيامة قائد عنيف، وسواق يسوق الفرزدقا[3]

كذلك يروى أنه حج فى أخريات حياته، وتعلق بأستار الكعبة، وعاهد الله أن يترك ما هو عليه من لهو ومجون، ولا يشتم أحدًا من الناس، ولا يكذب فى حديث[4] .

كل هذه النصوص والأخبار وما ماثلها شواهد قاطعة بأن الفرزدق لم يكن -كما قلت آنفًا- منسلخًا من الدين جملة، ولا مهملاً له دائمًا؛ بل كانت عاطفته الدينية تستيقظ، فتكون لها أصداؤها القوية فى سلوكه الذاتى وإبداعه الأدبى معًا.

---

(1) المصدر نفسه، ص ٤٨٩.

(2) سورة النازعات : الآيتان ٢٧، ٢٨.

(3) الديوان، ص ٣٩٩.

(4) انظر : الفرزدق للفحام، ص ١٩١.

لكن أقوى الشواهد -فى تقديرى- رائعتان مثبتتان فى ديوانه الضخم.. أولاهما : فى مدح زين العابدين على بن الحسين -رضى الله عنه- وهى القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم[1]

والثانية : فى هجاء إبليس، وهى القصيدة التى أنشدها حين دخل المربد بالبصرة ذات يوم، فلقى رجلاً من موالى باهلة يقال له : "حمام"، ومعه نحى من السمن يبيعه، فسامه الفرزدق به، فقال له حمام هذا : أدفعه إليك، وتهب لى أعراض قومى، ففعل، وشرع ينشد هذه القصيدة، ويهجو فيها إبليس أبا الغواية والشرور، ويلوم نفسه لومًا عنيفًا؛ لأنه قد أطاعه سبعين عامًا.

ففى هاتين القصيدتين -بالذات- تتجلى عاطفته الدينية الجياشة، وقلبه المفعم بالعداء للشيطان، وبالحب لآل البيت، كما يتجلى تأثره البالغ بالقيم الإسلامية الرفيعة، فضلاً عن كونهما من روائع الأدب الإسلامى فى نتاجه الشعرى الكبير، وكونها من الشعر غير المعهود والمألوف منه.

والقارئ لقصيدته فى مدح على زين العابدين يحس بحبه لآل البيت -رضوان الله عليهم- ويوقن بأن ما ركب فى طبع الفرزدق من أصداء جاهلية قد تحولت جميعها إلى عناصر خيرة تتصدى لمن ينكر آل البيت فى جرأة ليس لها نظير.

أما قصيدته فى هجاء إبليس ففيها إقرار بالخطيئة، وتوبة إلى الله، وخطاب للشيطان لم يسبق إليه غيره من الشعراء.

وأحب قبل البدء فى تحليل هذه القصيدة، ووزنها بميزان النقد الدينى والفنى أن أسوق بعض الأسباب التى تغرى المرء بدراستها والحديث عنها :

---

[1] الديوان، ص ٥١١.

فمن ذلك : أنها -كما أشرت سلفًا- إحدى نموذجين رفيعى المحتوى والمستوى من نماذج الأدب الإسلامى فى ديوان هذا الشاعر خاصة، وفى تراثنا الأدبى الإسلامى عامة. وفيها دلالة واضحة على أن الأدب الإسلامى الذى ندعو إليه اليوم، ونجتهد فى تأصيل نظريته وشواهده ليحل محل الحداثة المنحرفة الشاذة إنما هو أدب أصيل تضرب جذوره فى أعماق التاريخ، و لم تخل منه الساحة الأدبية على امتداد العصور، و لم يتخل عنه الشعراء حتى أولئك الذين اشتهروا بالفسق، وامتلأت نفوسهم من كل نواحى الحياة اللاهية الماجنة العابثة، وظلت أخلاقهم -على الرغم من إسلامهم- متأثرة بأخلاق الجاهلية، وبكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من إثم. فهذا هو الفرزدق -شاعر العصر الأموى العملاق- ينسلخ من فسقه كله، ويستجيب لدعوة الإسلام -قرآنًا وسنة- بمعاداة الشيطان والحذر منه، فلا يكتفى -فى المعاداة والحذر- بالتخلى الفعلى عن وساوسه وإغراءاته؛ بل يقرن ذلك بالقول المتمثل فى هذا الهجاء الحاد الموجه لإبليس.

ونحن لن نقف من هذه القصيدة موقفًا رافضًا لقراءتها أو دراستها، بل نتلقاها بالقبول والإعجاب والرضا، حتى لا يكون شأننا بالنسبة لها شأن الحسن البصرى -رضى الله عنه- الذى يروى أن الفرزدق قد ذهب إليه إثر نظمها، وقال له : إنى قد هجوت إبليس. فقال الحسن : لا حاجة لنا بما تقول!!

قال الفرزدق : لتسمعنها أو لأخرجن فأقول : إن الحسن البصرى العابد الزاهد ينهى عن هجاء إبليس.

قال الحسن : أسكت فإنك عن لسانه تنطق[1].

---

[1] انظر : الفرزدق لممدوح حقى، ص ٢٥، ٢٦.

ومما يغرى بدراسة هـذه القصيدة -أيضًا- أن التأثر بالقرآن الكريم -ولا سيما قصصه- واضح فيها تمام الوضوح .. الأمر الذى لفت أنظار ناقد كبير -كالدكتور شوقى ضيف- فأثنى عليها، وأشار إلى مدى التأثير القرآنى فيها، وعدها من الشواهد القوية على تأثر الشعراء -فى العصر الأموى- بالإسلام ومثاليته الروحية فيما يعالجون من موضوعات[1] .

كذلك يغرى بدراستها : أنها هى وأمثالها من كل أدب رفيع المضمون، نبيل الغاية، رائع الأسلوب أحسن من ذلك الشعر الرخيص العازف على أوتار الرذيلة والشر والباطل كالغزل الإباحي المكشوف، ووصف الخمر، والمدح المبالغ فيه، والهجاء النابش فى الأعراض .. وما شابه ذلك.

على أنها نفحة من النفحات الإيمانية المنتصرة على دواعى الانحراف، ولا تستحسن لباعث دينى فحسب، وإنما تستحسن -كذلك- لباعث أدبى، فهى نفثة من نفثات شاعر هجاء، دنا وتدلى فى بقية ماله من هجاء، حتى سقط فى هاوية البذاءة، وأدرك الحضيض من الوقاحة، ناحتا من الصخر كل تمثال مشين فى دنيا الهجاء، فتراه -ولاسيما فى نقائضه مع جرير- يستعمل ألفاظًا فى غاية القذارة، ويتطاول إلى أعراض المهجو، فيسب الأم والأب، والأخت والزوجة، والقبيلة والعشيرة سبًا قبيحًا مقذعًا، ويمزج هذا السب بالفخر الكاذب، فيتعالى بنفسه وشعره وفنه وأهله إلى السماء، ويضع نفسه فى منزلة يتضاءل دونها المهجو، ويعدّد أيام قبيلته وانتصاراتها وزعماءها وشعراءها، ويقرن ذلك بمخازى المهجو، وانكسارات عشيرته، ويحشوه بالشتائم حشوًا؛ بل يقذفها فى وجهه قذفًا قاسيًا يؤلمه أشد ألم حتى يبكيه، ولذلك كان الناس فى زمنه يخشون قلة أدبه، وسلاطة لسانه، ومعرة مقوله،

---

[1] انظر : التطور والتجديد فى الشعر الأموى، ص ٦٢، ط : دار المعارف بمصر (السابعة).

فيتحاشونه. و لم يثبت له فى ميدان المعارك الهجائية سوى جرير، علـى مـا فيـه من عفة وأدب وغرف من بحر بالقياس إليه.

و لم يعف فى هجائه عن تناول النساء بالمسبة والإقذاع، حتى إن امـرأة قد عاذت بقبر أبيه، لكى لا يذكرها فى شعره بسوء؛ بل إن (النوار) وهى ابنة عمه وزوجه لم تسلم هى الأخرى من هجائه الفاحش ولسـانه المقـذع. ولقـد قال عن نفسه : «إنه قذف مائة محصنة من النساء غير من قذف من الرجال».

فإذا رجع هذا الشاعر الهجاء المقذع الفـاحش إلى نفسه، وإلى إحـدى ثورات ضميره، وتذكر أن إبليس اللعين قد أسقطه فى كل ما سبق ذكره، فهـو -بـدون شـك- رجـوع صـادق يعبر عـن تجربـة حيـة جديـرة بالإعجـاب والاستحسان والدراسة؛ بل حريـة أن تتقـدم فـى الدراسـة علـى النقـائض التـى كتبت من حولها عشرات الدراسات. وإنى لأعجب كل العجب من الدكتـور محمد محمد حسين حين أراه يؤلف كتابًا فى جزءين عن (الهجاء والهجائين) فى صدر الإسلام والعصر الأموى، دون أن يشير -مـن قريـب أو بعيـد- إلى هـذه القصيدة ذات المضمون الإسلامى الراقى. وعلى نهجه سار كثيرون ممن كتبـوا عن هذا الموضوع. وقد فات عليهم جميعًـا : أن هـذه القصيـدة أولى بالدراسـة وأجدى من سائر الهجائيات التى درسوها، والتى تمتلـئ بالمخزيـات الفاضحـة، والعورات القبيحة، والسوءات المندية. بل فات عليهم أن مـا درسـوه، وبذلـوا فيه الوقت والجهد إنما هو أدب زائف، وشعر هابط لا يثبت فى الميدان إذا وزن بالمعيار الدينى والأخلاقى فى النقد، لأنه -مهما قـالوا عـن قيمتـه الفنيـة- أدب ينبش فيما حرص الإسلام على دفنه، من إثارة الخصومات، وإحياء العصبيـات، وبعث العداوات، ورمى المحصنـات الغـافلات المؤمنـات، ومـا شـابه ذلـك مـن الإفك والإثم والبهتان. وفيـه خـروج سـافر علـى الـروح السـمحة، والمبـادئ

الأصيلة، والقيم الرفيعة لديننا الإسلامى الحنيف، فإنه دين يدعو إلى الكلمة الطيبة، وينهى عما نراه فى شعر الهجاء -ولاسيما النقائض- من تفاخر بالأحساب والأنساب، ولا يميز بين جنس وآخر، فكل الناس لآدم، وآدم من تراب. وينهى -كذلك- عما نراه فى هذا الشعر من ألفاظ السباب الساقطة، وأمور الجنس الهابطة، ووقائع الفحش الممتهنة.

وعلى كل حال، فإن هذه القصيدة هى أصدق وأنبل ما قاله الفرزدق من هجاء فى ديوانه، وقد جاءت بمثابة تكفير عما بدر منه خلال المرحلة الطويلة التى عاشها يتمرغ فى وحل النقائض، وينشد النقيضة تلو النقيضة ليزكم الأنوف بروائحها القذرة، ويسود الوجوه بصورها الحاملة للعذرة. والناس من حوله فى سوق المربد بالبصرة لاهون بالتصفيق والصفير، يشاهدون معاركه مع جرير .. وما يزالون كذلك حتى يبلغوا مشتهاهم من اللهو واللغو والفرجة والتسلية وقطع الفراغ.

القصيدة تتكون من ستة وثلاثين بيتًا، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام متآلفة :

القسم الأول : مقدمة قصيرة من ثلاثة أبيات يلتزم بها الفرزدق عمود الشعر العربى الموروث عن شعراء الجاهلية ... فينهج نهجهم فى بكاء الأطلال والدمن والآثار وذكر الأماكن البدوية وما يشيع فيها من معالم تفنى فتثير الذكريات، وتحرك مشاعر التحسر والتلهف والتوجع والتفجع.

يقول :

إذا شئت هاجتنى ديار محيلة ومربط أفلاء أمام خيام

بحيث تلاقى الدو والحمض هاجتا لعينى أغرابا ذوات سجام

فلم يبق منها غير أثلم خاشع   وغير ثلاث للرماد رئام[1]

وتعد هذه المقدمة -فى تصورى- من براعة الاستهلال، لأن الجو المخيم عليها هو نفس الجو المخيم على القصيدة كلها، فإن الشاعر يسيطر عليه غرض خاص هو الندم على ما اقترف من آثام أوقعه فيها الشيطان بإغراءاته ووساوسه، والحزن البالغ على ما كان منه فى ماضيه من أوزار وتطاول على الناس .. وكل هذا يناسبه الحديث عن الديار التى غيرتها السنون، ولم يبق منها إلا الجدران المتداعية، والأثافى المحتضنة للرماد، ونبات الحمض المالح فى الصحراء .. وهكذا حال الشاعر : تهدمت أركان حياته بأوزاره، ولم يجن من أهاجيه التى ظل ينشدها نصف قرن سوى الرماد.

أما القسم الثانى، فيمثله قوله بعد ذلك :

أما ترنى عاهدت ربى، وإننى   لبين رتاجٍ قائم ومقامِ

على قسَمٍ لا أشتم الدهر مسلما   ولا خارجًا من فِىَّ سوء كلام؟

ألم ترنى والشعر .. أصبح بيننا   دُروء من الإسلام ذاتُ حُوام؟

بهن شفى الرحمن صدرى، وقد جلا   عشا بصرى منهن ضوء ظلام

فأصبحت أسعى فى فكاك قلادةٍ   رهينةِ أوزار علىَّ عظام

أحاذر أن أُدْعى وحوضى مُحلِّق   إذا كان يومُ الورود يومَ خصام

ولم أنته حتى أحاطت خطيئتى   ورائى، ودقّت للدهور عظامى

ألا بشَّرًا من كان لا يمسك إسته   ومَنْ قومُه بالليل غير نيام

---

[1] الديوان، ص ٥٣٩، وهاجت : ثارت. ديار محيلة : مرت عليها سنوات. مربط أفلاء : موضع المهر الصغير أمام الخيمة. الدو : الصحراء. الحمض : المر أو المالح. أغراب : الدموع. سجم : سال. الأثلم: تكسر حده. ثلاث : موقد النار فى قواعده الثلاث. الرئام : العطف.

يخافون مني أن يصُكَّ أنوفهم ... وأقفاءهم إحدى بناتِ صمام

لعَمْري لنعْم النِّحْيُ كان لقومه ... عَشِيَّة غَبَّ البيعُ نِحْيُ حِمام

بتوبة عبدٍ قد أناب فؤادُه ... وما كان يُعطي الناس غيرَ ظلامِ[1]

وواضح أن هذا القسم يدور حول توبة الفرزدق، وإنابته إلى ربه آخر حياته، وندمه على ما اقترف من آثام، وخوفه من العقاب الإلهي الذي ينتظره يوم الحساب، وتبشيره لضحاياه الذين أفزعهم وأرَّقهم بأهاجيه المصمية المقذعة بإقلاعه عن ممارسة الهجاء. وحديثه عن السبب المباشر لهذه التوبة حين عرض عليه ذلك الرجل الباهلي المسمى بـ (حمام) شراء أعراض قومه بنحي مملوء بالسمن.

وقد أكد البيتان الأولان من هذا القسم ما يروى من أن الفرزدق قد حج في أخريات حياته، وعاهد ربه –وهو واقف بين باب الكعبة ومقام إبراهيم عليه السلام– أن يترك ما هو عليه من لهو ومجون، ولا يشتم أحدًا من الناس، ولا يكذب في حديث، ولا ينطق بكلمة سوء.

ولا ريب في أن اعتراف الفرزدق بمعاهدته لربه على التخلي عن الهجاء والنقائض ذو دلالة على أنه لم يكن راضيًا عن هذا الضرب المشين من الشعر، وذو دلالة على أنه قد وزنه بميزان الإسلام الداعي إلى الكلمة الطيبة، فرآه وحْلاً ينبغي أن ينقذ نفسه منه؛ بل داء وظلامًا لا يقيه منهما إلا الالتزام بقيم الإسلام الحافظة للمرء من الانزلاق إلى الهاوية.

---

[1] الديوان، ص ٥٣٩، ٥٤٠، والرتاج : المغلق. من فى : من فمى. دروء : اندفاعاته القوية سواء أكان سيلاً أو ضوءًا. حوام : الشمول. العشا : ضعف البصر. حوضى محلق : زاد ماؤه وارتفع. يوم الورد: يوم الجزاء. دقت عظامى : أصبحت هشة. النحى: إناء السمن. حمام :-اسم البائع. غب البيع : إنجازه.

ويقيني أن الذين يمجدون النقائض -من أنصار الفن للفن- لو كانوا قد قرأوا هذه الأبيات لاكتشفوا أن صاحبها يخالفهم الرأى فيما زعموه، إذ رأى بعد توبته -كما تشير الأبيات السالفة- أنها داء شفاه الله منه، وغشاوة على عينيه أزالها نور الإسلام، وقلادة زائفة كانت تلتف بعنقه، وتوقعه فى الأوزار العظيمة، مما جعله يسعى باذلاً كل جهد للتخلص منها، ومما جعله يقضى أيامه الأخيرة من عمره وهو يرتجف من وقوفه أمام ربه ليقتص لضحاياه منه، ومما جعله يأسى ويتحسر على ماضيه الذى عاش كل ساعاته فى مجون وهجاء وسب، و لم ينته من ذلك إلا بعد أن كبرت سنه، ودقت عظامه. ومما جعله يعلن للدنيا كلها تخليه عن هذا الضرب القبيح من الشعر .. إنها حقًا توبة شاعر، ورأى منه صريح فيما أنشد من نقائض وهجاء .. واعتزال حرفة أدبية نتنة بغيضة وصفها صاحبها نفسه بأنها تزكم الأنوف بروائحها القذرة، وتوجع الأقفاء بضرباتها المبرحة.

إن الفرزدق لم يزن نقائضه بميزان الفن، كما وزنها النقاد الذين جاءوا من بعده، و لم يلتفت إلى ما التفتوا إليها مما تحتويه من سجل تاريخى للقبائل العربية وأيامها فى الجاهلية والإسلام، وسجل تاريخى للكثير من الوقائع والعادات فى العصر الأموى، ومما تحتويه من ثروة لغوية، وألفاظ فصيحة، وتركيبات جزلة، وقوافى رضية .. وغير ذلك مما يعدونه من محاسنها.

إنما وزنها بميزان الدين والأخلاق، والتفت إلى العيوب التى تغلفها، وإلى ما فيها من انحدار وابتذال وشتائم وعصبية فاعتزلها، وتاب منها، وانطلق -فى القسم الثالث والأخير من القصيدة- يصب جام غضبه على إبليس الذى أغراه، وظل يزين له الفسق والمجون والهجاء مدة طويلة من الزمن، حددها الشاعر بسبعين عامًا، وذكر أنه حين بلغ هذا العمر، ورأى الشيب يدب فى

رأسه، وأحس بقرب الأجل فر من الشيطان إلى طاعة ربه مقسمًا أن يروض نفسه الأمارة بالسوء على الطاعة والاستقامة، والاجتهاد في العبادة حتى لو كان مريضًا عاجزًا. استمع إليه إذ يقول :

أطعتك يا إبليس سبعين حجة ... فلما انتهى شيبى وتم تمامى

فررت إلى ربى، وأيقنت أننى ... ملاق لأيام المنون حِمامى

ولما دنا رأس التى كنت خائفا ... وكنت أرى فيها لقاء لزامى

حلفت على نفسى : لأجتهدنّها ... على حالها من صحة وسقام[1]

ويصور الشاعر طريقة إبليس فى إغوائه، ومحاصرته له من كل مكان ليتمكن من السيطرة التامة عليه، وكيف أنه غرر به، وظل طوال هذا الزمن يمنيه بالخلود فى الحياة، ويبشره بالنعيم الأبدى، ويوجهه إلى حيث يريد من مواطن الغواية والزلل، فيقول :

ألا طالما قد بتُّ يُوضِعُ ناقتى ... أبو الجن إبليسُ بغير خِطام

يظل يُمنّينى على الرحل واركا ... يكون ورائى مرة وأمامى

يبشرنى أن لن أموت، وأنه ... سيُخلدنى فى جَنَّة وسلامِ[2]

وينتقل الشاعر فيستعرض شواهد من التاريخ الأسود للشيطان .. وأمثلة من غواياته للأمم السالفة .. وقد جاء عرض هذه الشواهد والمثل فى صورة خطاب مباشر للشيطان، وقد حملت من معانى التوبيخ والقدح ما يحكم هذا الهجاء. فقد وصف الفرزدق إبليس بأنه دائمًا للإنسان عدو مبين .. لا يفى بعهد يقطعه معه، ولا يصدق فى يمين يقسم بها إليه، وإنه ليصده عن

---

(1)، (2) الديوان، ص ٥٤٠، وتم تمامى : الكبر. المنون والحمام: الموت. يوضع الخطام: يخفضها بالحبل الموضوع فى أنف البعير. واركا : يتكئ على وركه.

الخير، ويزين له الشر، ليحرمه مما هو فيه من النعمة ورغد العيش. ثم بعد أن يخدعه، ويوقعه فى حبال المعصية، ويرى العذاب الأليم الذى يصليه الله بالعصاة ينكص على عقبيه، ويتبرأ منهم ... حدث هذا منه مع فرعون مصر، يوم زين له الضلال، وادعاء الألوهية، وتكذيب الرسولين اللذين أرسلا إليه، ويوم زين لفرعون الخروج من مصر وما فيها من نعيم وسهول خضراء وراء موسى وبنى إسرائيل للفتك بهم، ممنيًا إياه بالنصر والغلبة، ثم لما رأى البحر بأمواجه العالية ينطبق عليه تخلى عنه، وعجز عن تقديم أية حيلة من حيله لإنقاذه من ذلك المصير :

فقلت له: هلا أخيك أخرجَتْ ... يمنيك من خُضْر البحور طَوام

رميْتَ به فى اليمِّ لما رأيته ... كفِرْقة طودَىْ يَذْبُلٍ وشَمامِ

فلما تلاقى فوقه الموج طاميا ... نكصَتْ، ولم تحتلْ له بمَرامِ[1]

وحدث الشىء نفسه من إبليس مع ثمود قوم صالح عليه السلام، فقد كانوا يعيشون بالحجر آمنين متعمين، وبلغوا من القوة والحضارة ما مكنهم من نحت البيوت الرخامية فى الجبال، لكن اللعين تسلط عليهم، وأغراهم بعقر الناقة المعجزة التى أيد الله بها رسولهم، فحلّ بهم عذاب الله .. وهنا تخلى الشيطان عنهم، ونكص على عقبيه، و لم يف بعهده الذى قطعه معهم :

ألم تأت أهلَ الحِجْر، والحجر أهلُه ... بأنعَمِ عيْش فى بيُوتِ رُخام

فقلت : اعقروا هذى اللقوحَ فإنها ... لكم، أو تنيخوها لقوحَ غرَام

---

[1] الديوان، ص ٥٤٠، وهلا أخيك : من يتبع الشيطان. والمراد فى البيت : فرعون. خضر وطام : البحر الملىء بالماء والأمواج. الفرقة : ما يحجز بين الشيئين. يذبل وشمام : جبلان. نكص : غدر. تحتل : تتخذ حيلة لتحيق غايته ومرامه.

فلمــا أناخــوها تبــرَّأت منهُــمُ وكنت نكوصــا عنــد كـل ذِمام[١]

وحدث الموقف ذاته -أيضًا- من الشيطان مع آدم وحـواء، فقـد كانـا ينعمـان فـى جنـة ربهمـا بالراحـة والهنـاءة والنعيـم؛ لكنـه ظـل يوسـوس لهمـا، ويغريهما بالأكل من الشجرة المحرمة عليهما، ويقسم أنـه لهمـا لمـن النـاصحين، حتى أكلا منها، وبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فحرما من خير دارٍ بشَرِّ أكلةٍ، وهبطا إلى الأرض :

وآدم قـد أخرجتــه وهــو ســاكن وزوجتــه مــن خــير دار مقــام

وأقسـمت يـا إبليـس أنـك نـاصح لـه ولهـا إقسـام غـير أثــام

فظـــلا يخيطـــان الوراق عليـــهما بأيديهما مــن أكل شــر طعام[٢]

وهكذا كان حال الشيطان دائمًا مع سائر الأمم على امتـداد العصـور، وتـوالى القـرون، فكثرت ضحايـاه منهـم، وأصبحـوا -بسـبب خضوعهـم لوساوسه- أثرًا بعد عين، وأخبارًا تروى :

فكم من قرون قد أطاعوك أصبحوا أحاديث كانوا فى ظلال غمام[٣]

ويمضى الشاعر فى هجاء إبليس، فيخاطبه بأنه قد صار اليوم مبغضًا له، مصرًا على عدم الاستجابة لـه، عازمًـا علـى أن لا يكـون مطيـة لـه كمـا كـان بالأمس، يقوده إلى حيث شـاء مـن مواطـن الغوايـة والزلـل. بـل إن الفـرزدق يتوعده بالعقاب الأليم، لقاء ما ساقه إليه من آثام، وردًا على ما أوقعـه فيـه مـن زلات .. وإنه لعقاب ذو وقع شديد .. يحدث فى وجه الشيطان جروحًا عميقة

---

(١) الديوان، ص ٥٤١، الحجر : ديار ثمود. رخام : حجارة الجبال. اعقروا : اذبحوا. ذمام :عهد.

(٢)، (٣) الديوان، ص ٥٤١، وأقسام أثام : حلف مأثوم ويمين حانث. ويخيطـان الـوراق : يسـتران الجسـد بالأوراق وهو كناية عن ستر العورة. أكل شر طعام : طعام حرام عليهما. الزمام : مقـود الدابـة. العار: العيب. الزقوم : شجرة فى جهنم طعام لأهلها : ضرام : مشتعل.

بارزة، يغدو بها ويروح فى جهنم .. يوم تلتقى عليه نيرانها بكل ما لها من اشتعال شديد، وبكل ما فيها من ألوان الطعام كشجرة الزقوم :

وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغى ... رضاه، ولا يقتادنى بزمام

سأجزيك من سوءات ما كنت سقتنى ... إليه جروحًا فيك ذاتَ كِلام

تُعيِّرها فى النار، والنارُ تلتقى ... عليك بزقُّومٍ لها وضرامِ[1]

وبعد أن وجه إليه هذه السهام منتقمًا منه منتصرًا عليه ختم هذه القصيدة الرائعة ببيان أن وظيفة الشيطان وذريته هى تعذيب كل الناس، فكل غلام يولد فى عالم الشياطين لا يرضعه أبوه إلا بعذاب الناس، والوسوسة إليهم. وإن الفرزدق نفسه كان أحد الذين أصيبوا بذلك طوال سبعين عامًا، سيطر عليه خلالها الشيطان وذريته، فكانا يتفلان من فمويهما فى فمه ما أنشده من هجاء خبيث، وشعر ماجن :

وإن ابن إبليس وإبليس ألْبنا ... لهمْ بعذاب الناس كلَّ غلام

هما تفلا فى فىّ من فمويْهما ... على النابح العاوى أشَدُّ رِجامِ[1]

هذه هى قصيدة الفرزدق فى هجاء إبليس، وتلك هى المعانى التى تناولها فيها. ولا ريب أنها تعبر تعبيرًا صادقًا عن تجربة شعورية حية لشاعر قضى سبعين عامًا من عمره فى لهو ومجون، وفسق، واستهتار، ثم رجع إلى نفسه فى إحدى ثورات ضميره، وأدرك أن الوقت قد حان للتوبة النصوح، والانتصار على النفس، والتغلب على الهوى، وعدم الانقياد لغواية الشيطان.

والقصيدة -من ناحية الغرض الأدبى- تمتاز بالجمع بين القديم والجديد، فالهجاء -كما نعرف- غرض قديم من أغراض الشعر العربى؛ ولكن

---

[1]، [2] الديوان، ص ٥٤١، ألبنا : سقاهم. تفلافى : نفثا فى فمى. فمويهما تصغير فم والنباح للكلب والعواء للذئب رجام : الرمى بالنجوم أو الشهب.

الجديد فى الهجاء -هنا- هو هجاء إبليس. وأغلب الظن أن الفرزدق هـو أول من تناول هذا الموضوع بين الشعراء العرب.

وتمتاز القصيدة -أيضًا- بالوحدة الموضوعية، إذ تدور أبياتها حول توبة الشاعر، وهجاء الشيطان، والعزم على الحياة الطيبة الصالحة النائيـة عـن الفسـق والمجون وسب الناس ونهش الأعراض.

وقد جاءت هذه الوحدة الموضوعية من الوحدة النفسية الشـعورية فـى القصيدة، حيث ربطت الأبيات عاطفة قوية صادقة، سيطرت على الشـاعر مـن أول القصيدة إلى آخرها، فما من بيت إلا ونحس فيه تبرم الشاعر بحياته الماجنـة، وضيقه بالشيطان، وكراهيته له، وحرصه على توبيخه وتحقيره، وإبـراز عداوتـه للإنسان .. وهذا -بدون شك- خيط شعورى واحد، يرتفع بشأن القصيدة.

ولقد كان الشاعر بارعًا حقًا فى ذلك الاتصال الفكـرى الملحـوظ فـى تصوير تجربته، فالأفكار ذات ترتيـب وترابـط وتسلسـل، وفيهـا قـوة ووضـوح وامتزاج بالعاطفة، ولذلك فإنها تؤثر تأثيرًا بالغًا فى نفس القارئ والسامع.

ولكل ما سبق يمكن الحكم بتحقق الوحدة الفنية فى القصيدة، حتى إنه ليصعب علينا حذف جزء منها، أو تقديم جزء على آخر.

كذلك يمكن الحكم بأن الشاعر قد وفق -من خلال وجدانه وتعبـيره- فى رسم صورة كليـة واضحـة المعـالم، متآلفـة القسـمات لتوبتـه وإقلاعـه عـن الطيش والنزق واللهو، وغير ذلـك مـن غوايـات إبليـس ووساوسـه ومكـايده. والرائع حقًا : أن هذه التوبة كانت وليدة حادث صغير عارض حين اشترى منه الباهلى أعراض قومه بنحى من السمن. ولكن رب حادث صغير يكـون سببًا فى أحداث جسام أو قصائد رائعة، فالفرزدق قد أدرك سـاعتئذ أنه قـد تجـاوز الحـدود فـى الهجـاء المقـذع والتعـرض لأعـراض النـاس، فكـانت هـذه التوبـة

الصادقة، وكانت هذه اللوحة الفنية الرائعة البديعة التى يتخللها العديد من الصور الخيالية الجميلة كقوله -مثلاً- :

فلم يبق منها غير أثلم خاشع وغير ثلاث للرماد رئام

ففى هذا البيت استعارتان مكنيتان .. أولاهما تبرز الجدران المتداعية من الديار فى صورة إنسان خاشع ذليل. والثانية : تبرز الأثافى وهى تحتضن الرماد، وتلتف حوله فى صورة الأم الرؤوم وهى تحتضن طفلها. وقوله :

فأصبحت أسعى فى فكاك قلادة رهينة أوزار علىّ عظام

فيه استعارة تبرزه وهو يخلص نفسه من الأوزار فى صورة من يفك قيده من الأسر. وقوله : "حوضى محلق" كناية عن كثرة الأوزار والبعد عن الرحمة. وقوله : "يوم الورد يوم خصام" كناية عن الحساب والجزاء، وقوله : "أحاطت خطيئتى ورائى" وقوله : "دقت عظامى" استعارتان مكنيتان.

وقوله :

ألا بشرا من كان لا يمسك استه ومن قومه بالليل غير نيام

فيه كناية عن الرعب بقوله : (لا يمسك استه)، وكناية عمن يسهرون لحماية أعراضهم منه بقوله : (ومن قومه بالليل غير نيام).

وفى قوله :

يخافون منى أن يصك أنوفهم وأقفاءهم إحدى بنات صمام

كناية عن شعره وقصائده ببنات الصمام، وهى الدواهى. وفيها إيحاء بشدة التأثير، وقوله : (لنعم النحى نحى حمام) مجاز مرسل لأن المدح للبائع وليس لوعاء السمن. وقوله : (ما كان يعطى الناس غير ظلام) استعارة تجسم الظلام وتجعله شيئًا ماديًا يعطى باليد.

ليس هذا فحسب؛ ولكنك كلما تأملت أبيات القصيدة وجدتها زاخرة بالصور الخيالية المؤثرة الدالة على أن الشاعر من أولئك الشعراء المصورين الذين تستأثر بهم الصورة، فيؤثرونها ويكثرون منها فى إبداعهم : تشبيهًا واستعارة وكناية. ولقد كان الفرزدق -حقًا- ممن يحسنون انتزاع هذه الصور، ويأتون بها حية موحية، وكان يؤثر تجسيم المعانى، وإبرازها فى صورة محسوسة فكثرت الاستعارات المكنية فى شعره، وكان يؤثر الكناية على التصريح فتعددت الكنايات فى قصائده. وكان مرتبطًا بحياة البادية، متطلعًا إليها أبدًا فاستمد صوره وتشبيهاته من الحياة البدوية، ومن هنا كانت وثيقة الصلة بحياة الناس، مثيرة لخيالهم، مرتبطة بطبيعتهم، لها جمالها وألقها وانظر إلى قوله : (فررت إلى ربى) وكيف جعله كناية عن هروبه من الشيطان ولجوئه إلى الرحمن.

وانظر إلى قوله :

ولما دنا رأس التى كنت خائفا وكنت أرى فيها لقاء لزامى

وتأمل هذه الاستعارة المكنية التى تبرز المنية فى صورة كائن حى له رأس، ولاحظ كيف جسمت المعنى وأوحت بقرب وقوع الموت والفزع منه.

وانظر إلى قوله :

يظل يمنينى على الرحل واركا يكون ورائى مرة وأمامى

ولاحظ ما يحتويه الشطر الأول من استعارة مكنية تحقق التأثير والإمتاع بإبرازها لإبليس فى صورة إنسان تشاهده العين راكبًا على رحل الناقة، معتمدًا على فخذ الشاعر. ولاحظ ما يحتويه الشطر الثانى من كناية عن ملازمة الشيطان للإنسان وتسلطه عليه من شتى الجهات وهى كناية كاشفة عن طبيعة إبليس الملحة فى إصرار وعناد والمصرة على الإغواء بأساليب مختلفة.

وانظر إلى قوله :

رميت به في اليم لما رأيته   كفرقة طودى "يذبل" و"شمام"

ففيه تشبيه موضح لحال المشبه، ويبرز انفلاق البحر إلى قطعتين هائلتين من الأمواج المتراكمة، وكأنهما جبلا يذبل وشمام.

بالإضافة إلى ما يفيده تشبيه الطريق العميق بين جانبى البحر بالوادى العميق بين هذين الجبلين.

إن هذه الأمثلة ذات دلالة بينة على أننا أمام شاعر ذى حسّ مصور، يريد أن يجسم الصورة لتتمثل أمام الناظرين فى رسم فنى بديع.

ولقد كان من أثر طبعه الفني المصور أن غدا أكثر إدراكًا لسر اللفظة المصورة، ينتقيها ويأتى بها على سبيل الكناية لتغدوا فى كلامه موحية تحمل من المعنى ما لا تطيقه جملة .. فإذا صور اجتنابه المعاصى كنّى عنه بالفرار إلى ربه. وإذا صور الناقة المعجزة التى أيد الله بها رسوله صالحًا عليه السلام كنّى عنها باللقوح. وإذا صور الجنة التى أخرج منها آدم وحواء كنى عنها بخير دار مقام. وإذا صور الشجرة التى أكلا منها كنى عنها بشر الطعام. وإذا صور الشيطان كنى عنه بالنابح العاوى .. وكلها كنايات جميلة تؤدى المعنى المقصود ومعه الدليل على صحته.

هذا عن بعض ما فى القصيدة من تصوير خيالى مؤثر، ومقدرة الشاعر على انتزاع الصور الموحية المعبرة المؤثرة.

أما التعبير، فقد جاء ملائمًا لموضوع القصيدة، معتمدًا على الانتقاء فى جرس موسيقى قوى. وأغلب الألفاظ تحس فيها الحركة مثل (تلاقى - أسعى - يصك - فررت - دنا - يوضع - أخرجت - رميت - نكص - أناخوها - يخيطان - تفلا).

وربما نرى فى بعض الألفاظ اللون مثل : (ضوء ظلام - شيبى - خضر البحور - ألبنا). أما الصوت فنسمعه -مثلاً- فى (أدعى - النابح - العاوى) ولا شك أن الحركة واللون والصوت خيوط فنية للصورة الكلية التى رسمها الفرزدق فى قصيدته.

وإذا كنا نحس فى كلماته شدة الوقع فى الأذن، وقوة المخارج للحروف، فإن مجيئها على هذا النحو قدناسب الغرض الرئيسى للقصيدة وهو التوبة من قبيح الشعر والمعاصى، والبراءة التامة من إبليس. كما أنها -فى الوقت ذاته- صدى وانعكاس لطبيعة الفرزدق البدوية الخشنة، ومعجمه الشعرى القائم على النحت من الصخر الغليظ الضخم.

لقد كان الفرزدق -كما نعلم- شاعرًا يؤثر الجزالة والقوة والخشونة فى ألفاظه، ولا غرو فهو أعرابى بدوى عاش يجاهر بأعرابيته وبداوته، كما يقول :

وإنا أهل بادية ولسنا … بأهل دراهم حضروا القرارا[1]

بل كان يرى أنه وريث الشعراء الجاهليين، والحفيظ على تراثهم الفنى، خصوه بذلك، ودفعوا إليه كتابهم وصية، كما يقول :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا … وأبو يزيد وذو القروح وجرول

والفحل علقمة الذى كانت له … حلل الملوك، كلامه لا ينحل

وأخو بنى قيس، وهن قتلنه … ومهلهل الشعراء، ذاك الأول

والأعشيان كلاهما ،ومرقش … وأخو قضاعة، قوله يتمثل

...إلى أن يقول :

---

[1] الديوان، ص ١٧٢.

دفعوا إلىّ كتابهن وصية ... فورثتهن كأنهن الجندل[1]

لذلك كانت ألفاظه وصوره وموسيقاه شديدة الصلة بالتراث الجاهلى القديم، فاستأثرت بأسلوبه : الجزالة، والقوة، والنغم الموسيقى الصاخب، وبداوة الصور الخيالية، وخشونة الألفاظ والعبارات، فبدا شعره صلبًا فيه غلظ وخشونة. وحسبك أن تقرأ فى القصيدة التى نحن بصدد دراستها مثل هذه الألفاظ : (الدو - الحمض - سجام - أثلم - رئام - حوام - يصك - صمام - خطام- طوام - طودا يذبل وشمام - اللقوح - تنيخوها - نكوص - زقوم - ضرام ... وما إلى ذلك).

لكن الفرزدق وإن تمسك بألفاظ الجاهليين ذات الجرس القوى فإنه قد تأثر -أيضًا- بثقافته الإسلامية، فكثرت فى شعره الألفاظ القرآنية، والإشارة إلى القصص القرآنى، وأخبار الرسل السابقين، والحديث عن الآخرة، والجنة، والنار، والجن والملائكة، وتصرف فى هذه المعانى تصرفًا يدل على مقدرته الأدبية.

ومن آثار ثقافته الإسلامية فى القصيدة التى بين أيدينا : قوله فى البيت العشرين منها : (يظل يمنينى)، فهو ناظر إلى قول الله تعالى عن إبليس : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقوله فى البيت نفسه : (يكون ورائى مرة وأمامى)، فهو ناظر فيه إلى قول الله تعالى -على لسان إبليس- : ﴿. . . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ. . .﴾ الآية.

وبدءًا من البيت الثانى والعشرين حتى البيت الثلاثين : نراه يستعير من القرآن الكريم بعض قصصه العظيم، ليحكم هجاء إبليس، فيشير إلى قصة

---

[1] الديوان، ص ٤٩٣، ٤٩٤.

فرعون، وغرقه فى البحـر، وإلى قصـة ثمود وعقرهـم الناقـة، ثـم إلى قصـة آدم وحواء. إلا أنه لم يرتب هذه القصص وفق ترتيبها الزمنى فى التاريخ.

ويتجلى فى الأبيات التى تصور قصـة آدم وحـواء : تعبيره عـن حـواء بلفظ (زوجة)، فلم يجرده من التاء كما كانت تنطق قريش، وكما جاء فى القرآن الكريم الذى نـزل بلسـانها نحو قوله تعـالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ. . .﴾ وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ. . .﴾ وقوله تعالى عن عبده زكريا : ﴿. . . وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ. . .﴾.

وسبب هذا أن الفرزدق ينتسب إلى دارم ثم تميم، وكـانت لهجة هـذه القبيلة تختلف فى بعض الألفاظ عن لهجة قريش، ومن مظـاهر هـذا الاختـلاف نطق الزوجة بالتاء للتفرقة بينها وبين المذكر، والأفصح -بالطبع- هـو اللهجة القرشية.

وعلى كل حـال فـإن صياغـة الشـاعر للقصيـدة صياغـة محكمـة متينـة النسج، بحيث تشعر بالفخامة وقوة الرنين الذى يتميز به الشعر العربى الأصيل.

والأساليب الخبرية كثيرة فى القصيدة لأنه يصور شعوره وانفعالاته تجاه إبليس، ويبدو فى تصويره هذا نادمًا أشد الندم علـى مـا بـدر منـه فـى ماضيـه، ناقمًا أشد النقمة على الشيطان، مصرًا كل الإصرار علـى التوبـة النصـوح، مما يوحى بأنه قد راجع نفسه، واستعرض شريط حياته مع اللهو والفسـق والهجـاء والسـباب، فتنبـه إحساسـه، وعـاد إليـه وعيـه، وتنبـه أن الشـاعر الملتزم بمنهـج الإسلام قولاً وفعلاً وعقيدة وتعاملاً لا يمكن أن يقـول الفحـش، ولا أن يعتـدى

على الأعراض؛ لأنه يؤمن بأن الكلمة موقف، والشعر مسؤولية، فلا يطلق للسانه العنان،ولا ينقاد لنفسه الأمارة بالسوء ولا لهواجس الشيطان اللعين.

وقد جاءت بعض الأساليب إنشائية محركة للمشاعر كالاستفهام التقريرى فى قوله :

ألم ترنى عاهدت ربى وإننى لبين رتاج قائم ومقام ؟

وقوله : **ألم ترنى والشعر أصبح بيننا دروء من الإسلام ذات حوام؟**

فتراه يقرر هنا أنه أدرك -بعد سنوات من الهجاء الفاحش واللهو الماجن- أن الالتزام الإسلامى أصبح يمنعه من القول الفاحش، ويقف حائلاً بينه وبين الخطأ والرذيلة.

وتكرير هذا الاستفهام التقريرى ذو دلالة على اتخاذ قرار التوبة بلا تردد، والعهد مع الله بلا رجعة وهو قرار صلب حاسم مؤكد فى تصوير أدبى تمده روافد متعددة ترجع إلى وحى الرؤية الحسية فى البصر والمعنوية فى البصيرة.

ومثل الاستفهام الموبخ للشيطان فى قوله :

ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله بأنعم عيش فى بيوت رخام ؟

ومثل النداء الذى تكرر ثلاث مرات فى قوله : (يا إبليس)

وهو نداء يشعر بالضيق والغيظ والتبرم من الشيطان.

ومثل القسم فى قوله :

لعمرى لنعم النحى كان لقومه عشية غبّ البيع نحى حمام

وهم قسم يؤكد سعادته البالغة بذلك الحادث الصغير العارض الذى كان مقدمة لتوبته، وسببًا فى مراجعة نفسه، وبداية لإقلاعه عن النهش فى الأعراض بقبيح الهجاء.

والقسم فى قوله :

على قسم لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجا من فىّ سوء كلام

وهو يزيد المعنى السابق قوة وتأكيدًا.

والقسم فى قوله :

حلفت على نفسى لأجتهدنها على حالها من صحة وسقام

قسم يؤكد عزمه وإصراره على الاجتهاد فى العبادة وصالح الأقوال والأفعال فى كل حال.

والدعاء على إبليس فى قوله : (على النابح العاوى أشد رجام) يوحى بشدة ضيقه من الشيطان الذى أغواه وتراه دقيقًا فى اختيار ألفاظ هذه الجملة الدعائية لإبراز إبليس فى صورة قبيحة منفرة هى صورة الكلب النابح والذئب العاوى، وليس لهذين الاثنين سوى الرمى بالحجارة والرمى المفضى إلى القتل.

فكل تركيب فى القصيدة له مدلول خاص، وإيحاء معين يهدف إليه الشاعر، تعاونه فى ذلك الألفاظ التى اختارها بدقة بالغة، فجاءت موحية معبرة، قوية جزلة، فصيحة أصيلة، على النحو الذى نراه -مثلاً- فى اللفظتين "عاهدت" و"قسم" الدالتين على التصميم والعزم. وعلى النحو الذى نراه فى قوله : "أصبحت" الموحى بأن التوبة والرجوع إلى الله نور وهدى يشبه نور الصباح المبدد للظلام والخوف. وقوله : "فكاك" بصيغة المبالغة يوحى بأن أوزاره كانت كثيرة وثقيلة، ولازمته كالقلادة و لم تكن وزرًا واحدًا، وإنما هى "أوزار" كثيرة، وليست من اللمم، وإنما هى من الكبائر، كما تصور ذلك لفظة "عصام" بصيغتها ودلالتها الوضعية فى اللغة. ويؤكد عظمها ما يدل عليه قوله: "وحوضى محلق" أى كثير الذنوب.

وتصور صيغة المفاعلة فى قولـه : "أحـاذر" عنـف المقاومـة فـى الحـذر والإصرار على التوبة بعزيمة صادقة استعدادًا ليوم الحسـاب للفصـل بـين العبـاد، إما إلى الجنة وإما إلى النار، مما يوحى به قوله : "يوم خصام".

ويوحى قوله : "أحاطت خطيئتى ورائى" باتساع المـاضى رعمقـه؛ ممـا يدل على كثرة ذنوبه وخطاياه فى الهجاء والنقائض التى كان لها أثـر كبـير فـى ضعفه وشيخوخته، حتى أتت على عمره كله، كما يـدل عليـه قولـه : "دقـت للدهور عظامى"، أى أصبح عظمه هشًا ضعيفًا دلالة على كـبره وضعفـه، لأنـه -كما ذكر فى القصيدة- لم يتب إلا بعد السبعين من عمره.

ويوحى قوله : "أطعتك يا إبليس" بالتحسر والاعتراف الأليم بـالذنب، ويوحى قوله بعد ذلك : "سبعين حجة" بأنه قد بلغ الغاية وأشرف على النهايـة مبالغة وإسـرافًا فـى الهجـاء المذمـوم، لأن السـبعة هـى كمـال الأعـداد، فكـان الكمال فى سبع سماوات وسبع أرضين، وسبعة أيام فى الأسبوع، وسبع مراحل فى خلق الإنسان، وسبع درجات فى السلم الموسيقى، وسبع أعضاء فى سجود الإنسان لله ... وغيرها مما جاء سبعًا فى الكون فما بالك بمضاعفة السبع عشر مرات فتصير سبعين ؟ إنها قمـة المبالغـة والإسـراف فـى الهجـاء القبيـح، وقمـة الاعتراف بالخطيئة، و قمة التحسر والندم على ما فـات مـن عمـره فـى العبـث واللهو والمجون والقذف، وقمة الإخلاص فى التوبة النصوح والإصرار عليها.

ويوحى قوله : "هلا أخيك أخرجت يمينك" بالإنكار والعجز عن إنقاذ إبليس لفريسـته التـى يغريهـا ويخدعهـا. ثـم تـأمل تلـك الصـورة العجيبـة مـن إبداعات الفرزدق، وهى "خضر البحور طوام" التـى تحـدد أعمـاق الميـاه حتـى صار لونها أخضر، فإذا ازدادت عمقًا كـان لونهـا أزرق، أمـا المـاء القليـل فـى البحر فلونه شفاف لا لون له، ترى سطح الأرض منه، ويؤكد هذه الدكنة فـى الخضرة هذه الجموع فى "خضر البحور طوام".

وتأمل روعة التصوير بالرمى فى قوله : "رميت به فى اليم" لأنه يعاقبه على استجابته لخداعه وإغرائه، فيقذفه ويغرقه فى البحر ليبتلعه ويدمره ويجعله أثرًا بعد عين.

وانظر إلى روعة الإيحاء وجمال التصوير النابعين من صيغة المفاعلة فى قوله : "تلاقى" الذى يصور تلاطم أمواج البحر وعنفها أثناء الغرق، بل وعظمتها وكثرتها النابعة من التنكير والتنوين فى لفظة "طاميا".

وانظر إلى دلالة قوله : "نكوصًا و لم تحتل له بمرام" على تخاذل الشيطان وعدم نصرته لأعوانه الذين يضلهم ويبعدهم عن الصراط المستقيم. لأن "نكوصًا" تتضمن معنى الجملة التى بعدها، ولا تغنى أحدهما عن الأخرى، فالثانية نفى، والأولى تؤكد معناها بالإثبات، وعلى ذلك فهما مختلفان، وليست أحدهما حشوًا ولا زيادة بدون فائدة.

وتأمل صيغة المبالغة "اللقوح" التى عبر بها عن ناقة سيدنا صالح عليه السلام وكيف توحى هذه الصيغة بكثرة لبن تلك الناقة، على أن هذه الصيغة تدل أيضًا على عظيم الانتقام لغدرهم فى عقرها فى قوله : "لقوح غرام".

وانظر إلى الصورة الأدبية فى صيغة المبالغة "نكوصًا" وكيف توحى بالعناد والإصرار والغدر والخيانة ونقض العهد والمقت والتأخر وغيرها.

وانظر -أيضًا- إلى قوله : "تبرأت" من برىء -بزيادة التاء وتضعيف الراء- وما يوحى به من زيادة النكران والغضب عليهم لكفرهم بالنعم التى أسبغها الله تعالى عليهم، وأنهم يستحقون ما نزل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة.

إن كل ما سبق ذو دلالة بينة على أن القصيدة ذاخرة بالألفاظ المصورة الموحية المعبرة المؤثرة.. الأمر الذى يدل على أن الفرزدق الذى اشتهر بمعجمه

اللغوى الغريب والحوشى كان ذا موهبة شعرية قادرة على تحويل الصعب سهلاً، والحوشى مأنوسًا، والغريب رفيقًا رقيقًا موحيًا معبرًا مؤثرًا. وهكذا يفعل ذو المواهب الفنية .. ينحت الألفاظ من صخر .. ويسلكها فى عقد منظوم بقوة نظم، وحسن موقع، وروعة إيحاء فإذا هى قطرات من بحر تسيل رقة وعذوبة، وتفيض روعة وإبداعًا وبيانًا، ولا غرو فى ذلك فالفرزدق فحل من فحول الشعراء، ولولا شعره لذهب ثلث لغة العرب.

ومعروف أن الفرزدق كثيرًا ما كان يتيه بحسه اللغوى على نحاة البصرة وعلماء اللغة، فيأتى بغرائب الألفاظ ويصرفها فى الصياغة تصريفًا يزيل شيئًا من غموضها، ويأتى بما يخالف القياس فى التقعيد النحوى حسب تصورات النحاة، فلا يملكون تخطئته لأنه ممن يحتج بشعره، وبالتالى فإنهم يكدون ويجتهدون فى تخريج ما أتى به. ومن ذلك -مثلاً- قوله فى القصيدة التى بين أيدينا :

ألم ترنى عاهدت ربى ، وإننى **لبين رتاج قائم ومقام**

على قسم لا أشتم الدهر مسلما **ولا خارجا من فى سوء كلام**

فتراه فى البيت الأول من هذين البيتين يلجأ إلى التقديم والفصل بين الكلم فيؤخر خبر إن فاصلاً بين الرتاج والمقام، وينقل اللام المزحلقة من قائم ويدخلها على (بين) وأصل العبارة : وإننى لقائم بين رتاج ومقام؛ وهذا مثال من الأمثلة التى جعلت النحاة والبلاغيين والنقاد ينعتونه بالتعقيد ومداخلة الكلام، حين يلتوى عليه القول أحيانًا -وهو الشاعر الفذ- فيخالف نظام الجملة المتعارف عليه عند النحاة، ويفلت منه النسق المألوف فى ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى، فيقع له من التقديم والتأخير فى مواضع الكلم ما يتعب النحويين فى تخريجه أو يدفعهم إلى التسليم بأن ما أتى به شاهد يؤصلون له قاعدة، ويجعلونه شاهدًا لها.

وتراه فى البيت الثانى يضع الصفة موضع المصدر، فيقول (ولا خارجًا من فىّ سوءُ كلام) والمعنى : ولا يخرج خروجًا من فمى كلام سىء. لأنه حمله على (عاهدت) فى البيت الذى قبله. وبهذا استدل النحاة على جواز وضع الصفة موضع المصدر، استجابة لقول الفرزدق لهم : (على أن أقول، وعليكم أن تعربوا)[1].

ومما جاء فى القصيدة من هذا الباب المتعب للنحاة فى التخريج والتعليل قوله :

هما تفلا فى فىّ من فمويهما   على النابح العاوى أشد رجام

حيث جمع بين العوض والمعوض عنه فى (فمويهما)، وأتعب أهل الإعراب فى التعليل[2] .

وعلى كل حال؛ فإن القصيدة تتميز بعمق المعانى، وتدفقها، وقدرة الشاعر على الافتنان فيها والتجديد. وحسبه أنه أول شاعر هجا إبليس. ويذهب الباحث بطرس البستانى إلى أن القصيدة ذات دلالة بينة على أن الفرزدق أول شاعر إسلامى نظم فى فن الزهد، فيقول : «هو أول شاعر إسلامى أخذ بأهداب هذا الفن، فنظم قصيدة يهجو بها إبليس، ويتوب إلى ربه نادمًا على ذنوبه، وهى وإن تكن لا تستوعب شروط الشعر الزهدى من ذم الدنيا وملاذها، وإيراد المواعظ والحكم والأمثال، فإنها تنضم إليه بما فيها من إقرار بالخطيئة، وتوبة إلى الله، وخطاب للشيطان لم يسبق إليه»[3] .

---

[1] انظر : كتاب سيبويه، ١ / ١٧٣، وشرح الأبيات المشكلة الإعراب، ص ٢٤٣، ولسان العرب : مادة خرج.

[2] انظر : لسان العرب مادة فمم ومادة فوه وكتاب سيبويه ٢ / ٨٣، ٢٠٢.

[3] أداب العرب،ص ٣٥٥، ط. دار مارون عبود، بيروت.

والقصيدة -كما رأيت- لون من فن الحكاية والمحاورة صبه الفرزدق فى قالب موسيقى طويل ممتد (فعولن مفاعيلن / مكررة ٤ مرات) يتسع لكل ما أراد أن يقول عن توبته وعن ذم إبليس، ويتناسب طوله مع استيعاب الصور الكثيرة المركبة، لتصوير حملته العنيفة على الشيطان، وما يتلاءم مع طوله من عنف مشاعر الكره الشديد، وتدفق البغض العنيف للأبالسة لمقاومة إصرارهم وعنادهم على إغراء الإنسان حتى يصير من أتباعهم.

وقد جاءت القافية فى كل بيت نابعة من معناه غير متكلفة، واستطاع الشاعر عن طريقها أن يضيف لبنة إلى اللبنات التى صورت بغضه الشديد لإبليس، لأنه اعتمد فى القافية -كما ترى- على حرف لين وهو الألف، مما يطول معه الإيقاع والتنغيم الذى انتهى بالروى المكسور، وهو حرف الميم، وهو يمتاز بالتنغيم فى إيقاعه الصوتى، ويزيد من عمق إيقاعه وطوله حركة الكسر التى تزيد امتداده فى الإيقاع والتنغيم.

والشاعر -وإن لم يلتزم بالتصريع فى أول القصيدة- فإنه أتى بألوان عدة من ألوان الموسيقا الداخلية الخفية التى ازدادت بها القصيدة إيقاعًا، وتلاءمت مع التجربة الشعرية فيها، ومع المعانى والأفكار والعاطفة، فلا عبارة أو صورة أو بيت خلت من تتابع حروف اللين والشدات والتنوين، واختيار الحروف الثقيلة فى النطق وفى إيقاعها الصوتى، كالهاء والحاء والطاء والخاء والجيم والميم والفاء والثاء والعين والقاف والتاء والشين، ونحو ذلك مما يشكل تصويرًا صوتيًا ثقيلاً وعنيفًا، يمتد فيه الإيقاع ويطول، ليتلاءم مع العاطفة القوية، والمشاعر المتدفقة، والأفكار الكثيرة من ثقل وقع أصوات الحروف وامتداد الإيقاع والنغم الممتد مع اختيار الكلمات والصور الأدبية الموحية بالعنف والقسوة وغزارة المعانى وتنوع الإيحاء.

ومما زاد الإيقاع عمقًا وطولاً وامتدادًا وتوازنًا : تآزر بعض المحسنات البديعية التى جاءت عفو الخاطر مثل الجناس فى قوله : "تم تمامى" وهو جناس اشتاق يوضح المعنى ويؤكده، والجناس التام فى قوله : "اللقوح لقوح غرام"، والطباق فى قوله : "صحة وسقام" وقوله : "ورائى وأمامى".

وإضافة إلى ما تقدم من ملامح الموسيقا الخفية : هناك الألفاظ المنونة المنكرة التى حفلت بها القصيدة فازدادت بها إيقاعًا إلى جانب ما منحته هذه الألفاظ من دلالات التنوين على الزيادة والتكثير، ودلالات التنكير على التعظيم. وهناك الألفاظ التى تكررت أكثر من مرة فأحدثت بتكرارها نغمًا وإيقاعًا تطرب له الأذن، إضافة إلى ما أفادته بعض الألفاظ المكررة مثل تكرار ضمير الذات والمتكلم من دلالة على العزيمة الصارحة.

ويكفى هذا القدر من التحليل الموضوعى والفنى لقصيدة الفرزدق فى إعلان توبته وهجاء إبليس ... تلك القصيدة التى استطاع صاحبها أن يخرج بها من النمط الشائع فى باب الهجاء الشخصى والقبلى إلى نمط إبداعى جديد فى هذا الباب هو هجاء إبليس ... فكانت قصيدته -بحق- من روائع الأدب الإسلامى الهادف إلى غرس القيم النبيلة، ومقاومة التيارات الشريرة فى النفس.

والدرس المستفاد من هذه القصيدة : أن الهجاء فى الأدب الإسلامى يختلف -على نحو ما رأينا- عن الهجاء الشائع فى النقائض، حيث لا ترى فى الهجاء الذى رأيناه من الفرزدق لإبليس إلا نبل الغاية، وسمو المقصد، وروعة المضمون، وجمال الشكل، وحسن الأداء.

ومسك الختام خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع

قال رسول الله ﷺ : «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أوصيكم -عباد الله- بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد أيها الناس !! اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب[1]، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية[2] والعمد قود[3]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

---

[1] يقول ابن هشام فى السيرة النبوية : وكان مسترضعًا فى بنى ليث. فقتلته هذيل. فهو أول ما أبدأبه من دماء الجاهلية.

[2] السدانة : خدمة الكعبة، والسقاية : سقاية الحجاج.

[3] العمد : القتل العمد، والقود : قتل القاتل بمن قتل.

أيها الناس : «إنما النسىء[1] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله».

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان[2] ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإنما النساء عندكم عوان[3] لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنتى، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد.

---

[1] النسىء:شهر المحرم..كانوا يحرمونه عامًا ويحلونه عامًا آخر إن أرادوا الإغارة فيقولون إنه بعد شهر صفر.

[2] فى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق "ورجب مضر" وقد قال النبى ذلك كما ورد فى هامش "السيرة النبوية" لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسميه رجباء من رجبت الرحل ورجبته. إذا عظمته. فبين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة.

[3] عوان : أسيرات أى عندكم بمنزلة الأسيرات.

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، قالوا : نعم، قال : فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر[1].

من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

---

[1] للفراش : أى لصاحبه، وللعاهر أى أن هذا مقضى به رغم أنفها.

[2] فى رواية ابن هشام جاء فى آخر الخطبة هذا النص :

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوا تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم ... اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد.

الدراسة والتحليل

أ- نظرات فى مضمون الخطبة :

فى موقف تاريخى خالد، وفى مشهد مهيب رائع، وفى يوم من أيام الله المحرمة، وفى ساحة عرفات المطهرة، وفى حجة البلاغ أو حجة الوداع، ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وهتف فى الجموع الخاشعة التى تحيط به، يبلغ الناس وحى الله، ويلقى إليهم دستور الحياة، فى آخر لقاء مع أضخم حشد من جموع المؤمنين، فقد حرص -صلوات الله وسلامه عليه- على أن يوصيهم وصيته الجامعة، فلعله لا يلقاهم بعد عامه هذا ! ولعله لا يقف بينهم بعد موقفه هذا ! فنادى فيهم آمرًا بالبر والمعروف، داعيًا إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ناهيًا عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظمهم لعلهم يذكرون، وكان الذين استمعوا لهذه الخطبة الجامعة نحو مائة ألف مسلم تجمعوا على شكل مؤتمر موسع ليسمعوا من قائدهم ومعلمهم ورسولهم.

وفى الحق أن الرسول الكريم لم يكن يخطب يومها فوق مجرد ناقة، أو على ظهر بعير، ولم يكن يقف فى رقعة من الأرض محدودة، أو بين جموع من الناس معدودة، وإنما كان يخطب من فوق أعلى وأعظم منبر، تهتز أعواده بأبلغ وأجمع كلمات يلقنها الرسول الضمير الإنسانى، ويصبها فى سمع الزمن، ويلقيها فى فم الدنيا، لتطوف أرجاء الأرض هادية داعية إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصًا على أن تصل كلماته إلى كل سمع وتمس كل قلب، فكان يستعين برجل من صحابته هو ربيعة بن أمية بن خلف فكان يصرخ فى الناس ويقول يقول رسول الله، حتى تذاع الخطبة فى

أرجاء الوادى الفسيح فيقول الرسول له : قل لهم أيها الناس ... إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول لكم : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فيقولون : الشهر الحرام أى بلد هذا ؟ فيقولون : البلد الحرام ... أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر. فيقول مؤكدًا حرمات الله : «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

ولقد جمعت هذه الخطبة الجامعة، أصول الدين، وقواعد البر، ومنهج السلوك، ونظمت علاقة الإنسان بربه، ونفسه، والمجتمع الذى يعيش فيه ... إنها أعلنت الإنسان قبل أن تعرف دساتير الأرض ما هى حقوق الإنسان .. ؟ إنها رسمت الطريق، وأوضحت المعالم، وبينت حدود الله فقد ظلم نفسه ! ولم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان الناس فقد جاء بها القرآن وطبقها الرسول فى المجتمع المسلم، ولكن ركزعليها الرسول قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى لتظل ساطعة متوهجة لا تهمل ولا تنسى.

ولنقترب الآن من هذا التراث الغالى، لنقف مع مبادئه وقفات تكشف لنا عن عظمة الإسلام ونبى الإسلام. تلك المبادئ هى :

١- الحمد لله : أقوى أسباب القوة، وأعظم وسائل الاستعانة به والتوكل عليه. والتوبة من الذنوب، والتعوذ من شرور النفوس وسيئات العمل، تخليص من معوقات الخير، وإزاحة للعقبات التى تعترض طريق السائر إلى الله.

٢- الوصية بتقوى الله والحث على طاعته، وهو عماد الحياة الكريمة، وأقوى العدة على العدو، وأعظم المكيدة فى الحرب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا

اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد : ٧، ويقول ﷺ «إن الله عز وجل يغار، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه» رواه البخارى ومسلم.

٣- حث الناس على أن يتدبروا ما يلقى إليهم، وأن يعقلوه، ويفتحوا له قلوبهم وعقولهم، فقد أخبرهم النبى ﷺ أنه قد لا يلقاهم بعد عامه هذا وفى موقفه هذا، مما يجذب انتباههم، ويوقظ وعيهم، حتى يستوعبوا النصيحة، ويحرصوا عليها أشد الحرص، فلقد أحس ﷺ باقتراب أجله فأحب ألا يلقى ربه إلا وقد أدى حق البلاغ لهذه الأمة الكريمة التى صنعها على عين الله حتى تمتد بها مسيرتها الحضارية على صراط الله العزيز الحميد.

٤- حرمة الدماء والأموال، فكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، ولقد نهى الإسلام أشد النهى عن قتل النفس بغير حق وجعل جزاء القاتل الخلود فى النار قال تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء : ٩٣، والقتل جريمة نكراء، يهتز لها العرش، وتضطرب منها الدنيا ففى الحديث الشريف «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» رواه النسائى والترمذى والقاتل لاحظ له من رحمة الله ومغفرته : «لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا» رواه البخارى وأبو داود «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركًا أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا» رواه أبو داود النسائى. والدماء أول قضية يفصل فيها القضاء، بين يدى رب الأرض والسماء يقول ﷺ : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» رواه الخمسة إلا أبو داود.

وكما حرم الإسلام قتل النفس بغير حق، حرم أيضًا اغتصاب الحقوق، وأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ النساء : ٢٩.

وفى الحديث الذى رواه الشيخان : «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»، ويقول عليه الصلاة والسلام : «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» فقال : وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله ؟ فقال : «وإن كان قضيبًا من أراك» رواه مسلم ! وبهذا أعلن الرسول الكريم قداسة الحقوق الإنسانية، وأرسى دعائم أروع حضارة عرفها التاريخ.

٥- لقاء الله والسؤال عن الأعمال يوم القيامة، مما يدعو إلى محاسبة النفس والاستعداد للعرض على الله، والإقبال على الطاعة، ومجانبة السيئات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الحشر : ١٨، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المجادلة : ٦، وفى الحديث الشريف : «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» رواه الترمذى.

٦- تبليغ الرسالة والإشهاد على ذلك من الله ومن الحاضرين وفى إحدى الروايات أن الرسول ﷺ كان إذا قال : ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد كان يشير بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس أى يردها

إليهم، ليؤكد هذه الشهادة وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانـة ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ المائدة : ٦٧.

٧- وجوب أداء الأمانة وهى كل واجب على الإنسان نحو ربه أو نفسه أو الناس وتشمل كل نعمة أنعم الله بها على عبده، فعليه أن يحسن استعمالها فى مرضاة الله ... إنها الدين كله ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ النساء : ٥٨، وعن أنس -رضى الله عنه- قال : «ما خطبنا رسول الله إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» رواه أحمد.

٨- إهدار الربا والثأر وهما من أسباب الدمار، واضطراب الأمن، وقد حرم الله الربا بجميع صوره ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ البقرة : ٢٧٥، ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ البقرة : ٢٧٦، وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال : «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله» رواه مسلم. زاد الترمذى وغيره «وشاهديه وكاتبه» والأخذ بالثأر يفضى إلى الإخلال بالأمن، ويؤدى إلى الفوضى فى القصاص، حيث يترتب عليه قتل الأبرياء، وقد قال تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ البقرة : ١٧٩.

وكل من حرص على الأخذ بالثأر، أو أعان على القتل بالإرشاد أو

إحضار آلة القتل، أو التستر على القاتل، فحكمه حكم القاتل فى القصاص فى الدنيا، والعقاب فى الآخرة، يقول ﷺ : «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن، لأكبهم الله فى النار» رواه الترمذى. وقد أهدر الرسول ﷺ ربا عمه ودم ابن عمه لأن ذلك أدعى إلى امتثال أمره، حيث بدأ بنفسه وأهله فى تطبيق مبادئ الإسلام وهكذا كان الأنبياء جميعًا، يسبقون الناس إلى امتثال ما يأمرون به، واجتناب ما ينهون عنه يقول شعيب عليه الصلاة والسلام : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود : ٨٨.

وهكذا أخبر الرسول ﷺ أن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله أى مردود وباطل وكان العباس من أغنى التجار وأوفرهم مالاً وأوسعهم تجارة، كما أخبر أن كل دم فى الجاهلية موضوع، وأن أول دم يضعه دم ابن عمه عامر بن ربيعة، فقد كان مسترضعًا فى بنى ليث فقتلته هذيل وهو صغير يحبو أمام البيوت وهى فى حرب مع بنى سعد، أصابه حجر فقتله، أو أصابه سهم لا يعرف راميه فقتل.

٩- القضاء على مآثر الجاهلية : أعلن الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- أن مآثر الجاهلية موضوعة وهى المآثر الضارة، فقد جاء فى رواية أخرى: «ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع» أى لا قيمة له كالشىء الذى يداس عليه وذلك كالعدوى والطيرة والهامة وصفر .. إلخ.

أما المآثر النافعة، فقد أقرها الإسلام وحافظ عليها، وذلك مثل السدانة وهى خدمة الكعبة، والسقاية والمراد بها سقاية الحاج.

١٠- حكم القتل العمد والخطأ : فالعمد أن يقصد من يفعله آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به وفيه القود وهو القصاص ويجوز لولى الجناية قبول الدية. والخطأ أن يفعل ما يجوز له فعله مثل أن يرمى ما يظنه صيدا أو يرمى غرضًا فيصيب آدميًا لم يقصده بالقتل وحكمه كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ النساء : ٩٢.

وشبه العمد أن يقصده بما لا يقتل غالبًا كمن ضرب غيره بسوط أو عصا أو حجر صغير أو لكزة فى غير مقتل. وفيه الدية وهى مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية، وتدفع الدية من نوع ما يملكه دافعها لحديث أبى داود عن جابر : «فرض رسول الله ﷺ فى الدية على أهل الإبل مائة من الإبل وعلى أهل البقر مائتى بقرة وعلى أهل الشام ألفى شاة».

١١- انتهاء عبادة الشيطان بأرض الوحى : فقد دالت دولة الوثنية بظهور الإسلام، وبطل عمل الشيطان فى دعوة الناس إلى طاعته، ولم يبق أمام الشيطان إلا أمور يستسهلها الناس وهى خطيرة، وهى التحريض على الشقاق، وإلقاء الفتنة لبث الخلاف فى صفوف الموحدين فعليهم أن يحذروه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة : ٢٠٨، وعليهم أن يعتصموا بالله وأن يستمسكوا بالوحدة فهى قوة وعزة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران : ١٠٣، ألا ما أكثر قوى البشر وعملاء الشيطان

التى تتربص بالمسلمين الدوائر، تريد أن تحطم دينهم وتقوض حضارتهم، فعلينا أن نسد الطريق على مؤامرات الأعداء ولا نجعل للشيطان مكانًا بيننا.

١٢- تحريم التلاعب بالأشهر الحرم، ووجوب احترام الزمن، بأن يكون على هيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وقد حرم الله النسىء وهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرًا آخر، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها، وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة. والنسىء زيادة فى الكفر أى كفر آخر ضموه إلى كفرهم ليواطئوا أى يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة.

١٣- حقوق النساء وواجباتهن، وتأديبهن عند النشوز، والوصية بهن لضعفهن: وفى تقرير هذه الحقوق والواجبات بين الزوجين حفظ لكيان الأسرة، والأسرة لبنة فى بناء المجتمع، يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها، فعلى المرأة أن تطيع زوجها، وتحافظ على ماله وعرضه، فلا تدخل بيته أحدًا إلا بإذنه وأن تلبس لبسًا من العفة وتصون نفسها من مواطن الشبهات فإن خالفت هذا المنهج الإسلامى فقد أذن الله فى تأديبها وذلك بالهجر فى المضجع أو ضربها ضربًا غير مبرح أى غير مؤثر ولا شاق، وإن أطاعت فلها حقها بتوفير ما تحتاجه من طعام وكسوة ونفقة بالمعروف .. واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوان عندكم.. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء،

وبذلك أكد الرسول الكريم حقوق المرأة، ورد عليها كرامتها لأنها لقيت من قبله ضروبًا من العنت وألوانًا من المهانة ..!

١٤- ميراث رسول الله ﷺ: لقد ترك فينا كتاب الله وسنة نبيه، محجة بيضاء، وأمرًا بينًا، وصراطًا مستقيمًا لا يزيغ عنه إلا هالك ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة: ٦، ٧.

١٥- المسلم أخو المسلم: فلا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، ولا يأخذ منه شيئًا إلا عن طيب نفس. يقول ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره التقوى ههنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» رواه مسلم. وبهذا أعلن رسول الإسلام الحقوق الإنسانية المقدسة قبل أن تولد المنظمات الدولية.

١٦- خطر الانتكاس والعودة إلى الكفر بالتناحر والتضارب فقد تركنا رسول الله ﷺ أمة واحدة، ولكن مؤامرات الأعداء ودسائس الاستعمار تعمل على التفريق بيننا، جريًا على دستورهم "فرق تسد" والرسول الكريم يحذرنا من أن نعود بعده متباعدين يضرب بعضنا رقاب بعض فاجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف هما الوسيلة لبقاء الأمة وحفظ كيانها والاختلاف طريق الضعف والانهيار، يقول ﷺ: «لا ترجعوا بعدى

كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» رواه الترمذى. ويقول : «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية» رواه البخارى.

١٧- وحدانية الألوهية، ووحدة الأصل لجميع الناس : فإن للناس ربًا واحدًا، وهم مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم يرجعون فى النهاية إلى أصل واحد هو آدم أبو البشر وآدم من تراب وهذا يدعو الناس إلى أن يعيشوا على هذه الأرض أخوة متعاونين لا متعادين ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات : ١٣.

١٨- تحديد المواريث وحكم الوصية : حيث بين الرسول الكريم أن الله تعالى قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء : ١١، ولقد بينت الآيات الواردة فى سورة النساء نصيب كل مستحق فى الميراث، وقد فرض الإسلام العمل بهذه الأنصباء المقررة فى كتاب الله وسنة الرسول، يقول النبى ﷺ : «أقسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله تعالى» رواه مسلم وأبو داود. وتفضيل بعض الأولاد على بعض، وإعطاء الذكور دون الإناث، تفرقة ظالمة، وتصرف حرام، لأنه مدعاه للعداوة والحقد الدائمين وقد قال ﷺ : «سووا بين أولادكم فى العطية ولو كنت مفضلاً أحدًا

لفضلت النساء» رواه الطبرانى والبيهقى. وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : انطلق بى أبى يحملنى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، أشهد أنى قد نحلت النعمان كذا وكذا من مالى فقال : «أكل بنيك قد نحلت مثل هذا ؟ قال : لا، قال : فأشهد على هذا غيرى، ثم قال : أيسرك أن يكونوا إليك فى البر سواء، قال : بلى، قال: فلا إذًا» وفى رواية «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم» رواه الخمسة.

وبين الرسول أيضًا أنه لا وصية لوارث، وهذا محمول على عدم إجازة الورثة ذلك، أما إذا أجاز باقى الورثة العصبة فهى صحيحة، لحديث الدارقطنى «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة» والجمهور على هذا، وقال بعضهم : لا تصح وإن أجاز باقيهم، لأن المنع فيها حق الشرع فلا يملكونه ولا تجوز وصية لغير وارث فى أكثر من الثلث لقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص : «الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» رواه مسلم وأبو داود والنسائى. أى أن المشروع فى الوصية الثلث وهو كثير، بل النقص عنه مطلوب، فإن ترك الورثة أغنياء، خير من تركهم فقراء يسألون الناس ويمدون أكفهم إليهم يطلبون الصدقة ....!

١٩- حكم ولد الزنا ولمن ينسب ....! فالزنا جريمة بشعة، وفاحشة من أكبر الكبائر : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء : ٣٢، وحكم الزانى المحصن الرجم حتى الموت وغير المحصن جلد مائة وتغريب عام أى نفيه. والثمرة المحرمة الناتجة عن جريمة الزنا، لا تنسب إلى الزانى، وإنما ينسب الولد لأمه كما قال الرسول ﷺ : «الولد للفراش وللعاهر الحجر» أى ولد الزنا لأمه وللعاهر أى الزانى الحجر أى الخيبة

والحرمان فلا شيء له، والعرب تقول في ذلك : له الحجر، وبفيه التراب أي لا شيء له !

٢٠- الانتساب إلى غير نسب صحيح أو إلى موالى غير حقيقتين موجب للعنة الله تعالى : فالإسلام يحافظ على صحة الأنساب ويأمر بمراعاتها إذ على الأنساب تقوم القرابة، وتترتب أحكام كثيرة، فى النكاح والميراث وغير ذلك، وضياع الأنساب أو اختلاطها يؤدى إلى الفوضى ويفضى إلى ضياع الحقوق. الشرع يفرض إلحاق كل ولد بأبيه ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الأحزاب : ٥، إنه عدل للوالد الذى نشأ الولد منه وعدل للولد الذى يحمل اسم أبيه وخصائصه وخصائص آبائه وأجداده وعدل للحق فى ذاته الذى يضع كل شيء فى مكانه. ويفرض الشرع أيضًا احترام الولاء، ويوجب إلحاق كل معتق بمولاه، والولاء شرعًا : عصوبة سببها نعمة المعتق على عتيقه ويرث به المعتق وعصبته المتعصبون بأنفسهم ففى الحديث الشريف : «الولاء لمن أعطى الورق وولى النعمة» رواه الخمسة. أى الولاء لمن دفع الورق وهى الدراهم المضروبة واشترى بها الرقيق وأولاه نعمة الإعتاق. فمن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً.

إن فى هذه المبادئ العشرين التى تضمنتها الخطبة الجامعة فى حجة الوداع، ما يوضح الحقوق والواجبات، وما يرسم منهاج السلوك الصحيح ويضع أساس الحياة الكريمة، مما لو عمل به المسلمون لكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

هذه هى معانى تلك الخطبة الجامعة، وتلك أهم المبادئ التى احتوتها، وواضح أنها تدور فى إطار إرساء الفضائل الإنسانية، والقيم الإسلامية، ليعم الخير البشرية ولتسود المحبة بين الناس، وليعيش المسلمون حياة طيبة فى دنياهم ولينالوا الثواب العظيم فى آخرتهم.

***

ب- الألفاظ والأساليب فى الخطبة :

من القضايا المقررة الثابتة التى لا مراء فيها، أن ألفاظ الرسول ﷺ، فى حديثه وخطبه، قد برئت من الأغراب والتعقيد، والاستكراه فهى ألفاظ واضحة سهلة مألوفة لها بهاء ورونق، تعمر بها القلوب، وتنشرح لها الصدور، وترتاح إليها الأسماع والأفئدة.

وبدراسة خطبة الرسول ﷺ -التى سبق عرضها- من ناحية ألفاظها، يتضح ما سبق ذكره، كما يتضح أيضًا أن الرسول ﷺ لم يستخدم السجع -وما جاء منه جاء عفوًا- بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له فى الجاهلية ولذلك صد عنه كما صد عنه الخلفاء الراشدون، رضوان الله عليهم.

وقد وضع الرسول ﷺ بأسلوب خطابته، أسلوبًا اتبعه الخطباء من بعده.

فهى تبدأ بالحمد لله، والثناء عليه، ثم بإعلان التوبة والاستغفار والإقرار بالوحدانية للواحد القهار، والتصديق بنبوة المصطفى المختار سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يشرع فى الموضوع الذى أراد أن يتحدث عنه.

ويلاحظ على أسلوب الخطبة الجامعة -التى نحن بصددها- كثرة استخدام صيغة أيها الناس ومرجع ذلك إلى عموم رسالة النبى محمد ﷺ، فهو

مرسل إلى الناس عامة، مذ بعث وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك ختم ﷺ خطبته ووصيته بقوله : فليبلغ الشاهد (الحاضر المستمع) الغائب عن الموقف، أو الذى لم يولد بعد.

كما أفادت هذه الصيغة -أيها الناس- صيغة النداء والخطاب جذب الانتباه، وإيقاظ الأسماع والعقول، وتهيئتها للقضايا التى أثارها الرسول ﷺ وذاك مظهر من مظاهر البلاغة فى هذه الخطبة.

كما يلاحظ أيضًا شيوع أسلوب التقرير والإيضاح، حتى يؤمن المستمع بصدق ما يقوله ﷺ، ويستقبل الحكم بيقين واقتناع، وذلك مشاهد فى قضية تحريم المال والدم، وتحريم النفس، وفى بيان حقوق كل من الرجل والمرأة فى الإسلام، وفى إعلان الأخوة بين المؤمنين والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات «إنما المؤمنون أخوة» إن ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير، وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى.

هذا وقد سيطر الأسلوب الخبرى على أساليب الخطبة، ويرجع ذلك إلى أن جل هم الرسول ﷺ أن يقنع الناس بالحجة والبرهان، بما ساقه من قضايا فى ثنايا خطبته.

كما جاء الاستشهاد ببعض آى الذكر الحكيم -القرآن الكريم- على لسان رسول الله ﷺ وذلك فى قوله[1] ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...﴾ الآية.

---

[1] سورة التوبة : الآية ٣٧.

وفى قوله[1] : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . .﴾ الآية.

وفى قوله[2] : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

كما استوحى الرسول ﷺ قوله تعـالى[3] : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ . . .﴾ الآية.

وذلك فى قوله ﷺ : «إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث».

واستوحى أيضًا قوله تعالى[4] : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

وقوله تعالى[5] : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وذلك فى قوله ﷺ : «من ادعى إلى غير أبيه ...».

هذا والخطبة بأسـلوبها التى ظهـرت عليـه، قـد جمعـت بـين عنصـرى الاستمالة والإقناع، وهما من سمات الخطبة الجيدة.

وقد تحققت الاستمالة فى الخطبة لاشتمالها على قصر الفقرات والتنوع بين الأساليب، فمنها ما يهدف إلى الإثارة والحث، أو التنبيـه كالأسـاليب التـى بدأت بالنداء والأمر «أيها الناس اسمعوا منى، ومنها ما يهدف إلى الإخبار، كما سيطر عليها جو عاطفى هدفه الإشفاق، والحرص على النجـاة، وتحقيـق الخـير، كما تحقق الإقناع فى الخطبة بالتفصيل بعد العموم، والتوضيح بعد الإجمال.

---

[1] سورة الحجرات : الآية ١٠.

[2] سورة الحجرات : الآية ١٣.

[3] سورة النساء : الآية ١١، ١٢.

[4] سورة الأحزاب : الآية ٤.

[5] سورة الأحزاب : الآية ٥.

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يشعر بدنو أجله وقرب رحيله، ولذا بدأ بقوله : أيها الناس : اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا.

وكان يختم كل فقرة من فقرات خطبته، بقوله : ألا هل بلغت ؟ اللهم شهد.

وبقوله هذا، أراد ﷺ أن يبرئ ذمته، من الأمانة التى حملها الله له، ويعلن على الملأ أنه بلغ الرسالة، التى أمر بتبليغها، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

وبعد: فهذه الخطبة بأسلوبها التى جاءت عليه، قد جمعت بين الموعظة الإسلامية، والتشريع لمنهج قويم، حيث عرض الرسول ﷺ على المسلمين أهم مبادئ دستور الحياة الإسلامية الصحيحة، موجزة، مركزة، قائمة على الكرامة والوحدة والتعاون، واحترام المرأة ومراعاة حقوقها ومحاربة الفساد، والبعد عن دسائس الشيطان.

كما أنها كسائر خطبه ﷺ- نموذج للبيان يقتبس الأديب من لفظه، ويجد البليغ فيه المثل الذى يحتذى ليصل بكلامه إلى غايته.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

للمؤلف

١-كشف النقاب عن القصائد المتميزة بالألقاب (الحلقة الأولى) مطابع القدس، الإسكندرية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٢-القصيدة المنفرجة وأثرها في التراث العربي (توثيقًا وتحليلاً ودراسة)، مطابع القدس، الإسكندرية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

٣-صورة سعاد في قصائد بانت سعاد (دراسة نصية لإحدى عشرة قصيدة)، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٤-العقد الثمين في أدب الجاهليين، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٩/٢٠٠٠م.

٥-أباطيل الخصوم حول القصص القرآني (عرض ومناقشة)، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٦-أدب القصة في القرآن الكريم (دراسة تحليلية كاشفة عن معالم الإعجاز)، الدار المصرية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

٧-حربيات البارودي (تحليل موضوعي وتقويم فني) (قيد الطبع).

٨-تأملات في إعجاز القصص القرآني (قيد الطبع).

٩-قصة يوسف عليه السلام وأثرها في الأدب (قيد الطبع).

١٠-الديوان الكبير لابن حجر العسقلاني (تحقيقًا ودراسة) (قيد الطبع).

١١-ديوان الشهاب المنصوري (أكبر شعراء القرن التاسع الهجري) (تحقيقًا ودراسة) (قيد الطبع).

١٢-عين النبع في مختصر طرد السبع للعلامة السيوطي (تحقيقًا ودراسة) (قيد الطبع).

١٣-حديث المساء (مقالات وبحوث في الأدب والنقد) (قيد الطبع).

رقم الإيداع : ٤٩٤٤ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N

977 - 6003 - 03 - 6